① التفسير

المجموعة الكاملة لمؤلفات

الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

الجزء الثالث

من تفسير سورة الأعراف والأنفال والتوبة ويونس وهود

مركز صالح بن صالح الثقافي
بعنيزة
المملكة العربية السعودية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



تفســـير

سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ المص ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم

يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، مبينا له عظمة القرآن :

[كتاب أنزل إليك] أى : كتاب جليل ، حوى كل ما يحتاج إليه العباد ، وجميع المطالب الإلهية ، والمقاصد الشرعية ، محكما مفصلا .

[فلا يكن فى صدرك حرج منه] أى : ضيق وشك واشتباه .

بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ، وأنه أصدق الكلام ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

فلينشرح له صدرك ، ولتطمئن به نفسك ، ولتصدع بأوامره ونواهيه ، ولا تخش لائماً ومعارضاً .

[لتنذر به] الخلق ، وتعظهم ، وتذكرهم ، فتقوم الحجة على المعاندين .

[و] ليكن [ذكرى للمؤمنين] كما قال تعالى [وذكر فإن الذكرى

مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾

تنفع المؤمنين] يتذكرون به الصراط المستقيم ، وأعماله الظاهرة والباطنة ، وما يحول بين العبد ، وبين سلوكه .

ثم خاطب الله العباد ، ولفتهم إلى الكتاب فقال :

[واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم] أي : الكتاب الذى أريد إنزاله لأجلكم ، وهو :

[من ربكم] الذى يريد أن يتم تربيته لكم ، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذى إن اتبعتموه ، كملت تربيتكم ، وتمت عليكم النعمة ، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ، ومعاليها .

[ولا تتبعوا من دونه أولياء] أى : تتولونهم ، وتتبعون أهواءهم ، وتتركون لأجلها الحق .

[قليلا ما تذكرون] فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة ، لما آثرتم الضار على النافع ، والعدو على الولىّ .

ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به رسلهم ، فلا يشابهونهم فقال :

[وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا] أي : عذابنا الشديد [بياتا أو هم قائلون] أى : في حين غفلتهم ، وعلى غرتهم غافلون ، لم يخطر الهلاك على قلوبهم .

فحين جاءهم العذاب ، لم يدفعوه عن أنفسهم ، ولا أغنت عنهم آلهتهم ،

فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾

التى كانوا يرجونهم[1]، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصى.

[فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين] كما قال تعالى :

[وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون * قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين] .

وقوله [فلنسألن الذين أرسل إليهم] أى : لنسألن الأمم ، الذين أرسل الله إليهم المرسلين ، عما أجابوا رسلهم ، (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) الآيات .

[ولنسألن المرسلين] عن تبليغهم، لرسالات ربهم ، وعما أجابتهم به أممهم.

---

(١) قوله (يرجونهم الخ) من باب تغليب العقلاء على غيرهم ، لأن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويرجونها وليست من العقلاء كما كانوا أيضاً يعوذون برجال من الجن والإنس كما اتخذوا فرعون والنمرود إلها فتعبير المؤلف بـ « يرجونهم » إنما يتمشى على إرادة العقلاء ، لأن « هم » لا تكون إلا للعقلاء فلذلك قلنا : « من باب تغليب العقلاء » ولو كان المعنى مقتصراً على الأصنام ، لما صح التعبير بـ « يرجونهم » بل لتعين أن يقال « يرجونهن » لأن ضمير « هن » صالحة للعاقلات ولغير العقلاء مؤنثا ومذكرا .

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾

وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

[فلنقصن عليهم] أى : على الخلق كلهم ما عملوا [بعلم] منه تعالى لأعمالهم .

[وما كنا غائبين] فى وقت من الأوقات ، كما قال تعالى :

[أحصاه الله ونسوه] .

وقال تعالى [ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين] .

* ثم ذكر الجزاء على الأعمال فقال : [والوزن يومئذ الحق] إلى قوله :

[بما كانوا بآياتنا يظلمون] .

أى : والوزن يوم القيامة يكون بالعدل ، والقسط ، الذى لا جور فيه ولا ظلم بوجه .

[فمن ثقلت موازينه] بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته .

[فأولئك هم المفلحون] أى : الناجون من المكروه ، المدركون للمحبوب الذين حصل لهم الربح العظيم ، والسعادة الدائمة .

[ومن خفت موازينه] بأن رجحت سيئاته ، وصار الحكم لها .

[فأولئك الذين خسروا أنفسهم] إذ فاتهم النعيم المقيم ، وحصل لهم العذاب الأليم .

[بما كانوا بآياتنا يظلمون] فلم ينقادوا لها ، كما يجب عليهم ذلك .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ

---

* يقول تعالى — ممتنا على عباده بذكر السكن والمعيشة [ولقد مكنا كم فى الأرض] أى : هيأناها لكم ، بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها ، ووجوه الانتفاع بها .

[وجعلنا لكم فيها معايش] مما يخرج من الأشجار والنبات ، ومعادن الأرض ، وأنواع الصنائع والتجارات ، فإنه هو الذى هيأها ، وسخر أسبابها .

[قليلا ما تشكرون] الله ، الذى أنعم عليكم بأصناف النعم ، وصرف عنكم النقم .

* يقول تعالى ، مخاطباً لبنى آدم : [ولقد خلقنا كم] بخلق أصلكم ومادتكم التى منها خرجتم ، من أبيكم آدم عليه السلام [ثم صورنا كم] فى أحسن صورة ، وأحسن تقويم .

وعلمه تعالى ما به تكمل صورته الباطنة ، أسماء كل شىء .

ثم أمر الملائكة الكرام ، أن يسجدوا لآدم ، إكراماً واحتراماً ، وإظهاراً لفضله ، فامتثلوا أمر ربهم .

[فسجدوا] كلهم أجمعون ، [إلا إبليس] أبى أن يسجد له ، تكبرا عليه ، وإعجابا بنفسه .

ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا

فوبخه الله على ذلك وقال : [ما منعك ألا تسجد] لما خلقت بيدىَّ ، أى : شرفته ، وفضلته بهذه الفضيلة ، التى لم تكن لغيره ، فعصيت أمرى ، وتهاونت بى ؟

[قال] إبليس معارضاً لربه : (أنا خير منه) .

ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله له : [خلقتنى من نار وخلقته من طين] .

وموجب هذا ، أن المخلوق من نار ، أفضل من المخلوق من طين لعلو النار على الطين ، وصعودها .

وهذا القياس من أفسد الأقيسة ، فإنه باطل من عدة أوجه .

منها : أنه فى مقابلة أمر الله له بالسجود ، والقياس إذا عارض النص ، فإنه قياس باطل ، لأن المقصود بالقياس ، أن يكون الحكم الذى لم يأت فيه نص ، يقارب الأمور المنصوص عليها ، ويكون تابعاً لها .

فأما قياس يعارضها ، ويلزم من اعتباره إلغاء النصوص ، فهذا القياس من أشنع الأقيسة .

ومنها : أن قوله [أنا خير منه] بمجردها كافية لنقص إبليس الخبيث .

فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه ، وتكبره ، والقول على الله بلا علم. وأى نقص أعظم من هذا ؟ ! !

ومنها : أنه كذب فى تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب .

يَكُونَ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

فإن مادة الطين ، فيها الخشوع ، والسكون ، والرزانة ، ومنها تظهر بركات الأرض ، من الأشجار ، وأنواع النبات ، على اختلاف أجناسه وأنواعه .

وأما النار ، ففيها الخفة ، والطيش ، والإحراق .

ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى ، انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين .

فقال الله له : [فاهبط منها] أى من الجنة [فما يكون لك أن تتكبر فيها] لأنها دار الطيبين الطاهرين ، فلا تليق بأخبث خلق الله وأشرهم .

[فاخرج إنك من الصاغرين] أى : المهانين الأذلين ، جزاء على كبره وعجبه ، بالإهانة والذل .

فلما أعلن عدو الله بعداوة الله ، وعداوة آدم وذريته ، سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث ، ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بنى آدم .

ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم ، ليتبين الصادق من الكاذب ، ومن يطيعه ، ومن يطيع عدوه ، أجابه لما سأل فقال : [إنك من المنظرين] .

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

---

* أى : قال إبليس - لما أبلس ، وأيس من رحمة الله - [فبما أغويتنى لأقعدن لهم] أى : للخلق [صراطك المستقيم] أى : لألزمن الصراط ولأسعى غاية جهدى ، على صد الناس عنه ، وعدم سلوكهم إياه .

[ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم] أى : من جميع الجهات والجوانب ، ومن كل طريق يتمكن فيه ، من إدراك بعض مقصوده فيهم .

ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم ، وكان جازما ببذل مجهوده على إغوائهم ، ظن وصدق ظنه فقال :

[ولا تجد أكثرهم شاكرين] فإن القيام بالشكر ، من سلوك الصراط المستقيم ، وهو يريد صدهم عنه ، وعدم قيامهم به ، قال تعالى :

[إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير] .

وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله ، لنأخذ حذرنا ونستعد لعدونا ، ونحترز منه بعلمنا ، بالطريق التى يأتى منها ، ومداخله التى ينفذ منها ، فله تعالى علينا بذلك ، أكمل نعمة .

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾

---

* أى : قال الله لإبليس لما قال ما قال : [اخرج منها] خروج صغار واحتقار ، لا خروج إكرام بل [مذءوما] أى : مذموما [مدحورا] مبعداً عن الله ، وعن رحمته ، وعن كل خير .

[لأملأن جهنم منكم] أى : منك وممن تبعك منهم [أجمعين] وهذا قسم من الله تعالى ، أن النار دار العصاة ، لابد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس .

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال :

* [ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة] إلى قوله : [من الخاسرين] .

أى أمر الله تعالى ، آدم وزوجته حواء ، التى أنعم الله بها عليه ، ليسكن إليها ، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعا فيها بما أرادا ، إلا أنه عين لهما شجرة ، ونهاهما عن أكلها .

والله أعلم ، ما هى ، وليس فى تعيينها فائدة لنا .

وحرم عليهما أكلها ، بدليل قوله :

[فتكونا من الظالمين] فلم يزالا ممتثلين لأمر الله ، حتى تغلغل إليهما ، عدوهما إبليس بمكره ، فوسوس لهما وسوسة ، خدعهما بها ، وموه عليهما وقال :

فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ

[مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين] أى : من جنس الملائكة [أو تكونا من الخالدين] كما قال فى الآية الأخرى :

[هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى] .

ومع قوله هذا أقسم لهما بالله [إنى لكما لمن الناصحين] أى : من جملة الناصحين ، حيث قلت لكما ، ما قلت .

فاغترا بذلك ، وغلبت الشهوة فى تلك الحال على العقل .

[فدلاهما] أى: أنزلهما عن رتبتهما العالية ، التى هى البعد عن الذنوب والمعاصى إلى التلوث بأوضارها ، فأقدما على أكلها .

[فلما ذاقا الشجرة ، بدت لهما سوآتهما] أى : ظهرت عورة كل منهما بعد ما كانت مستورة .

فصار للعرى الباطن من التقوى فى هذه الحال ، أثر فى اللباس الظاهر ، حتى انخلع ، فظهرت عوراتهما .

ولما ظهرت عوراتهما ، خجلا ، وجعلا يخصفان على عوراتهما ، من أوراق شجر الجنة ، ليستترا بذلك .

أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾

[وناداهما ربهما] وهما بتلك الحال موبخا ومعاتبا .

[ألم أنهكما عن تلك الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين] فلم اقترفتما المنهى ، وأطعتما عدوكما ؟

فحينئذ ، من الله عليهما بالتوبة وقبولها ، فاعترفا بالذنب ، وسألا من الله مغفرته فقالا :

[ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين] .

أى : قد فعلنا الذنب ، الذى نهيتنا عنه ، وأضررنا بأنفسنا ، باقتراف الذنب ، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا ، بمحو أثر الذنب وعقوبته ، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا .

فغفر الله لهما ذلك [وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى *] .

هذا ، وإبليس مستمر على طغيانه ، غير مقلع عن عصيانه .

فمن أشبه آدم بالاعتراف ، وسؤال المغفرة والندم ، والإقلاع — إذا صدرت منه الذنوب — اجتباه ربه وهداه .

ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب ، لايزال يزداد من المعاصى - فإنه لا يزداد من الله إلا بعدا .

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا

---

* [قال اهبطوا] أى : قال الله ، مخاطبا لآدم وحواء بلفظ الجمع ، لأن إبليس هبط من قبل إلى السماء ، ثم هبطوا جميعاً إلى الأرض .

وكرر الأمر لإبليس ، تبعا لهما ، ليعلم أنهم قرناء أبداً ، لأن إبليس ، لايفارق الإنسان ، بل يلازمه كل الملازمة ، ويبذل كل جهده ، فى إضلال بنى آدم .

وجملة [بعضكم لبعض عدو] فى موضع نصب على الحال ، من الضمير الذى هو الواو ، فى [اهبطوا] .

وخلاصة المعنى أن الله قال لهما وللشيطان : اهبطوا جميعاً من الجنة إلى الأرض متعادين ، ولكم فى الأرض ، استقرار ، وموضع استقرار ، تتمتعون وتنتفعون ، إلى حين انقضاء آجالكم .

* أى : لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض ، أخبرهما بحال إقامتهم فيها ، وأنه جعل لهم فيها حياة ، يتلوها الموت ، مشحونة بالامتحان والابتلاء ، وأنهم لايزالون فيها ، يرسل إليهم رسله ، وينزل عليهم كتبه ، حتى يأتيهم الموت ، فيدفنون فيها .

ثم إذا استكملوا ، بعثهم الله ، وأخرجهم منها إلى الدار التى هى الدار حقيقة ، التى هى دار المقامة .

وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾

ثم امتن عليهم بما يسر لهم ، من اللباس الضروري ، واللباس الذى المقصود منه ، الجمال .

وهكذا سائر الأشياء ، كالطعام ، والشراب ، والمراكب ، والمناكح ونحوها .

قد يسر الله للعباد ضروريها ، ومكمل ذلك ، وبين لهم أن هذا ، ليس مقصوداً بالذات ، وإنما أنزله الله ، ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته ، ولهذا قال :

[ولباس التقوى ذلك خير] من اللباس الحسى ، فإن لباس التقوى ، يستمر مع العبد ، ولا يبلى ولا يبيد ، وهو جمال القلب والروح .

وأما اللباس الظاهري ، فغايته أن يستر العورة الظاهرة ، فى وقت من الأوقات .

أو يكون جمالا للإنسان ، وليس وراء ذلك منه نفع .

وأيضاً ، فبتقدير عدم هذا اللباس ، تنكشف عورته الظاهرة ، التى لا يضره كشفها ، مع الضرورة .

وأما بتقدير عدم لباس التقوى ، فإنها تنكشف عورته الباطنة ، وينال الخزى والفضيحة .

وقوله : [ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون] أى : ذلك المذكور لكم من اللباس ، مما تذكرون به ، ما ينفعكم ويضركم ، وتستعينون باللباس الظاهر على الباطن .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

* يقول تعالى ، محذراً لبنى آدم ، أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم :

[يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان] بأن يزين لكم العصيان ، ويدعوكم إليه ، ويرغبكم فيه ، فتنقادون له [كما أخرج أبويكم من الجنة] وأنزلهما من المحل العالى ، إلى أنزل منه .

فإياكم[1] يريد أن يفعل بكم كذلك ، ولا يألو جهده عنكم ، حتى يفتنكم ، إن استطاع .

فعليكم أن تجعلوا الحذر منه فى بالكم ، وأن تلبسوا لأمة الحرب بينكم وبينه ، وأن لا تغفلوا عن المواضع التى يدخل منها إليكم .

[إنه] يراقبكم على الدوام ، و [يراكم هو وقبيله] من شياطين الجن [من حيث لا ترونهم ، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون].

فعدم الإيمان ، هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان .

(إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه ، والذين هم به مشركون) .

---

(١) فى الأصل المطبوع (فأنتم) وهو خطأ نحوى لأن (أنتم) من الضمائر المختصة بالرفع فلذلك أبدلناه بـ « إياكم » المختص بالنصب .

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ

☆ يقول تعالى ، مبيناً لقبح حال المشركين ، الذين يفعلون الذنوب ، وينسبون لله أنه أمرهم بها .

[وإذا فعلوا فاحشة] وهى : كل ما يستفحش ويستقبح ، ومن ذلك : طوافهم بالبيت ، عراة .

[قالوا : وجدنا عليها آباءنا] وصدقوا فى هذا .

[والله أمرنا بها] وكذبوا فى هذا ، ولهذا رد الله عليهم هذه النسبة فقال :

[قل إن الله لا يأمر بالفحشاء] أى : لا يليق بكماله وحكمته ، أن يأمر عباده بتعاطى الفواحش ، لا هذا الذى يفعله المشركون ولا غيره .

[أتقولون على الله ما لا تعلمون] وأى افتراء أعظم من هذا !!!

ثم ذكر ما يأمر به فقال : [قل أمر ربى بالقسط] أى : بالعدل فى العبادات والمعاملات ، لا بالظلم والجور .

[وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد] أى : توجهوا إلى الله ، واجتهدوا فى تكميل العبادات ، خصوصاً « الصلاة » أقيموها ، ظاهراً وباطناً ، ونقوها من كل نقص ومفسد .

كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ

[وادعوه مخلصين له الدين] أى : قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له .

والدعاء يشمل دعاء المسألة ، ودعاء العبادة أى : لا تريدوا ولا تقصدوا من الأغراض فى دعائكم ، سوى عبودية الله ورضاه .

[كما بدأكم] أول مرة [تعودون] للبعث .

فالقادر على بدء خلقكم ، قادر على إعادته ، بل الإعادة ، أهون من البدء .

[فريقاً] منكم [هدى] الله ، أى : وفقهم للهداية ، ويسر لهم أسبابها ، وصرف عنهم موانعها .

[وفريقاً حق عليهم الضلالة] أى : وجبت عليهم الضلالة ، بما تسببوا لأنفسهم ، وعملوا بأسباب الغواية .

[إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله] ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله ، فقد خسر خسرانا مبيناً .

فحين انسلخوا من ولاية الرحمن ، واستحبوا ولاية الشيطان ، حصل لهم النصيب الوافر ، من الخذلان ، ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران .

أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟

[وهم يحسبون أنهم مهتدون] لأنهم انقلبت عليهم الحقائق ، فظنوا الباطل حقاً ، والحق باطلا .

وفى هـذه الآيات ، دليل على أن الأوامر والنواهى ، تابعة للحكمة والمصلحة .

حيث ذكر تعالى ، أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول.

وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص .

وفيه دليل على أن الهداية ، بفضـل الله ومنه ، وأن الضلالة بخذلانه للعبد ، إذ تولى — بجهله وظلمه — الشيطان ، وتسبب لنفسه بالضلال .

وأن من حسب أنه مهتد ، وهو ضال ، فإنه لا عذر له ، لأنه متمكن من الهدى .

وإنما أتاه حسبانه ، من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى .

* يقول تعالى ـ بعد ما أنزل على بنى آدم لباساً يوارى سوءاتهم وريشاً ـ :

[يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد] أى : استروا عوراتكم عند الصلاة كلها ، فرضها ونفلها ، فإن سترها زينة للبدن ، كما أن كشفها ، يدع البدن قبيحاً مشوهاً .

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ، ما فوق ذلك ، من اللباس النظيف الحسن.

ففى هذا ، الأمر بستر العورة فى الصلاة ، وباستعمال التجميل فيها ، ونظافة السترة من الأدناس والأنجاس .

وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

ثم قال [وكلوا واشربوا] أى : مما رزقكم الله من الطيبات [ولا تسرفوا] فى ذلك .

والإسراف ، إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافى ، ولشره فى المأكولات التى تضر بالجسم .

وإما أن يكون بزيادة الترفه والتنوق[1] فى المآكل، والمشارب ، واللباس

وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام .

[إنه لا يحب المسرفين] فإن السرف يبغضه الله ، ويضر بدن الإنسان ومعيشته ، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات .

ففى هذه الآية الكريمة ، الأمر بتناول الأكل والشرب ، والنهى عن تركهما ، وعن الإسراف فيهما .

---

(١) تنوق : لغة فى تأنق . قال فى المختار من الصحاح : شىء أنيق . أى : حسن معجب ، وتأنق فى الأمر ، أي : عمله بنيقة مثل تنوق ، والاسم منه : النيقة وبعضهم لا يقول : تنوق .

وفى المصباح : أنق الشىء من باب « تعب » راع حسنه وأعجب ، وأنقت به : أعجبت ، ويتعدى بالهمزة فيقال : آنقنى وشىء أنيق ، مثل : « عجيب » وزناً ومعنى ، وتأنق فى عمله : أحكمه . ا هـ

والمراد هنا : التفنن وبذل الجهد فى صنع الأطعمة بصفة جذابة رائعة تأخذ بالألباب وتبهر الأنظار .

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ

---

* يقول تعالى - منكراً على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات:ـــ

[قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده] من أنواع اللباس ، على اختـــلاف أصنافه ، والطيبات من الرزق ، من مأكل ، ومشرب ، بجميع أنواعه .

أى : من هذا الذى يقدم على تحريم ما أنعم الله على العباد ، ومن ذا الذي يضيق عليهم ، ما وسعه الله ؟!! .

وهذا التوسيع من الله لعباده ، بالطيبات ، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته ، فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين ، ولهذا قال :

[قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة] أى لا تبعة عليهم فيها .

ومفهوم الآية ، أن من لم يؤمن بالله ، بل استعان بها على معاصيه ، فإنها غير خالصة له ولا مباحة ، بل يعاقب عليها ، وعلى التنعم بها ، ويسأل عن النعيم يوم القيامة .

[كذلك نفصل الآيات] أى : نوضحها ونبينها [لقوم يعلمون] لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات ، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها .

* ثم ذكر المحرمات ، التى حرمها الله فى كل شريعة من الشرائع فقال :

رِبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

[قل إنما حرم ربى الفواحش] أى : الذنوب الكبار ، التى تستفحش وتستقبح ، لشناعتها وقبحها ، وذلك ، كالزنا ، واللواط ، ونحوهما .

وقوله [ما ظهر منها وما بطن] أى : الفواحش التى تتعلق بحركات البدن ، والتى تتعلق بحركات القلوب ، كالكبر ، والعجب والرياء ، والنفاق ، ونحو ذلك .

[والإثم والبغى بغير الحق] أى : الذنوب التى تؤثم ، وتوجب العقوبة فى حقوق الله .

والبغى على الناس ، فى دمائهم ، وأموالهم ، وأعراضهم .

فدخل فى هذا ، الذنوب المتعلقة بحق الله ، والمتعلقة بحق العباد .

[وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً] أى : حجة ، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد .

والشرك ، هو : أن يشرك مع الله فى عبادته ، أحد من الخلق .

وربما دخل فى هذا ، الشرك الأصغر ، كالرياء ، والحلف بغير الله ، ونحو ذلك .

[وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون] فى أسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرعه .

فكل هذه قد حرمها الله ، ونهى العباد عن تعاطيها ، لما فيها من المفاسد الخاصة والعامة ، ولما فيها من الظلم والتجرؤ على الله ، والاستطالة على عباد الله . وتغيير دين الله وشرعه .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ يَٰبَنِي ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

---

* أى : وقد أخرج الله بنى آدم إلى الأرض ، وأسكنهم فيها ، وجعل لهم أجلا مسمى ، لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى ، ولا تتأخر ، لا الأمم المجتمعة ، ولا أفرادها .

* لما أخرج الله بنى آدم من الجنة ، ابتلاهم بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب عليهم ، يقصون عليهم آيات الله ، ويبينون لهم أحكامه .

ثم ذكر فضل من استجاب لهم ، وخسار من لم يستجب لهم فقال :

[فمن اتقى] ما حرم الله ، من الشرك ، والكبائر ، والصغائر .

[وأصلح] أعماله الظاهرة والباطنة [فلا خوف عليهم] من الشر الذى قد يخافه غيرهم [ولا هم يحزنون] على ما مضى .

وإذا انتفى الخوف والحزن ، حصل الأمن التام ، والسعادة ، والفلاح الأبدى .

[والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها] أى : لا آمنت بها قلوبهم ، ولا انقادت لها جوارحهم .

[أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها ، أهينوا بالعذاب الدائم الملازم .

* فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

---

* أي : لا أحد أظلم [ممن افترى على الله كذباً] بنسبة الشريك له ، والنقص له ، والتقول عليه ما لم يقل .

[أو كذب بآياته] الواضحة المبينة للحق المبين ، الهادية إلى الصراط المستقيم .

فهؤلاء ، وإن تمتعوا بالدنيا ، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم فى اللوح المحفوظ — فليس ذلك بمغن عنهم شيئاً ، يتمتعون قليلا ، ثم يعذبون طويلا .

[حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم] أى : الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم ، واستيفاء آجالهم .

[قالوا] لهم فى تلك الحالة — توبيخاً وعتاباً — [أين ما كنتم تدعون من دون الله] من الأصنام والأوثان ، فقد جاء وقت الحاجة ، إن كان فيها منفعة لكم ، أو دفع مضرة .

[قالوا ضلوا عنا] أى : اضمحلوا وبطلوا ، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شىء .

[وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين] مستحقين للعذاب المهين الدائم .

قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ

فقالت لهم الملائكة [ادخلوا فى أمم] أى : فى جملة أمم .

[قد خلت من قبلكم من الجن والإنس] أى : مضوا على ما مضيتم عليه ، من الكفر والاستكبار ، فاستحق الجميع الخزى والبوار ، والخلود [فى النار] .

كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار [لعنت أختها] كما قال تعالى [ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً] .

[حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً] أى : اجتمع فى النار ، جميع أهلها ، من الأولين والآخرين ، والقادة ، والرؤساء ، والمقلدين الأتباع .

[قالت أخراهم] أى متأخروهم ، المتبعون الرؤساء [لأولاهم] أى : لرؤسائهم ، شاكين إلى الله إضلالهم إياهم :

ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفاً من النار] أى : عذبهم عذاباً مضاعفاً لأنهم أضلونا ، وزينوا لنا الأعمال الخبيثة .

[وقالت أولاهم لأخراهم] أى : الرؤسا، قالوا لأتباعهم : [فما كان لكم علينا من فضل] أى : قد اشتركنا جميعاً فى الغى والضلال ، وفى فعل أسباب العذاب ، فأى فضل لكم علينا ؟ .

ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

[قال] الله [لكل] منكم [ضعف] ونصيب من العذاب [فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون] .

ولكنه من المعلوم ، أن عذاب الرؤساء ، وأئمة الضلال ،أبلغ وأشنع ، من عذاب الأتباع .

كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع .

قال تعالى [الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يكسبون] .

فهذه الآيات ونحوها ، دلت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله ، مخلدون فى العذاب ، مشتركون فيه وفى أصله ، وإن كانوا متفاوتين فى مقداره ، بحسب أعمالهم ، وعنادهم ، وظلمهم ، وافترائهم ، وأن مودتهم التى كانت بينهم فى الدنيا ، تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعنة .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ

---

* يخبر تعالى ، عن عقاب من كذب بآياته ، فلم يؤمن بها ، مع أنها آيات بينات ، واستكبر عنها ، فلم ينقد لأحكامها ، بل كذب وتولى — أنهم آيسون من كل خير ، فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم ، إذا ماتوا ، وصعدت تريد العروج إلى الله ، فتستأذن ، فلا يؤذن لها .

كما لم تصعد فى الدنيا إلى الإيمان بالله ، ومعرفته ، ومحبته ، كذلك لا تصعد بعد الموت ، فإن الجزاء من جنس العمل .

ومفهوم الآية ، أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر الله ، المصدقين بآياته ، تفتح لها أبواب السماء ، حتى تعرج إلى الله ، وتصل إلى حيث أراد الله ، فى العالم العلوى ، وتبتهج بالقرب من ربها ، والحظوة برضوانه .

وقوله عن أهل النار [ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل] وهو البعير المعروف [فى سم الخياط] أى : حتى يدخل البعير الذى هو من أكبر الحيوانات جسما ، فى خرق الإبرة ، الذى هو من أضيق الأشياء .

وهذا من باب تعليق الشىء بالمحال .

أى : فكما أنه محال دخول الجمل فى سم الخياط ، فكذلك المكذبون بآيات الله ، محال دخولهم الجنة . قال تعالى [إنه من يشرك بالله فقد حرم عليه الجنة ومأواه النار] .

وقال هنا [وكذلك نجزى المجرمين] أى : الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم .

ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا

---

* [لهم من جهنم مهاد] أى : فراش من تحتهم [ومن فوقهم غواش] أى : ظلل من العذاب ، تغشاهم .

[وكذلك نجزى الظالمين] لأنفسهم ، جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد .

* لما ذكر تعالى عقاب العاصين الظالمين ، ذكر ثواب المطيعين فقال :

[والذين آمنوا] بقلوبهم [وعملوا الصالحات] بجوارحهم ، فجمعوا بين الإيمان والعمل ، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة ، بين فعل الواجبات وترك المحرمات .

ولما كان قوله (وعملوا الصالحات) لفظا عاماً يشمل جميع الصالحات ، الواجبة والمستحبة ، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد ، قال تعالى :

[لا نكلف نفساً إلا وسعها] أى: بمقدار ما تسعه طاقتها ، ولا يعسر على قدرتها ، فعليها فى هذه الحال ، أن تتقى الله ، بحسب استطاعتها .

وإذا عجزت عن بعض الواجبات ، التى يقدر عليها غيرها ، سقطت عنها ، كما قال تعالى :

[لا يكلف الله نفساً إلا وسعها] * لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها *

مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ

ما جعل عليكم فى الدين من حرج * فاتقوا الله ما استطعتم] .

فلا واجب مع العجز ، ولا محرم مع الضرورة .

[أولئك] أى : المتصفون بالإيمان والعمل الصالح] أصحاب الجنة هم فيها خالدون] أى : لا يحولون عنها ، ولا يبغون بها بدلا ، لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات ، وأصناف المشتهيات ، ما تقف عنده الغايات ، ولا يطلب أعلى منه .

[ونزعنا ما فى صدورهم من غل] وهذا من كرمه وإحسانه ،على أهل الجنة ، أن الغل الذى كان موجوداً فى قلوبهم ، والتنافس الذى كان بينهم، أن الله يقلعه ويزيله ، حتى يكونوا إخواناً متحابين ، وأخلاء متصافين .

قال تعالى : [ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين] ويخلق الله لهم من الكرامة ، ما به يحصل لكل واحد منهم ، الغبطة والسرور ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم ، نعيم .

فبهذا يأمنون من التحاسد والتباغض ، لأنه قد فقدت أسبابه .

قوله [تجرى من تحتهم الأنهار] أى يفجرونها تفجيراً ، حيث شاءوا ، وأين أرادوا .

إن شاءوا فى خلال القصور ، أو فى تلك الغرف العاليات ، أو فى رياض الجنات ، من تحت تلك الحدائق الزاهرات .

أنهار تجرى فى غير أخدود ، وخيرات ، ليس لها حد محدود .

جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

[و] لهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به [قالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا] بأن من علينا ، وأوحى إلى قلوبنا ، فآمنت به، وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار ، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا ، حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار .

فنعم الرب الكريم ، الذى ابتدأنا بالنعم ، وأسدى من النعم الظاهرة والباطنة ، مالا يحصيه المحصون ، ولا يعده العادون .

[وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله] أى : ليس فى نفوسنا قابلية للهدى ، لولا أنه تعالى منّ علينا بهدايته واتباع رسله .

[لقد جاءت رسل ربنا بالحق] أى : حين كانوا يتمتعون بالنعيم ، الذى أخبرت به الرسل ، وصار حق يقين لهم ، بعد أن كان علم يقين لهم — قالوا لقد تحققنا ، ورأينا ما وعدتنا به الرسل ، وأن جميع ما جاءوا به حق اليقين ، لا مرية فيه ولا إشكال .

[ونودوا] تهنئة لهم ، وإكراما، وتحية ، واحتراما .

[أن تلكم الجنة أورثتموها] أى كنتم الوارثين لها ،وصارت إقطاعا لكم ، إذ كان إقطاع الكفار النار .

أورثتموها [بما كنتم تعملون] .

قال بعض السلف : أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله ، وأدخلوا الجنة برحمة الله ، واقتسموا المنازل ، وورثوها ، بالأعمال الصالحة ،وهى من رحمته ، بل من أعلى أنواع رحمته .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

* يقول تعالى — بعد ما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدا ما أخبرت به الرسل ، ونطقت به الكتب ، من الثواب والعقاب ، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا :

[أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً] حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح ، الجنة ، فأدخلناها ، ورأينا ما وصفه لنا .

[فهل وجدتم ما وعدكم ربكم] على الكفر والمعاصى [حقاً] .

[قالوا : نعم] قد وجدناه حقا ، فبين للخلق كلهم ، بياناً لاشك فيه ، صدق وعد الله ، ومن أصدق من الله قيلا ، وذهبت عنهم الشكوك والشبه ، وصار الأمر حق اليقين .

وفرح المؤمنون بوعد الله ، واغتبطوا ، وأيس الكفار من الخير ، وأقروا على أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب .

[فأذن مؤذن بينهم] أى : بين أهل النار وأهل الجنة ، بأن قال [أن لعنة الله] أى : بعده وإقصاؤه ، عن كل خير [على الظالمين] إذ فتح الله لهم أبواب رحمته ، فصدفوا أنفسهم عنها ، ظلماً ، وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم ، وصدوا غيرهم ، فضلوا وأضلوا .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة ، ويعتدل سير السالكين إليه .

[و] هؤلاء [يبغونها عوجاً] أى : منحرفة صادة عن سواء السبيل . [وهم بالآخرة كافرون] .

وهذا الذى أوجب لهم الانحراف عن الصراط ، والإقبال على شهوات النفوس المحرمة ، عدم إيمانهم بالبعث ، وعدم خوفهم من العقاب ، ورجائهم للثواب .

ومفهوم هذا ، أن رحمة الله على المؤمنين ، وبره شامل لهم ، وإحسانه ، متواتر عليهم .

* أى : وبين أصحاب الجنة ، وأصحاب النار، حجاب يقال له « الأعراف » لا من الجنة ، ولا من النار ، يشرف على الدارين ، وينظر من عليه ، حال الفريقين .

وعلى هذا الحجاب ، رجال يعرفون كلا من أهل الجنة والنار ، بسيماهم ، أى : علاماتهم ، التى بها يعرفون ويميزون .

فإذا نظروا إلى أهل الجنة ، نادوهم [أن سلام عليكم] أى: يحيونهم ، ويسلمون عليهم .

وهم — إلى الآن — لم يدخلوا الجنة ، ولكنهم يطمعون فى دخولها ولم يجعل الله الطمع فى قلوبهم ، إلا لما يريد بهم من كرامته .

[وإذا صرفت أبصارهم ، تلقاء أصحاب النار] ورأوا منظراً شنيعاً ، وهولا فظيعاً [قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين] .

يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ

فأهل الجنة — إذا رآهم أهل الأعراف — يطمعون أن يكونوا معهم فى الجنة ، ويحيونهم ، ويسلمون عليهم .

وعند انصراف أبصارهم ، بغير اختيارهم ، لأهل النار ، يستجيرون من حالهم هذا ، على وجه العموم .

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال :

[ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم] وهم من أهل النار ، وقد كانوا فى الدنيا لهم أبهة وشرف ، وأموال ، وأولاد .

فقال لهم أصحاب الأعراف — حين رأوهم منفردين فى العذاب ، بلا ناصر ولا مغيث :

[ما أغنى عنكم جمعكم] فى الدنيا ، الذى كنتم تستدفعون به المكاره ، وتتوسلون به إلى مطالبكم فى الدنيا ، فاليوم اضمحل ، ولم يغن عنكم شيئا .

وكذلك ، أى شىء نفعكم استكباركم على الحق ، وعلى ماجاء به ، وعلى من اتبعه .

ثم أشاروا لهم ، إلى أناس من أهل الجنة ، كانوا فى الدنيا فقراء ضعفاء يستهزىء بهم أهل النار ، فقالوا لأهل النار :

تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

[أهؤلاء] الذين أدخلهم الله الجنة [الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة] احتقاراً لهم ، وازدراء ، وإعجابا بأنفسكم ، قد حنثتم فى أيمانكم ، وبدا لكم من الله ، مالم يكن لكم فى حساب .

[ادخلوا الجنة] بما كنتم تعملون ، أى : قيل لهؤلاء الضعفاء ، إكراما واحتراما : ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة .

[لاخوف عليكم] فيما يستقبل من المكاره [ولا أنتم تحزنون] على ما مضى ، بل آمنون مطمئنون ، فرحون بكل خير .

وهذا كقوله تعالى [إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون] إلى أن قال [فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون] .

واختلف أهل العلم والمفسرون ، من هم أصحاب الأعراف ، وما أعمالهم ؟ .

والصحيح من ذلك ، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلا رجحت سيئاتهم ، فدخلوا النار ، ولا رجحت حسناتهم ، فدخلوا الجنة فصاروا فى الأعراف ما شاء الله .

ثم إن الله تعالى يدخلهم — برحمته — الجنة ، فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه ، ورحمته وسعت كل شىء .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا

---

* أي : ينادى أصحاب النار أصحاب الجنة ، حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ ، وحين يمسهم الجوع المفرط ، والظمأ الموجع ، يستغيثون بهم ، فيقولون :

[أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله] من الطعام .

فأجابهم أهل الجنة بقولهم : [إن الله حرمهما] أى: ماء الجنة وطعامها [على الكافرين] .

وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله ، واتخاذهم دينهم الذى أمروا أن يستقيموا عليه ، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه .

[لهواً ولعباً] أى : لهت قلوبهم ، وأعرضت عنه ، ولعبوا ، واتخذوه سخريا .

أو أنهم جعلوا بدل دينهم ، اللهو واللعب ، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم .

[وغرتهم الحياة الدنيا] بزينتها وزخرفها ، وكثرة دعاتها ، فاطمأنوا إليها ، ورضوا بها ، وفرحوا ، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها .

[فاليوم ننساهم] أى : نتركهم فى العذاب [كما نسوا لقاء يومهم هذا] فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا ، وليس أمامهم عرض ولاجزاء .

يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا

[وما كانوا بآياتنا يجحدون] والحال أن جحودهم هذا ، لاعن قصور فى آيات الله وبيناته ، بل قد [جئناهم بكتاب فصلناه] أى بينا فيه جميع المطالب ، التى يحتاج إليها الخلق [على علم] من الله بأحوال العباد فى كل زمان ومكان ، وما يصلح لهم وما لا يصلح .

ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور ، فيجهل بعض الأحوال ، فيحكم حكما غير مناسب .

بل تفصيل من أحاط علمه بكل شىء ، ووسعت رحمته كل شىء .

[هدى ورحمة لقوم يؤمنون] أى : تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب ، الهداية من الضلال ، وبيان الحق والباطل ، والغىّ والرشد .

ويحصل أيضاً لهم به الرحمة ، وهى : الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة فينتفى عنهم بذلك ، الضلال والشقاء .

وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب ، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم ، ولا انقادوا لأوامره ونواهيه ، فلم يبق فيهم حيلة ، إلا استحقاقهم أن يحل بهم ، ما أخبر به القرآن .

ولهذا قال : [هل ينظرون إلا تأويله] أى : وقوع ما أخبر به ، كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه : [هذا تأويل رؤياى من قبل] .

[يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل] متندمين متأسفين على

بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

ما مضى ، متشفعين فى مغفرة ذنوبهم . مقرين بما أخبرت به الرسل :

[قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد] إلى الدنيا (فنعمل غير الذى كنا نعمل) وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا .

(فما تنفعهم شفاعة الشافعين) .

وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا ، ليعملوا غير عملهم ، كذب منهم ، مقصودهم به ، دفع ما حل بهم ، قال تعالى : [ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون] .

[قد خسروا أنفسهم] حين فوتوها الأرباح ، وسلكوا بها سبيل الهلاك .

وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث ، أو الأولاد ، إنما هذا خسران ، لا جبران لمصابه .

[وضل عنهم ما كانوا يفترون] فى الدنيا ، مما تمنيهم أنفسهم به ، ويعدهم به الشيطان .

قدموا على ما لم يكن لهم فى حساب ، وتبين لهم باطلهم وضلالهم ، وصدق ما جاءتهم به الرسل .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ

---

* يقول تعالى ، مبيناً أنه الرب المعبود وحده لا شريك له [إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض] وما فيهما ، على عظمهما وسعتهما ، وإحكامهما ، وإتقانهما ، وبديع خلقهما .

[فى ستة أيام] أولها : يوم الأحد ، وآخرها ، يوم الجمعة .

فلما قضاها ، وأودع فيهما من أمره ما أودع [استوى] تبارك وتعالى [على العرش] العظيم ، الذى يسع السموات والأرض ، وما فيهما ، وما بينهما .

استوى ، استواء يليق بجلاله ، وعظمته ، وسلطانه .

فاستوى على العرش ، واحتوى على الممالك ، وأجرى عليهم أحكامه الكونية ، وأحكامه الدينية ، ولهذا قال :

[يغشى الليل] المظلم [النهار] المضىء ، فيظلم ما على وجه الأرض ، ويسكن الآدميون ، وتأوى المخلوقات إلى مساكنها ، ويستريحون من التعب ، والذهاب والإياب ، الذى حصل لهم فى النهار .

[يطلبه حثيثا] كلما جاء الليل ، ذهب النهار ؛ وكلما جاء النهار ، ذهب الليل ، وهكذا أبدا ، على الدوام ، حتى يطوى الله هذا العالم ، وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار .

[والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره] أى بتسخيره وتدبيره ، الدال على ماله من أوصاف الكمال .

وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

بخلقها وعظمها ، دال على كمال قدرته .

وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان ، دال على كمال حكمته .

وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية ومادونها ، دال على سعة رحمته وعلمه ، وأنه الإله الحق ، الذى لاتنبغى العبادة إلا له .

[ألا له الخلق والأمر] أى : له الخلق الذى صدرت عنه جميع المخلوقات علويها ، وسفليها ، أعيانها ، وأوصافها ، وأفعالها ، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات .

فالخلق : يتضمن أحكامه الكونية القدرية .

والأمر : يتضمن أحكامه الدينية الشرعية .

وثم أحكام الجزاء ، وذلك يكون فى دار البقاء .

[تبارك الله] أى : عظم وتعالى ، وكثر خيره وإحسانه .

فتبارك فى نفسه ، لعظمة أوصافه وكمالها .

وبارك فى غيره بإحلال الخير الجزيل ، والبر الكثير .

فكل بركة فى الكون ، فمن آثار رحمته ، ولهذا قال : [تبارك الله رب العالمين] .

ولما ذكر من عظمته وجلاله ، ما يدل ذوى الألباب على أنه وحده ، المعبود المقصود فى الحوائج كلها ، أمر بما يترتب على ذلك فقال : ادعوا ربكم تضرعا) إلى (من المحسنين) .

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

---

* الدعاء : يدخل فيه ، دعاء المسألة ، ودعاء العبادة .

فأمر بدعائه [تضرعاً] أى : إلحاحا فى المسألة ، ودءوباً فى العبادة .

[وخفية] أى : لاجهر أو علانية ، يخاف منه الرياء ، بل خفية ، وإخلاصاً لله تعالى .

[إنه لايحب المعتدين] أى : المتجاوزين للحد فى كل الأمور .

ومن الاعتداء : كون العبد يسأل الله مسائل ، لاتصلح له ، أو ينقطع فى السؤال ، أو يبالغ فى رفع صوته بالدعاء ، فكل هذا داخل فى الاعتداء المنهى عنه .

[ولا تفسدوا فى الأرض] بعمل المعاصى [بعد إصلاحها] بالطاعات ، فإن المعاصى ، تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق ، كما قال تعالى : (ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس) كما أن الطاعات ، تصلح بها ، الأخلاق ، والأعمال ، والأرزاق ، وأموال الدنيا والآخرة .

[وادعوه خوفا وطمعاً] أى : خوفا من عقابه ، وطمعاً فى ثوابه .

طمعاً فى قبولها ، وخوفا من ردها ، لا دعاء عبد مدل على ربه ، قد أعجبته نفسه ، ونزل نفسه فوق منزلته ، أو دعاء من هو غافل لاه .

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء : الإخلاص فيه لله وحده ، لأن ذلك يتضمنه الخفية .

۞ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا

وإخفاؤه وإسراره ، أن يكون القلب خائفاً طامعاً ، لا غافلا ، ولا آمنا ولا غير مبال بالإجابة ، وهذا من إحسان الدعاء فإن الإحسان فى كل عبادة ، بذل الجهد فيها ، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، ولهذا قال :

[إن رحمة الله قريب من المحسنين] فى عبادة الله ، المحسنين إلى عباد الله .

فكلما كان العبد أكثر إحسانا ، كان أقرب إلى رحمة ربه ، وكان ربه قريبا منه برحمته .

وفى هذا من الحث على الإحسان ، ما لا يخفى .

* بين تعالى ، أثراً من آثار قدرته ، ونفحة من نفحات رحمته فقال :

[وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته] أى : الرياح المبشرات بالغيث ، التى تثيره بإذن الله ، من الأرض ، فيستبشر الخلق برحمة الله ، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله .

[حتى إذا أقلت] الرياح [سحابا ثقالا] قد أثاره بعضها ، وألفته ريح أخرى ، وألقحته ريح أخرى [سقناه لبلد ميت] قد كادت تهلك حيواناته ، وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله .

[فأنزلنا به] أى : بذلك البلد الميت [الماء] الغزير من ذلك السحاب وسخر الله له ريحاً تدره ، وريحاً تفرقه بإذن الله .

بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

[فأخرجنا به من كل الثمرات] فأصبحوا مستبشرين برحمة الله ، راتعين بخير الله .

وقوله [كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون] أى : كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات ، كذلك نخرج الموتى من قبورهم ، بعد ما كانوا رفاتا متمزقين .

وهذا استدلال واضح ، فإنه لا فرق بين الامرين .

فمنكر البعث ، استبعاداً له — مع أنه يرى ما هو نظيره — من باب العناد ، وإنكار المحسوسات .

وفى هذا ، الحث على التذكر والتفكر فى آلاء الله ، والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال ، لا بعين الغفلة والإهمال .

ثم ذكر تفاوت الأراضى ، التى ينزل عليها المطر فقال :

[والبلد الطيب] أى : طيب التربة والمادة ، إذا نزل عليه مطر [يخرج نباته] الذى هو مستعد له [بإذن ربه] أى : بإرادة الله ومشيئته ، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء ، حتى يأذن الله بذلك .

[والذى خبث] من الأراضى [لا يخرج إلا نكداً] أى : إلا نباتا خاسًا لا نفع فيه ولا بركة .

[كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون] أى : ننوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمه ، والإقرار بها ، وصرفها فى مرضاة الله .

. . . .

فهم الذين ينتفعون بما فصل الله فى كتابه ، من الأحكام ، والمطالب الإلهية لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربهم .

فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها ، فيتدبرونها ، ويتأملونها ، فيبين لهم من معانيها ، بحسب استعدادهم .

وهذا مثال للقلوب ، حين ينزل عليها الوحى الذى هو مادة الحياة ، كما أن الغيث ، مادة الحيا[1] .

فإن القلوب الطيبة ، حين يجيئها الوحى ، تقبله وتعلمه ، وتنبت بحسب ، طيب أصلها ، وحسن عنصرها .

وأما القلوب الخبيثة ، التى لا خير فيها ، فإذا جاءها الوحى ، لم يجد محلا قابلا ، بل يجدها غافلة معرضة ، أو معارضة ، فيكون كالمطر الذى يمر على السباخ والرمال والصخور ، فلا يؤثر فيها شيئا ، وهذا كقوله تعالى [أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا] الآيات .

---

(١) الحيا . أى : المطر .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ

---

* لما ذكر تعالى ، من أدلة توحيده ، جملة صالحة ، أيد ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيده ، مع أممهم المنكرين لذلك .

وكيف أيد الله أهل التوحيد ، وأهلك من عاندهم ولم ينقد لهم .

وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد ، ومعتقد واحد .

فقال عن نوح — أول المرسلين — : [لقد أرسلنا نوحا إلى قومه] يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، حين كانوا يعبدون الأوثان .

[فقال] لهم : [يا قوم اعبدوا الله] أى : وحده [مالكم من إله غيره] لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور ، وما سواه مخلوق مدبر ، ليس له من الأمر شيء .

ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله فقال : [إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم] .

وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام ، وشفقته عليهم ، حيث خاف عليهم العذاب الأبدى ، والشقاء السرمدى ، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم .

فلما قال لهم هذه المقالة ، ردوا عليه أقبح رد .

[قال الملأ من قومه] أى : الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق ، وعدم انقيادهم للرسل .

لَيْسَ بِي ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ

[إنا لنراك فى ضلال مبين] فلم يكفهم — قبحهم الله — أنهم لم ينقادوا له ، بل استكبروا عن الانقياد له ، وقدحوا فيه أعظم قدح ، ونسبوه إلى الضلال .

ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ، ضلالا مبيناً ، واضحاً لكل أحد .

وهذا من أعظم أنواع المكابرة ، التى لا تروج على أضعف الناس عقلا .

وإنما هذا الوصف ، منطبق على قوم نوح ، الذين جاءوا إلى أصنام ، قد صوروها ونحتوها بأيديهم ، من الجمادات التى لا تسمع ولا تبصر ، ولا تغنى عنهم شيئاً .

فنزلوها منزلة فاطر السموات ، وصرفوا لها ما أمكنهم ، من أنواع القربات .

فلولا أن لهم أذهاناً تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم ، بل هم أهدى منهم وأعقل .

فرد نوح عليهم ردا لطيفاً ، وترقق لهم ، لعلهم ينقادون له فقال :

[يا قوم ليس بى ضلالة] أى : لست ضالا فى مسألة من المسائل ، بوجه من الوجوه ، وإنما أنا هاد مهتد .

وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ

بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه ، أولى العزم من المرسلين ، أعلى أنواع الهدايات وأكملها ، وأتمها وهى هداية الرسالة التامة الكاملة ، ولهذا قال :

[ولكنى رسول من رب العالمين] أى : ربى وربكم ورب جميع الخلق ، بأنواع التربية ، الذى من أعظم تربيته ، أن أرسل إلى عباده رسلا ، تأمرهم بالأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، والعقائد الحسنة وتنهاهم عن أضدادها ولهذا قال :

[أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم] أى : وظيفتى تبليغكم ، ببيان توحيده ، وأوامره ، ونواهيه ، على وجه النصيحة لكم ، والشفقة عليكم .

[وأعلم من الله ما لا تعلمون] فالذى يتعين أن تطيعونى وتنقادوا لأمرى إن كنتم تعلمون .

[أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم] أى : كيف تعجبون من حالة لا ينبغى العجب منها ، وهو : أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة ، على يد رجل منكم ، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله ؟ !!

فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذى يتلقى بالقبول والشكر.

وقوله : [لينذركم ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون] أى لينذركم العذاب الأليم ، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ، ظاهراً وباطناً ، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة .

فلم يفد فيهم ، ولا نجح [فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك] أى : السفينة التى أمر الله نوحا عليه السلام بصنعها ، وأوحى إليه أن يحمل

مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ

من كل صنف من الحيوانات ، زوجين اثنين وأهله ، ومن آمن معه ، فحملهم فيها ونجاهم الله بها .

[وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين] عن الهدى ؛ أبصروا الحق ، وأراهم الله — على يد نوح — من الآيات البينات ، ما به يؤمن أولوا الألباب ، فسخروا منه ، واستهتروا به ، وكفروا .

* أى : [و] أرسلنا [إلى عاد] الأولى ، الذين كانوا فى أرض اليمن .

[أخاهم] فى النسب [هودا] عليه السلام ، يدعوهم إلى التوحيد ، وينهاهم عن الشرك والطغيان فى الأرض .

[قال] لهم : [يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون] سخطه وعذابه ، إن أقمتم على ما أنتم عليه ، فلم يستجيبوا ولا انقادوا .

[قال الملأ الذين كفروا من قومه] رادين لدعوته ، قادحين فى رأيه .

[إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين] أى : ما نراك إلا سفيها غير رشيد .

ويغلب على ظننا ، أنك من جملة الكاذبين .

لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ

وقد انقلبت عليهم الحقيقة ، واستحكم عماهم ، حيث ذموا نبيهم ، عليه السلام ، بما هم متصفون به ، وهو أبعد الناس عنه ، فإنهم السفهاء حقاً ، الكاذبون .

وأى : سفه أعظم ممن قابل أحق الحق ، بالرد والإنكار ، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء ، وانقاد قلبه وقالبه ، لكل شيطان مريد ، ووضع العبادة فى غير موضعها ، فعبد من لا يغنى عنه شيئاً من الأشجار ، والأحجار ؟ !!

وأى : كذب ، أبلغ من كذب ، من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى ؟ ! !

[قال يا قوم ليس بى سفاهة] بوجه من الوجوه ، بل هو الرسول ، المرشد الرشيد .

[ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين] .

فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والانقياد ، وطاعة رب العباد .

[أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم] أى كيف تعجبون من أمر ، لا يتعجب منه ، وهو أن الله أرسل إليكم ، رجلا منكم تعرفون أمره ، يذكركم بما فيه مصالحكم ، ويحثكم على ما فيه النفع لكم ، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين .

خُلَفَآءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُ

[واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح] أى : واحمدوا ربكم واشكروه ، إذ مكن لكم فى الأرض ، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة ، الذين كذبوا الرسل ، فأهلكهم الله وأبقاكم ، لينظر كيف تعملون .

واحذروا أن تقيموا على التكذيب ، كما أقاموا ، فيصيبكم ما أصابهم .

[و] اذكروا نعمة الله عليكم ، التى خصكم بها ، وهى أن [زادكم فى الخلق بسطة] فى القوة ، وكبر الأجسام ، وشدة البطش .

[فاذكروا آلاء الله] أى : نعمه الواسعة ، وأياديه المتكررة .

[لعلكم] إذا ذكرتموها بشكرها ، وأداء حقها [تفلحون] أى : تفوزون بالمطلوب ، وتنجون من المرهوب .

فوعظهم ، وذكرهم ، وأمرهم بالتوحيد ، وذكر لهم وصف نفسه ، وأنه ناصح أمين .

وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم ، وذكرهم ، نعم الله عليهم وإدرار الأرزاق إليهم ، فلم ينقادوا ، ولا استجابوا .

[قالوا] متعجبين من دعوته ، ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه .

[أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا] .

وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ

قبحهم الله، جعلوا الأمر الذى هو أوجب الواجبات، وأكمل الأمور من الأمور التى يعارضون بها ، ما وجدوا عليه آباءهم

فقدموا ما عليه الآباء الضالون، من الشرك، وعبادة الأصنام ، على مادعت إليه الرسل، من توحيد الله وحده لا شريك له، وكذبوا نبيهم ، وقالوا : [ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين] وهذا الاستفتاح منهم على أنفسهم .

(قال) لهم هود عليه السلام : [قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب] أى : لابد من وقوعه ، فإنه قد انعقدت أسبابه ، وحان وقت الهلاك .

[أتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم] أى : كيف تجادلون على أمور، لا حقائق لها ، وعلى أصنام سميتوها آلهة ، وهى لاشىء من الإلهية فيها ، ولا مثقال ذرة و [ما أنزل الله بها من سلطان] فإنها لو كانت صحيحة ، لأنزل الله بها سلطانا .

فعدم إنزاله له ، دليل على بطلانها ، فإنه ما من مطلوب ومقصود وخصوصاً الأمور الكبار — إلا وقد بين الله فيها من الحجج ، ما يدل عليها ، ومن السلطان ، ما لاتخفى معه .

[فانتظروا] ما يقع بكم من العقاب ، الذى وعدتكم به [إنى معكم من المنتظرين] وفرق بين الانتظارين ، انتظار من يخشى وقوع العقاب ، ومن يرجو من الله النصر والثواب ، ولهذا فتح الله بين الفريقين فقال :

أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٖ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٖ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

[فأنجيناه] أى : هودا [والذين] آمنوا [معه برحمة منا] فإنه الذى هداهم للإيمان ، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته .

[وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا] أى : استأصلناهم بالعذاب الشديد الذى لم يبق منهم أحداً ، وسلط الله عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه ، إلا جعلته كالرميم .

فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت عليهم الحجج ، فلم ينقادوا لها ، وأمروا بالإيمان ، فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك ، والخزى ، والفضيحة .

[وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بُعْداً لعاد قوم هود] .

وقال هنا [وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين] بوجه من الوجوه ، بل وصفهم التكذيب والعناد ، ونعتهم ، الكبر والفساد .

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ

---

* أى (و) أرسلنا (إلى ثمود) القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله ، من أرض الحجاز ، وجزيرة العرب .

أرسل الله إليهم [أخاهم صالحاً] نبيا يدعوهم ، إلى الإيمان والتوحيد وينهاهم عن الشرك والتنديد .

[قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره] دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين — الأمر[1] بعبادة الله ، وبيان أنه ليس للعباد ، إله غير الله .

[قد جاءتكم بينة من ربكم] أى خارق من خوارق العادات ، التى لا تكون إلا آية سماوية ، لايقدر الناس عليها .

ثم فسرها بقوله [هذه ناقة الله لكم آية] أى : هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى ، إضافة تشريف ، لكم فيها آية عظيمة .

وقد ذكر وجه الآية فى قوله [لها شرب ولكم شرب يوم معلوم] .

وكان عندهم بئر كبيرة ، وهى المعروفة ببئر الناقة ، يتناوبونها ، هم والناقة .

للناقة يوم تشربها ، ويشربون اللبن من ضرعها ، ولهم يوم ، يردونها ، وتصدر الناقة عنهم .

---

(١) قوله (الأمر) خبر للمبتدأ الذى هو (دعوته) .

لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ

وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام [فذروها تأكل فى أرض الله] فلا عليكم من مئونتها شيء .

[ولا تمسوها بسوء] أى : بعقر أو غيره ، [فيأخذكم عذاب أليم] .

واذكروا إذ جعلكم خلفاء] فى الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم [من بعد عاد] الذين أهلكهم الله ، وجعلكم خلفاء من بعدهم .

[وبوأكم فى الأرض] أى : مكن لكم فيها ، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون .

[تتخذون من سهولها قصورا] أى : من الأراضى السهلة ، التى ليست بجبال .

[وتنحتون الجبال بيوتاً] كما هو مشاهد إلى الآن ، من آثارهم التى فى الجبال ، من المساكن والحجر ونحوها ، وهى باقية ،ما بقيت الجبال .

[فاذكروا آلاء الله] أى : نعمه ، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة .

[ولا تعثوا فى الأرض مفسدين] أى : لا تخربوا فى الأرض ، بالفساد

مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا

والمعاصى ، فإن المعاصى ، تدع الديار العامرة ، بلاقع[1] وقد أخلت ديارهم منهم ، وأبقيت مساكنهم ، موحشة بعدهم .

[قال الملأ الذين استكبروا من قومه] أى : الرؤساء والأشراف ، الذين تكبروا عن الحق .

[للذين استضعفوا] ولما كان المستضعفون ، ليسوا كلهم مؤمنين ، قالوا : [لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه] .

أى : أهو صادق أم كاذب ؟ .

فقال المستضعفون : [إنا بما أرسل به مؤمنون] من توحيد الله ، والخبر عنه ، وأمره ونهيه .

[قال الذين استكبروا : إنا بالذى آمنتم به كافرون] حملهم الكبر على أن لا ينقادوا للحق ، الذى انقاد له الضعفاء .

---

(١) بلاقع . أى : لاشىء فيها من نبات ولا إنسان . ولامن الحيوانات التى ينتفع من ألبانها وأوبارها وأصوافها وركوبها .

وفى الحديث (اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع) أى : خراباً مقفرة من كل ما ينتفع به .

بِالَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن

[فعقروا الناقة] التى توعدهم إن مسوها بسوء ، أن يصيبهم عذاب أليم.

[وعتوا عن أمر ربهم] أى : قسوا عنه ، واستكبروا عن أمره الذى من عتا عنه ، أذاقه العذاب الشديد.

لا جرم ، أحل الله بهم من النكال ، ما لم يحل بغيرهم.

[وقالوا] مع هذه الأفعال ، متجرئين ، على الله ، معجزين له ، غير مبالين بما فعلوا ، بل مفتخرين بها :

[ياصالح ائتنا بما تعدنا] من العذاب [إن كنت من المرسلين] .

فقال : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب.

[فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين] على ركبهم ، قد أبادهم الله ، وقطع دابرهم.

[فتولى عنهم] صالح عليه السلام ، حين أحل الله بهم العذاب.

[وقال] مخاطباً لهم ، توبيخاً وعتاباً ، بعد ما أهلكهم الله :

[ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم] أى : جميع ما أرسلنى الله به إليكم ، قد أبلغتكم به ، وحرصت على هدايتكم ، واجتهدت فى سلوككم الصراط المستقيم ، والدين القويم.

لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

[ولـكن لا تحبون الناصحين] بل رددتم قول النصحاء ، وأطعتم كل شيطان رجيم .

واعلم أن كثيراً من المفسرين يذكرون فى هذه القصة ، أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء ، اقترحوها على صالح ، وأنها تمخضت تمخض الحامل ، فخرجت الناقة ، وهم ينظرون ، وأن لها فصيلا حين عقروها ، رغى ثلاث رغيات ، وانفلق له الجبل ، ودخل فيه .

وأن صالحاً عليه السلام قال لهم : آية نزول العذاب بـكم، أن تصبحوا فى اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهـكم مصفرة ، واليوم الثانى :محمرة، والثالث : مسودة . فـكان كما قال .

هذا من الإسرائيليات التى لا ينبغى نقلها فى تفسير كتاب الله ، وليس فى القرآن ما يدل على شىء منها ، بوجه من الوجوه .

بل لو كانت صحيحة ، لذكرها الله تعالى ، لأن فيها من العجائب والعبر والآيات، ما لا يهمله تعالى ، ويدع ذكره ، حتى يأتى من طريق من لا يوثق بنقله .

بل القرآن يـكذب بعض هذه المذكورات ، فإن صالحاً قال لهم [تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام] أى : تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جداً ، فإنه ليس لـكم من المتاع واللذة ، سوى هذا .

وأى لذة وتمتع ، لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب ، وذكر لهم وقوع مقدماته ، فوقعت يوما فيوما ، على وجه يعمهم ويشملهم لأن احمرار وجوههم واصفرارها واسودادها من العذاب .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً

هل هذا إلا مناقض للقرآن ، ومضاد له ؟! ! .

فالقرآن ، فيه الكفاية والهداية ، عن ما سواه .

نعم لو صح شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما لا يناقض كتاب الله ، فعلى الرأس والعين ، وهو مما أمر القرآن باتباعه .

[وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا] .

وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية ،ولو على تجويز الرواية عنهم ، بالأمور التي لا يجزم بكذبها ، فإن معانى كتاب الله، يقينية ، وتلك أمور ، لا تصدق ولا تكذب ، فلا يمكن اتفاقهما .

* أي : [و] اذكر عبدنا [لوطاً] عليه الصلاة والسلام ، إذ أرسلناه إلى قومه ، يأمرهم بعبادة الله وحده ، وينهاهم عن الفاحشة ، التي ما سبقهم بها أحد من العالمين .

[قال أتأتون الفاحشة] أي : الخصلة التي بلغت — في العظم والشناعة — إلى أن استغرقت أنواع الفحش .

[ما سبقكم بها من أحد من العالمين] فكونها فاحشة من أشنع الأشياء ، وكونهم ابتدعوها ، وابتكروها ، وسنوها لمن بعدهم ، من أشنع ما يكون أيضاً .

ثم بينها بقوله : [إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء] أي : كيف تذرون النساء ، التي خلقهن الله لكم ، وفيهن المستمتع الموافق

مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

للشهوة والفطرة ، وتقبلون على أدبار الرجال، التى هى غاية ما يكون فى الشناعة والخبث ، وهى تخرج منه الأنتان والأخباث ، التى يستحيي من ذكرها فضلا عن ملامستها وقربها .

[بل أنتم قوم مسرفون] أى : متجاوزون لما حده الله متجرئون على محارمه .

[وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون] أى : يتنزهون عن فعل الفاحشة .

[وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد] .

[فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين] أى : الباقين المعذبين .

أمره الله أن يسرى بأهله ليلا ، فإن العذاب مصبح قومه .

فسرى بهم ، إلا امرأته أصابها ما أصابهم .

[وأمطرنا عليهم مطراً] أى : حجارة حارة شديدة ، من سجيل ، وجعل الله عاليها سافلها .

[فانظر كيف كان عاقبة المجرمين] الهلاك والخزى الدائم .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ

---

* أى : [و] أرسلنا [إلى مدين] القبيلة المعروفة [أخاهم] فى النسب [شعيباً] يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان : وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم ، وأن لا يعثوا فى الأرض مفسدين ، بالإكثار من عمل المعاصى .

ولهذا قال [ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين] .

فإن ترك المعاصى ، امتثالا لأمر الله ، وتقرباً إليه ـ خير ، وأنفع للعبد ، من ارتكابها الموجب لسخط الجبار ، وعذاب النار .

[ولا تقعدوا] للناس [بكل صراط] أى : طريق من الطرق ، التى يكثر سلوكها ، تحذرون الناس منها [وتوعدون][1] من سلوكها [وتصدون عن سبيل الله] من أراد الاهتداء به [وتبغونها عوجا] أى : تبغون سبيل الله تكون معوجة ، وتميلونها ، اتباعا لأهوائكم .

---

(١) توعدون أى : تهددون من سلك سبيل الله بأنواع الأذى والعذاب .

ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ

وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم ، الاحترام والتعظيم ، للسبيل التى نصبها الله لعباده ، ليسلكوها إلى مرضاته ، ودار كرامته ، ورحمهم بهما أعظم رحمة ، وتصدون لنصرتها ، والدعوة إليها ، والذب عنها .

لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها ، الصادين الناس عنها ، فإن هذا كفر لنعمة الله ، ومحادة لله ، وجعل أقوم الطرق وأعدلها ، مائلة ، وتشنعون على من سلكها .

[واذكروا] نعمة الله عليكم [إذ كنتم قليلا فكثركم] أى : نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات ، والنسل ، والصحة .

وأنه ما ابتلاكم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم ، ولاسلط عليكم عدوا يجتاحكم[1] ولا فرقكم فى الأرض .

بل أنعم عليكم ، باجتماعكم . وإدرار الأرزاق ، وكثرة النسل .

[وانظر كيف كان عاقبة المفسدين] فإنكم لا تجدون فى جموعهم إلا الشتات ، ولا فى ربوعهم ، إلا الوحشة والانبتات[2] .

---

(١) يجتاحكم ، أى : يهلككم بأنواع الشدائد .

(٢) الانبتات ، أى : الانقطاع والمراد ، خلو مساكنهم من الناس بالهلاك الذى أنزله الله بهم .

يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾

ولم يورثوا ذكراً حسناً ، بل أتبعوا فى هذه الدنيا ، لعنة، ويوم القيامة خزياً وفضيحة .

[وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا] وهم الجمهور منهم .

[فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكين] فينصر الحق ، ويوقع العقوبة على المبطل .

[قال الملأ الذين استكبروا من قومه] وهم الأشراف ، والكبراء منهم ، الذين اتبعوا أهواءهم ، ولهوا بلذاتهم .

فلما أتاهم الحق ، ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة ، ردوه ، واستكبروا عنه .

فقالوا لنبيهم شعيب ، ومن معه من المؤمنين المستضعفين : [لنخرجنك يا شيعب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا] .

استعملوا قوتهم السبعية ، فى مقابلة الحق ، ولم يراعوا دينا ، ولاذمة ، ولا حقاً .

وإنما راعوا ، واتبعوا أهواءهم ، وعقولهم السفيهة ، التى دلتهم على هذا القول الفاسد .

فقالوا : إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا .

قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّنَا ٱللَّهُ مِنْهَا
وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ

ف « شعيب » عليه الصلاة والسلام ، كان يدعوهم ، طامعاً فى إيمانهم ، والآن لم يسلم ، حتى توعدوه إن لم يتابعهم — بالجلاء عن وطنه ، الذى هو ومن معه أحق به منهم .

[قال] لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم :

[أو لو كنا كارهين] أى : أنتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة ، ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطلانها ، فإنما يدعى إليها ، من له نوع رغبة فيها .

أما من يعلن بالنهى عنها ، والتشنيع على من اتبعها فكيف يدعى إليها ؟ ! !

[قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها] أى : اشهدوا علينا ، أننا إن عدنا إليها بعد ما نجانا الله منها ، وأنقذنا من شرها ، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب .

فإننا نعلم ، أنه لا أعظم افتراء ، ممن جعل لله شريكا ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، ولا شريكا فى الملك .

[وما يكون لنا أن نعود فيها] أى : يمتنع على مثلنا أن نعود فيها فإن هذا من المحال .

فآيسهم عليه الصلاة والسلام ، من كونه يوافقهم ، من وجوه متعددة .

رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن

من جهة أنهم كارهون لها ، مبغضون لما هم عليه من الشرك .

ومن جهة أنه جعل ماهم عليه كذبا ، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه ، فإنهم كاذبون .

ومنها : اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها .

ومنها : أن عودتهم فيها ـ بعد ما هداهم الله ـ من المحالات ، بالنظر إلى حالتهم الراهنة ، وما فى قلوبهم من تعظيم الله تعالى ، والاعتراف له بالعبودية ، وأنه الإله وحده ، الذى لاتنبغى العبادة إلا له وحده ، لاشريك له ، وأن آلهة المشركين ، أبطل الباطل ، وأمحل المحال .

وحيث أن الله منّ عليهم ، بعقول يعرفون بها الحق والباطل ، والهدى والضلال .

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله ، وإرادته النافذة فى خلقه ، التى لا خروج لأحد عنها ، ولو تواترت الأسباب ، وتوافقت القوى ، فإنهم لايحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه .

ولهذا استثنى [وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا] أى : فلا يمكننا ولا غيرنا ، الخروج عن مشيئته ، التابعة لعلمه وحكمته .

وقد [وسع ربنا كل شىء علماً] فيعلم ما يصلح للعباد وما يدبرهم عليه .

[على الله توكلنا] أى : اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم ، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم ، فإن من توكل على الله ، كفاه ، ويسر له أمر دينه ودنياه .

قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ

[ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق] أى : انصر المظلوم ، وصاحب الحق ، على الظالم المعاند للحق [وأنت خير الفاتحين] وفتحه تعالى لعباده ، نوعان .

فتح العلم ، بتبيين الحق من الباطل ، والهدى من الضلال ، ومن هو المستقيم على الصراط ، ممن هو منحرف عنه .

والنوع الثانى : فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين ، والنجاة والإكرام للصالحين .

فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم ، بالحق والعدل ، وأن يريهم من آياته وعبره ، ما يكون فاصلا بين الفريقين .

[وقال الملأ الذين كفروا من قومه] محذرين عن اتباع شعيب .

[لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون] هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء ، فى اتباع الرشد والهدى .

ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة ، فى لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال ، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال .

[فأخذتهم الرجفة] أى : الزلزلة الشديدة [فأصبحوا فى دارهم جاثمين] أى : صرعى ميتين ، هامدين .

قال تعالى ناعيا حالهم [الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها] أى : كأنهم ما أقاموا فى ديارهم ، وكأنهم ما تمتعوا فى عرصاتها ، ولا تفيئوا

يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

فى ظلالها ، ولا غنوا فى مسارح أنهارها ، ولا أكلوا من ثمار أشجارها .

فأخذهم العذاب ، فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات ، إلى مستقر الحزن والشقاء ، والعقاب ؛ والدركات ، ولهذا قال :

[الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين] أى : الخسار محصور فيهم لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، وذلك هو الخسران المبين ، لا من قالوا لهم : [لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون] .

فحين هلكوا ، تولى عنهم نبيهم ، عليه الصلاة والسلام [وقال] معاتبا وموبخا ومخاطبا لهم بعد موتهم :

[ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى] أى : أوصلتها إليكم ، وبينتها حتى بلغت منكم ، أقصى ما يمكن أن تصل إليه ، وخالطت أفئدتكم [ونصحت لكم] فلم تقبلوا نصحى ، ولا انقدتم لإرشادى ، بل فسقتم وطغيتم.

[فكيف آسى على قوم كافرين] أى : فكيف أحزن على قوم ، لا خير فيهم ، أتاهم الخير فردوه ، ولم يقبلوه ، ولا يليق بهم إلا الشر .

فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم ، بل يفرح بإهلاكهم ومحقهم .

فعياذا بك اللهم من الخزى والفضيحة ، وأى شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم ؟!! .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

---

* يقول تعالى : [وما أرسلنا فى قرية من نبى] يدعوهم إلى عبادة الله ، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر ، فلم ينقادوا له :

[إلا أخذنا أهلها] أى : ابتلاهم الله [بالبأساء والضراء] أى : بالفقر ، والمرض ، وأنواع البلايا .

[لعلهم] إذا أصابتهم ، خضعت نفوسهم [فهم يضرعون] إلى الله ، ويستكينون للحق .

[ثم] إذا لم يفد فيهم ، واستمر استكبارهم ، وازداد طغيانهم .

[بدلنا مكان السيئة الحسنة] فأدرّ عليهم الأرزاق ، وعافى أبدانهم ، ورفع عنهم البلايا .

[حتى عفوا] أى : كثروا ، وكثرت أرزاقهم وانبسطوا فى نعمة الله وفضله ، ونسوا ما مر عليهم من البلايا .

[وقالوا] قد مس أباءنا الضراء والسراء] أى : هذه عادة جارية ، لم تزل موجودة فى الأولين واللاحقين ، تارة يكونون فى سراء وتارة فى ضراء ، وتارة فى فرح ، ومرة فى ترح ، على حسب تقلبات الزمان ، وتداول الأيام .

وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير ، ولا للاستدراج والنكير .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ

حتى إذا اغتبطوا ، وفرحوا بما أوتوا ، وكانت الدنيا ، أسر ما كانت إليهم .

[فأخذناهم] بالعذاب [بغتة وهم لا يشعرون] أى : لا يخطر لهم الهلاك على بال

وظنوا[1] أنهم قادرون على ما آتاهم الله ، وأنهم غير زائلين ولا منتقلين عنه .

* لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسل ، يبتلون بالضراء ، موعظة وإنذارا وبالسراء ، استدراجاً ومكراً ، ذكر أن أهل القرى ، لو آمنوا بقلوبهم ، إيماناً صادقاً ، صدقته الأعمال ، واستعملوا تقوى الله تعالى ، ظاهراً وباطناً ، بترك جميع ما حرم الله — لفتح عليهم بركات من السماء والأرض .

فأرسل السماء عليهم مدراراً ، وأنبت لهم من الأرض ، ما به يعيشون ، وتعيش بها أنعامهم ، فى أخصب عيش ، وأغزر رزق ، من غير عناء ولا تعب ، ولا كد ولا نصب .

ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا [فأخذناهم بما كانوا يكسبون] بالعقوبات والبلايا ، ونزع البركات ، وكثرة الآفات ، وهى بعض جزاء أعمالهم .

وإلا ، فلو آخذهم بجميع ما كسبوا ، ما ترك على ظهرها من دابة .

« ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ليذيقهم بعض الذى عملوا ، لعلهم يرجعون » .

---

(١) قوله « وظنوا » أى : اعتقدوا حتى صار ذلك عندهم بمنزلة علم اليقين ، و « الظن » ليس على بابه الذى هو الرجحان ، بل هو لليقين .

يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾

[أفأمن أهل القرى] أى : المكذبة ، بقرينة السياق [أن يأتيهم بأسنا] أى : عذابنا الشديد [بياتا وهم نائمون] أى : فى غفلتهم ، وغرتهم ، وراحتهم .

[أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون] أى : أى شىء يؤمنهم من ذلك ، وهم قد فعلوا أسبابه ، وارتكبوا من الجرائم العظيمة ، ما يوجب بعضه ، الهلاك ؟ ! .

[أفأمنوا مكر الله] حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون ،ويملى لهم ، إن كيده متين .

« فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » فإن من أمن من عذاب الله ، فإنه لم يصدق بالجزاء على الأعمال ، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان .

وهذه الآية الكريمة ، فيها من التخويف البليغ ، على أن العبد ، لا ينبغى له أن يكون آمنا ، على ما معه من الإيمان .

بل لا يزال خائفاً وجلا ، أن يبتلى ببلية ، تسلب ما معه من الإيمان ، وأن لا يزال داعياً بقوله : «يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » .

وأن يعمل ويسعى ، فى كل سبب يخلصه من الشر ، عند وقوع الفتن ، فإن العبد ــ ولو بلغت به الحال ما بلغت ــ فليس على يقين من السلامة .

* أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ

---

* يقول تعالى - منبها للأمم الغابرين[1] بعد هلاك الأمم الغابرين[2] [أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم] أى أو لم يتبين ويتضح، للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين ؟.

أو لم يهتدوا أن الله، لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإن هذه سنة فى الأولين والآخرين.

وقوله : [ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون] أى : إذا نبههم الله، فلم ينتبهوا، وذكرهم، فلم يتذكروا، وهداهم بالآيات والعبر، فلم يهتدوا، فإن الله تعالى يعاقبهم، ويطبع على قلوبهم، فيعلوها الران والدنس، حتى يختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون، ما به تقوم الحجة عليهم.

[تلك القرى] الذين تقدم ذكرهم [نقص عليك من أنبائها] ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين. وموعظة للمتقين.

[ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات] أى : جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم، تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم، وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة، والبينات المبينات للحق، بياناً كاملا، ولكنهم لم يفدهم هذا، ولا أغنى عنهم شيئاً.

---

(١) أى : الباقين. (٢) أى : الماضين.

فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

[فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل] أى : بسبب تكذيبهم ، وردهم الحق أول مرة .

ما كان يهديهم للإيمان ، جزاء لهم على ردهم الحق ، كما قال تعالى « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ، كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » .

[كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين] عقوبة منه .

وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم .

[وما وجدنا لأكثرهم من عهد] أى : وما وجدنا لأكثر الأمم ، الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد ، أى: من ثبات والتزام ، لوصية الله، التى أوصى بها جميع العالمين ، ولا انقادوا لأوامره ، التى ساقها إليهم ، على ألسنة رسله .

[وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين] أى : خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم ، بغير هدى من الله .

فالله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب وأمرهم باتباع عهده وهداه .

فلم يمتثل لأمره إلا القليل من الناس ، الذين سبقت لهم من الله ، سابقة السعادة .

وأما أكثر الخلق ، فأعرضوا عن الهدى ، واستكبروا عما جاءت به الرسل ، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ

---

* أى : ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل ، موسى الكليم ، الإمام العظيم ، والرسول الكريم ، إلى قوم عتاة جبابرة ، وهم فرعون وملاه ، من أشرافهم وكبرائهم .

فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير [فظلموا بها] بأن لم ينقادوا لحقها الذى من لم ينقد له ، فهو ظالم ، بل استكبروا عنها .

[فانظر كيف كان عاقبة المفسدين] كيف أهلكهم الله ، وأتبعهم الذم واللعنة ، فى الدنيا ، ويوم القيامة ، بئس الرفد المرفود ، وهذا مجمل ، فصله بقوله :

* [وقال موسى] حين جاء إلى فرعون ، يدعوه إلى الإيمان .

[يافرعون إنى رسول من رب العالمين] أى : إنى رسول من مرسل عظيم ، وهو رب العالمين ، الشامل للعالم العلوى والسفلى ، مربى جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية ، التى من جملتها ، أنه لا يتركهم سدى ، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

وهو الذى ، لا يقدر أحد ، أن يتجرأ عليه ، ويدعى أنه أرسله ، ولم يرسله .

فإذا كان هذا شأنه ، وأنا قد اختارنى واصطفانى لرسالته ، فحقيق على أن لا أكذب عليه ، ولا أقول عليه إلا الحق .

عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ

فإنى لو قلت غير ذلك ، لعاجلنى بالعقوبة ، وأخذنى أخذ عزيز مقتدر .

فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه ، خصوصاً وقد جاءهم ببينة من الله واضحة ، على صحة ما جاء به من الحق فوجب عليهم ، أن يعملوا بمقصود رسالته ، ولها مقصودان عظيمان .

إيمانهم به ، واتباعهم له ، وإرسال بنى إسرائيل ، الشعب الذى فضله الله على العالمين ، أولاد الأنبياء ، وسلسلة يعقوب عليه السلام ، الذى موسى عليه الصلاة والسلام ، واحد منهم .

فقال له فرعون : [إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين. [فألقى عصاه] فى الأرض [فإذا هى ثعبان مبين] أى: حية ظاهرة ، تسعى ، وهم يشاهدونها .

[ونزع يده] من جيبه [فإذا هى بيضاء للناظرين] من غير سوء .

فهاتان آيتان كبيرتان ، دالتان على صحة ما جاء به موسى وصدقه ، وأنه رسول رب العالمين .

ولكن الذين لا يؤمنون ، لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون ، حتى يروا العذاب الأليم .

مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ

فلهذا [قال الملأ من قوم فرعون] — حين بهرهم ما رأوا من الآيات ، ولم يؤمنوا ، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة ـ :

[إن هذا لساحر عليم] أي : ماهر فى سحره .

ثم خوفوا ضعفاء الأحلام ، وسفهاء العقول ، بأنه :

[يريد] موسى بفعله هذا [أن يخرجكم من أرضكم] أى : يريد أن يجليكم عن أوطانكم [فماذا تأمرون] أى : إنهم تشاوروا فيما بينهم ما يفعلون بموسى ، وما يندفع به ضرره بزعمهم عنهم .

فإن ما جاء به ، إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه ، وإلا دخل فى عقول أكثر الناس .

فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا لفرعون :

(أرجِهْ وأخاه) أى : احبسهما ، وأمهلهما ، وابعث فى المدائن أناساً، يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحار عليم ، أى : يجيئون بالسحرة المهرة ، ليقابلوا ما جاء به موسى .

فقالوا : ياموسى ، اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت ، مكاناً سوى .

« قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى * فتولى فرعون ، فجمع كيده ثم أتى » :

ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ

وقال هنا [وجاء السحرة فرعون] طالبين منه الجزاء إن غلبوا [قالوا : إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين] ؟ .

فـ [قال] فرعون : [نعم] لكم أجر [وإنكم لمن المقربين] .

فوعدهم الأجر والتقريب ، وعلو المنزلة عنده ، ليجتهدوا ويبذلوا وسعهم وطاقتهم ، فى مغالبة موسى .

فلما حضروا مع موسى ، بحضرة الخلق العظيم ، [قالوا] على وجه التألى وعدم المبالاة ، بما جاء به موسى :

[ياموسى إما أن تلقى] ما معك [وإما أن نكون نحن الملقين] .

[قال] موسى : [ألقوا] لأجل أن يرى الناس ما معهم ، وما مع موسى .

[فلما ألقوا] حبالهم وعصيهم ، إذا هى من سحرهم ، كأنها حيات تسعى.

وبذلك [سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءو بسحر عظيم] لم لم يوجد له نظير من السحر .

وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك] فألقاها [فإذا هى] حية تسعى ، و [تلقف جميع ما يأفكون] أى : يكذبون به ويموهون .

مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

[فوقع الحق] أى : تبين وظهر ، واستعلن فى ذلك المجمع .

[وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك] أى : فى ذلك المقام .

[وانقلبوا صاغرين] أى : حقيرين ، قد اضمحل باطلهم ، وتلاشى سحرهم ، ولم يحصل لهم المقصود ، الذى ظنوا حصوله .

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر ، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ، ما لا يعرفه غيرهم .

فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله ، لا يدان لأحد بها .

[وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهرون] أى : وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات .

[قال] لهم [فرعون] متهددا لهم على الإيمان : [ءآمنتم به قبل أن آذن لكم] .

كان الخبيث حاكما مستبداً على الأديان والأقوال ، قد تقرر عنده وعندهم ، أن قوله هو المطاع ، وأمره نافذ فيهم ، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه .

وبهذه الحالة تنحط الأمم ، وتضعف عقولها ونفوذها ، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها ، ولهذا قال الله عنه : « فاستخف قومه فأطاعوه »

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ

وقال هنا [ءآمنتم به قبل أن آذن لكم] أى : فهذا سوء أدب منكم وتجرؤ علىّ .

ثم موه على قومه وقال : [إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها] .

أى : إن موسى كبيركم الذى علمكم السحر ، فتواطأتم أنتم وهو ، على أن تنغلبوا له ، فيظهر ، فتتبعوه ، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم ، فتخرجوا منها أهلها .

وهذا كذب يعلم هو ، ومن سبر الأحوال ، أن موسى عليه الصلاة والسلام ، لم يجتمع بأحد منهم ، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ، ورسله .

وأن ماجاء به موسى ، آية إلهية ، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم فى مغالبة موسى ، حتى عجزوا ، وتبين لهم الحق ، فاتبعوه .

ثم توعدهم فرعون بقوله : [فسوف تعلمون] ما أحل بكم من العقوبة.

[لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف] زعم الخبيث أنهم مفسدون فى الأرض ، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين ، من تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ، أى : اليد اليمنى والرجل اليسرى .

[ثم لأصلبنكم] فى جذوع النخل ، لتخنزوا بزعمه [أجمعين] أى: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد ، بل كلكم سيذوق هذا العذاب .

أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ

فقال السحرة ، الذين آمنوا ، لفرعون حين تهددهم :

[إنا إلى ربنا منقلبون] أى : فلا نبالى بعقوبتك ، فالله خير وأبقى ، فاقض ما أنت قاض .

[وما تنقم منا] أى : وما تعيب منا على إنكارك علينا ، وتوعدك لنا ؟

فليس لنا ذنب [إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا] فإن كان هذا ذنبا يعاب عليه ، ويستحق صاحبه العقوبة ، فهو ذنبنا .

ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا : [ربنا أفرغ] أى : أفض [علينا صبرا] أى : عظيما ، كما يدل عليه التنكير ، لأن هذه محنة عظيمة ، تؤدى إلى ذهاب النفس .

فيحتاج فيها من الصبر ، إلى شىء كثير ، ليثبت الفؤاد ، ويطمئن المؤمن على إيمانه ، ويزول عنه الانزعاج الكثير .

[وتوفنا مسلمين] أى : منقادين لأمرك ، متبعين لرسولك .

والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه ، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان .

هذا ، وفرعون وملأه ، وعامتهم المتبعون للملأ ، قد استكبروا عن آيات الله ، وجحدوا بها ، ظلما وعلوا ، وقالوا لفرعون مهيجين له على

وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِى نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ

الإيقاع بموسى ، وزاعمين أن ماجاء به باطل وفساد :

[أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض] بالدعوة إلى الله ، وإلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، التى هى الصلاح فى الأرض ، وماهم عليه هو الفساد ، ولـكن الظالمين لا يبالون بما يقولون .

[ويذرك وآلهتك] أى يدعك أنت وآلهتك ، وينهى عنك ، ويصد الناس عن اتباعك .

[قال] فرعون مجيبا لهم ، بأنه سيدع بنى إسرائيل مع موسى ، بحالة لاينمون فيها ، ويأمن فرعون وقومه — بزعمه — من ضررهم :

[سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم] أى : نستبقيهن فلا نقتلهن ، فإذا فعلنا ذلك ، أمنا من كثرتهم ، وكنا مستخدمين لباقيهم ، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال .

[وإنا فوقهم قاهرون] لاخروج لهم عن حكمنا ، ولا قدرة ، وهذا نهاية الجبروت والعتو والقسوة من فرعون .

[قال موسى لقومه] موصيا لهم فى هذه الحالة ، التى لا يقدرون معها على شىء ، ولا مقاومة إلا بالمقاومة الإلهية ، والاستعانة الربانية :

[استعينوا بالله] أى : اعتمدوا عليه فى جلب ماينفعـكم ، ودفع ما يضركم .

وَٱلْعَقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى

وثقوا بالله ، أنه سيتم أمركم [واصبروا] أى : الزموا الصبر على ما يحل بكم ، منتظرين للفرج .

[إن الأرض لله] ليست لفرعون ولا لقومه ، حتى يتحكموا فيها .

[يورثها من يشاء من عباده] أى : يداولها بين الناس ، على حسب مشيئته وحكمته .

ولكن العاقبة للمتقين ، فإنهم — وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة — فإن النصر لهم .

[والعاقبة] الحميدة [للمتقين] على قومهم .

وهذه وظيفة العبد ، أنه عند القدرة ، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير ، ما يقدر عليه ، وعند العجز ، أن يصبر ويستعين الله ، وينتظر الفرج .

[قالوا] لموسى متضجرين من طول ما مكثوا فى عذاب فرعون ، وأذيته :

[أوذينا من قبل أن تأتينا] فإنهم كانوا يسوموننا سوء العذاب ، يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا [ومن بعد ما جئتنا] كذلك .

[قال] لهم موسى ، مرجيا لهم بالفرج والخلاص من شرهم :

[عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض] أى : يمكنكم فيها ، ويجعل لكم التدبير فيها [فينظر كيف تعملون] هل تشكرون أم تكفرون ؟ .

ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ

وهذا وعد ، أنجزه الله ، لما جاء الوقت الذى أراده الله .

قال الله تعالى ـ فى بيان ما عامل به آل فرعون فى هذه المدة الأخيرة . أنها على عادته وسنته فى الأمم ، أن يأخذهم بالبأساء والضراء ، لعلهم يضرعون . الآيات :

[ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين] أى: بالدهور والجدب[1] ،[ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون] أى : يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم ، معاتبة من الله لهم ، لعلهم يرجعون عن كفرهم .

فلم ينجع فيهم ولا أفاد ، بل استمروا على الظلم والفساد .

[فإذا جاءتهم الحسنة] أى : الخصب وإدرار الرزق .

[قالوا لنا هذه] أى : نحن مستحقون لها ، فلم يشكروا الله عليها .

[وإن تصبهم سيئة] أى : قحط وجدب [يطيروا بموسى ومن معه] أى : يقولوا : إنما جاءنا ، بسبب مجىء موسى ، واتباع بنى إسرائيل له .

---

(١) قوله [بالدهور والجدب] كلام فيه ما فيه ، فإن المعاجم القرآنية واللغوية متفقة على أن (السنين) معناها : السنون المجدبة والقحوط فالأولى أن يقال : أى : بالسنين المجدبة والأعوام التى لا تنبت الأرض شيئاً من الزروع والثمار .

أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ

قال الله تعالى [ألا إنما طائرهم عند الله] بقضائه وقدرته ، ليس كما قالوا بل إن ذنوبهم وكفرهم ، هو السبب فى ذلك .

[ولكن أكثرهم لا يعلمون] أى : فلذلك قالوا ما قالوا .

[وقالوا] مبينين لموسى أنهم لا يزالون ، ولا يزولون عن باطلهم .

[مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين] أى : قد تقرر عندنا ، أنك ساحر ، فمهما جئت بآية ، جزمنا أنها سحر ، فلا نؤمن لك ، ولا نصدق .

وهذا غاية ما يكون من العناد ، أن يبلغ بالكافرين ، إلى أن تستوى عندهم الحالات ، سواء نزلت عليهم الآيات ، أم لم تنزل .

[فأرسلنا عليهم الطوفان] أى : الماء الكثير ، الذى أغرق أشجارهم وزروعهم ، وأضرهم ضرراً كثيراً .

[والجراد] فأكل ثمارهم ، وزروعهم ، ونباتهم .

[والقمل] قيل : إنه الدباء ، أى : صغار الجراد ، والظاهر ، أنه القمل المعروف [1] .

---

(١) قوله (القمل) ذكر فى (المنتخب من تفسير القرآن) أن القمل : حشرة . تفسد الثمار وتقضى على الحيوان والنبات .

وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ

[والضفادع] فملأت أوعيتهم ، وأقلقتهم ، وآذتهم أذية شديدة .

[والدم] إما أن يكون الرعاف ، أو كما قال كثير من المفسرين ، أن ماءهم الذى يشربون ، انقلب دما ، فكانوا لا يشربون إلا دما، ولا يطبخون.

[آيات مفصلات] أى : أدلة وبينات ، على أنهم كانوا كاذبين ظالمين ، وعلى أن ما جاء به موسى ، حق وصدق .

[فاستكبروا] لما رأوا الآيات [وكانوا] فى سابق أمرهم [قوما مجرمين] .

فلذلك عاقبهم الله تعالى ، بأن أبقاهم على الغى والضلال .

[ولما وقع عليهم الرجز] أى : العذاب ، يحتمل أن المراد به : الطاعون ، كما قاله كثير من المفسرين .

ويحتمل أن يراد به ، ما تقدم من الآيات ، الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، فإنها رجز وعذاب ، وأنهم كلما أصابهم واحد منها .

[قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك] اى : تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده ، من الوحى والشرع .

[لئن كشفت عنا الرجز ، لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل]

وهم فى ذلك كذبة ، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب ، وظنوا أنه إذا رفع لا يصيبهم غيره

مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ

فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه] أى : إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها ، وليس كشفاً مؤبداً ، وإنما هو مؤقت .

[إذا هم ينكثون] العهد الذى عاهدوا عليه موسى، ووعدوه بالإيمان به، وإرسال بنى إسرائيل .

فلا آمنوا به ، ولا أرسلوا معه بنى إسرائيل ، بل استمروا على كفرهم يعمهون ، وعلى تعذيب بنى إسرائيل دائبين .

[فانتقمنا منهم] أى : حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم، أمر الله موسى أن يسرى ببنى إسرائيل ليلا ، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده .

[فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين] يجمعون الناس ، ليتبعوا بنى إسرائيل ، وقال لهم :

« إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائطون * وإنا لجميع حاذرون . فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركوا * قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين » .

وقال هنا :

[فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين] أى : بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق .

بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ

[وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون] فى الأرض ، أى : بنى إسرائيل ، الذين كانوا خدمة لآل فرعون ، يسومونهم سوء العذاب أورثهم الله [مشارق الأرض ومغاربها] والمراد بالأرض ههنا ، أرض مصر ، التى كانوا فيها مستضعفين ، أذلين أى : ملكهم الله جميعاً ، ومكنهم فيها [التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا] حين قال لهم موسى [استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين] .

[ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه] من الأبنية الهائلة، والمساكن المزخرفة [وما كانوا يعرشون] فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون .

[وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر] بعد ما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه ، وأهلكهم الله ، وبنوا إسرائيل ينظرون .

[فأتوا] أى : مروا [على قوم يعكفون على أصنام لهم] أى : يقيمون عندها ويتبركون بها ، ويعبدونها .

قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى

[قال] لهم موسى : [إنكم قوم تجهلون] وأى جهل أعظم من جهل الإنسان ، ربه وخالقه وأراد أن يسوى به غيره ، ممن لا يملك نفعاً ولاضراً، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً ؟!! .

ولهذا قال لهم موسى [إن هؤلاء متبر[1] ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون] ، لأن دعاءهم إياها باطل ، وهى باطلة بنفسها ، فالعمل باطل ، وغايته باطلة .

[قال أغير الله أبغيكم إلها] أى : أطلب لكم إلها غير الله المألوه ، الكامل فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله .

[وهو فضلكم على العالمين] فيقتضى أن تقابلوا فضله ، وتفضيله ، بالشكر .

وذلك بإفراد الله وحده ، بالعبادة ، والكفر بما يدعى من دونه .

[قالوا] من جهلهم وسفههم ، لنبيهم موسى ، بعد ما أراهم الله من الآيات ما أراهم .

[ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة] أى : اشرع لنا ، أن نتخذ أصناماً آلهة ، كما اتخذها هؤلاء .

---

(١) قوله (متبر) أى مهلك ، ومدمر ، والمراد ، إن هؤلاء الذين يعبدون الأصنام هالك ماهم فيه من الدين الباطل وزائل عملهم ، لا بقاء له .

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا

ثم ذكرهم بما امتن الله به عليهم ، فقال :

[وإذ أنجيناكم من آل فرعون] أى : من فرعون وآله .

[يسومونكم[1] سوء العذاب] أى : يوجهون إليكم من العذاب أسوأه وهو أنهم كانوا [يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم] أى: النجاة من عذابهم [بلاء من ربكم عظيم] أى : نعمة جليلة، ومنحة جزيلة.

أو فى ذلك العذاب الصادر منهم لكم ، بلاء من ربكم عليكم عظيم .

فلما ذكرهم موسى ووعظهم ، انتهوا عن ذلك .

ولما أتم الله نعمته عليهم ، بالنجاة من عدوهم ، وتمكينهم فى الأرض ، أراد تبارك وتعالى ، أن يتم نعمته عليهم ، بإنزال الكتاب الذى فيه الأحكام الشرعية ، والعقائد المرضية .

فواعد موسى ثلاثين ليلة ، وأتمها بعشر ، فصارت أربعين ليلة، ليستعد موسى ، ويتهيأ لوعد الله ، ويكون لنزولها ، موقع كبير لديهم ، وتشوق إلى إنزالها .

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه ، قال لهرون ـ موصياً له على بنى إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته : ـ

---

(١) يسومونكم أى: يذيقونكم أشد العذاب ويسخرونكم لخدمتهم فى مشاق الأعمال .

بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ

[اخلفنى فى قومى] أى: كن خليفتى فيهم، واعمل فيهم، بما كنت أعمل.

[وأصلح] أى: اتبع طريق الصلاح [ولا تتبع سبيل المفسدين] وهم الذين يعملون بالمعاصى.

[ولما جاء موسى لميقاتنا] الذى وقتناه له لإنزال الكتاب [وكلمه ربه] بما كلمه، من وحيه، وأمره، ونهيه، تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حباً لربه، واشتياقاً لرؤيته.

[قال: ربى أرنى أنظر إليك، قال] الله [لن ترانى] أى: لن تقدر الآن على رؤيتى، فإن الله تبارك وتعالى، أنشأ الخلق فى هذه الدار، على نشأة لا يقدرون بها، ولا يثبتون لرؤية الله.

وليس فى هذا، دليل على أنهم لا يرونه فى الجنة.

فإنه قد دلت النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى[1].

---

(١) أقول. رؤية الله أجل نعمة وأعظم متعة ومنحة، فلا تكون إلا فى دار لم تتدنس بالمعاصى وهى الجنة، وأما الأرض فقد حصل على ظهرها من الآثام مالا يعلم عظمها إلا الله، فلا يمكن أن يقع فيها أعظم النعم وهى رؤية الله التى ينسى بها الراءون نعيم الجنان.

ذكر هذا «الكلاباذى» فى كتابه (التعرف بمذهب التصوف) وهو كتاب نفيس لم يخرج عن الكتاب والسنة.

قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

ولهذا رتب الله الرؤية فى هذه الآية ، على ثبوت الجبل ، فقال ـ مقنعاً لموسى فى عدم إجابته للرؤية ـ :

[ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه] إذا تجلى الله له [فسوف ترانى].

[فلما تجلى ربه للجبل] الأصم الغليظ [جعله دكا] أى : انهال مثل الرمل ، انزعاجا من رؤية الله وعدم ثبوته لها .

[وخر موسى] حين رأى ما رأى [صعقاً] أى : مغشيا عليه .

[فلما أفاق] تبين له حينئذ ، أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله ، فموسى أولى أن لا يثبت لذلك .

واستغفر ربه ، لما صدر منه من السؤال ، الذى لم يوافق ، موضعاً ، ولذلك :

[قال سبحانك] أى : تنزيها لك ، وتعظيما عما لا يليق بجلالك .

[تبت إليك] من جميع الذنوب ، وسوء الأدب معك .

[وأنا أول المؤمنين] أى : جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه ، بما كمل الله له ، مما كان يجهله قبل ذلك ، فلما منعه الله من رؤيته ـ بعد ما كان متشوقا إليها ـ أعطاه خيرا كثيراً فقال :

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ

[ياموسى إنى اصطفيتك على الناس] أى : اخترتك واجتبيتك ، وفضلتك ، وخصصتك بفضائل عظيمة ، ومناقب جليلة .

[برسالاتى] التى لا أجعلها ، ولا أخص بها ، إلا أفضل الخلق .

[وبكلامى] إياك من غير واسطة ، وهذه فضيلة ، اختص بها موسى الكليم ، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين .

[فخذ ما آتيتك] من النعم ، وخذ ما آتيتك ، من الأمر والنهى ، بانشراح صدر ، وتلقه بالقبول والانقياد .

[وكن من الشاكرين] لله ، على ما خصك وفضلك .

[وكتبنا له فى الألواح من كل شىء] يحتاج إليه العباد [وموعظة] ترغب النفوس فى أفعال الخير ، وترهبهم من أفعال الشر .

[وتفصيلا لكل شىء] من الأحكام الشرعية ، والعقائد ، والأخلاق ، والآداب .

[فخذها بقوة] أى : بجد واجتهاد على إقامتها .

[وأمر قومك يأخذوا بأحسنها] وهى الأوامر الواجبة ، والمستحبة ، فإنها أحسنها .

وفى هذا دليل ، على أن أوامر الله — فى كل شريعة — كاملة ، عادلة ، حسنة .

قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ

[سأوريكم دار الفاسقين] بعد ما أهلكهم الله ، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم ، يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون .

وأما غيرهم ، فقال عنهم : [سأصرف عن آياتى] أى عن الاعتبار فى آيات الأفقية ، والنفسية ، والفهم لآيات الكتاب [الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق] .

أى : يتكبرون على عباد الله ، وعلى الحق ، وعلى من جاء به .

فمن كان بهذه الصفة ، حرمه الله خيرا كثيراً ، وخذله ، ولم يفقه من آيات الله ، ما ينتفع به .

بل ربما انقلبت عليه الحقائق ، واستحسن القبيح .

[وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها] لإعراضهم ، واعتراضهم ، ومحادتهم لله ورسوله .

[وإن يروا سبيل الرشد] أى : الهدى والاستقامة ، وهو الصراط الموصل إلى الله ، وإلى دار كرامته .

[لا يتخذوه] أى : لايسلكوه ولا يرغبوا فيه [سبيلا] .

[وإن يروا سبيل الغى] أى : الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء [يتخذوه سبيلا] .

سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ

والسبب فى انحرافهم هـذا الانحراف [ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين] .

فردهم لآيات الله ، وغفلتهم عما يراد بها ، واحتقارهم لها ـ هو الذى أوجب لهم من سلوك طريق الغى ، وترك طريق الرشد ، ما أوجب .

* [والذين كذبوا بآياتنا] العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا .

[ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم] لأنها على غير أساس ، وقد فقد شرطها وهو ، الإيمان بآيات الله ، والتصديق بجزائه .

[هل يجزون] فى بطلان أعمالهم ، وحصول ضد مقصودهم [إلا ما كانوا يعملون] فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر ، لا يرجو فيها ثواباً ، وليس لها غاية تنتهى إليها ، فلذلك اضمحلت وبطلت .

[واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً] صاغه السامرى وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار [له خوار(١)] وصوت فعبدوه ، واتخذوه إلها .

---

(١) الخوار : صوت البقر .

أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا

« وقال[1] هذا إلهكم وإله موسى » فنسى موسى ، وذهب يطلبه .

وهذا من سفههم ، وقلة بصيرتهم .

كيف اشتبه عليهم ، رب الأرض والسموات ، بعجل من أنقص المخلوقات ؟ ! !

ولهذا قال ـ مبينا أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ، ولا الفعلية ، ما يوجب أن يكون إلها .

[ألم يروا أنه لايكلمهم] أى : وعدم الكلام ، نقص عظيم ، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد ، الذى لايتكلم [ولا يهديهم سبيلا] أى : لايدلهم طريقا دينيا ، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية .

لأن من المتقرر فى العقول والفطر ، أن اتخاذ إله لايتكلم ، ولاينفع ، ولايضر ، من أبطل الباطل ، وأسمج السفه ، ولهذا قال :

[اتخذوه وكانوا ظالمين] حيث وضعوا العبادة فى غير موضعها ، وأشركوا بالله ، مالم ينزل به سلطانا .

وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله ، فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى .

---

(١) أى : السامرى .

رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ

لأن الله ذكر ، أن عدم الكلام ، دليل على عدم صلاحية الذى لايتكلم ، للإلهية .

[ولما] رجع موسى إلى قومه ، فوجدهم على هذه الحال ، وأخبرهم بضلالهم ، ندموا [وسقط فى أيديهم] أى : من الهم والندم على فعلهم .

[ورأوا أنهم قد ضلوا] فتنصلوا ، إلى الله وتضرعوا [وقالوا : لئن لم يرحمنا ربنا] فيدلنا عليه ، ويرزقنا عبادته ، ويوفقنا لصالح الأعمال .

[ويغفر لنا] ما صدر منا من عبادة العجل .

[لنكونن من الخاسرين] الذين خسروا الدنيا والآخرة .

[ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا] أى : ممتلئا غضبا وغيظا عليهم ، لتمام غيرته ، عليه السلام ، وكمال نصحه وشفقته .

[قال بئسما خلفتمونى من بعدى] أى : بئس الحالة التى خلفتمونى بها من بعد ذهابى عنكم ، فإنها حالة تفضى إلى الهلاك الأبدى ، والشقاء السرمدى .

[أعجلتم أمر ربكم] حيث وعدكم بإنزال الكتاب .

فبادرتم — برأيكم الفاسد — إلى هذه الخصلة القبيحة .

[وألقى الألواح] أى : رماها من الغضب [وأخذ برأس أخيه] هرون ولحيته [يجره إليه] وقال له :

« ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ، أن لاتتبعنى أفعصيت أمرى » .

قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

لك بقولى [اخلفنى فى قومى وأصلح ولاتتبع سبيل المفسدين] .

[قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ، ولم ترقب قولى] .

و [قال] هنا [ابن أم] هذا ترقيق لأخيه ، بذكر الأم وحدها .

وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه : [إن القوم استضعفونى] أى: احتقرونى حين قلت لهم : « ياقوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمن ، فاتبعونى وأطيعوا أمرى » .

[وكادوا يقتلوننى] أى : فلا تظن بى تقصيراً [فلا تشمت بى الأعداء] بنهرك لى ، ومسكك إياى بسوء .

فإن الأعداء ، حريصون على أن يجدوا علىَّ عثرة ، أو يطلعوا لى على زلة .

[ولا تجعلنى مع القوم الظالمين] فتعاملنى معاملتهم .

فندم موسى عليه السلام ، على ما استعجل من صنعه بأخيه ، قبل أن يعلم براءته ، مما ظنه فيه من التقصير .

و [قال رب اغفرلى ولأخى] هارون [وأدخلنا فى رحمتك] أى : فى وسطها ، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب ، فإنها حصن حصين ، من جميع الشرور ، وثمَّ كل خير وسرور .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

[وأنت أرحم الراحمين] أى : أرحم بنا من كل راحم ، أرحم بنا ، من آبائنا ، وأمهاتنا ، وأولادنا ، وأنفسنا .

قال الله تعالى ـ مبينا حال أهل العجل الذين عبدوه :

[إن الذين اتخذوا العجل] أى : إلهـا [سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا] كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره .

[وكذلك نجزى المفترين] فـكل مفتر على الله ، كاذب على شرعه ، متقول عليه ما لم يقل ، فإن له نصيبـاً من الغضب ، من الله ، والذل فى الحياة الدنيا .

وقد نالهم غضب الله ، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم ، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك .

فقتل بعضهم بعضاً ، وانجلت المعركة ، عن كثير من القتلى [(١)] ثم تاب الله عليهم بعد ذلك .

ولهذا ذكر حكما عاما يدخلون فيه وغيرهم فقال :

[والذين عملوا السيئات] من شرك ، وكبائر ، وصغائر [ثم تابوا من

---

(١) فى الأصل المطبوع (عن قتلى كثيرة) ولا شك أنه تعبير غير قويم فلذلك أبدلنا الجملة بـ (عن كثير من القتلى) .

بعدها] بأن ندموا على ما مضى ، وأقلعوا عنه ، وعزموا على أن لا يعودوا

[وآمنوا] بالله ، وبما أوجب الله من الإيمان به .

ولا يتم الإيمان ، إلا بأعمال القلوب ، وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان ، [إن ربك من بعدها] أى : بعد هذه الحالة ، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات .

[لغفور] يغفر السيئات ويمحوها ، ولو كانت ملء قراب الأرض .

[رحيم] بقبول التوبة ، والتوفيق لأفعال الخير وقبولها .

[ولما سكت عن موسى الغضب] أى : سكن غضبه ، وتراجعت نفسه ، وعرف ما هو فيه ، اشتغل بأهم الأشياء عنده .

ف [أخذ الألواح] التى ألقاها ، وهى ألواح عظيمة المقدار ، جليلة [وفى نسختها] أى : مشتملة ومتضمنة [هدى ورحمة] أى : فيها الهدى من الضلالة ، وبيان الحق من الباطل ، وأعمال الخير ، وأعمال الشر ، والهدى لأحسن الأعمال ، والأخلاق ، والآداب ، ورحمة وسعادة ، لمن عمل بها ، وعلم أحكامها ومعانيها .

ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته .

وإنما يقبل ذلك وينقاد له ، ويتلقاه بالقبول [الذين هم لربهم يرهبون] أى : يخافون منه ويخشونه .

وأما من لم يخف الله ، ولا المقام بين يديه ، فإنه لا يزداد بها ، إلا عتوا ونفورا ، وتقوم عليه حجة الله فيها .

[و] لما تاب بنو إسرائيل وتراجعوا إلى رشدهم [اختار موسى

وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ

قومه] أي : منهم [سبعين رجلا] من خيارهم ، ليعتذروا لقومهم عند ربهم ، ووعدهم الله ميقاتاً يحضرون فيه .

فلما حضروه ، قالوا : (ياموسى ، أرنا الله جهرة) فتجرأوا على الله جراءة كبيرة ، وأساءوا الأدب معه :

ف [أخذتهم الرجفة] فصعقوا وهلكوا .

فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام ، يتضرع إلى الله ويبتهل [قال رب لوشئت أهلكتهم من قبل] أن يحضروا ويكونون فى حالة يعتذرون فيها لقومهم ، فصاروا هم الظالمين[1] .

[وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا] أي : ضعفاء العقول ، سفهاء الأحلام ، فتضرع إلى الله ، واعتذر بأن المتجرئين على الله ، ليس لهم عقول كاملة ، تردعهم عما قالوا وفعلوا ، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر[2] بها

---

(١) قوله (رب ، لو شئت أهلكتهم) إلى (فصاروا هم الظالمين) .

هذا التفسير غير منتظم مع الآية فكان الأولى - بل الصواب - للمفسر أن يقول (لو شئت إهلاكهم أهلكتهم من قبل خروجهم إلى الميقات وأهلكتنى معهم) وبهذا ينمشى التفسير مع الآية ؛ فالمفسر لم يتعرض لكلمة (وإياى) .

(٢) قوله : يخطر هكذا فى الأصل المطبوع ولعل الصواب (يخطىء) .

تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً

الإنسان ، ويخاف من ذهاب دينه فقال :

[إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين] أى : أنت خير من غفر ، وأولى من رحم ، وأكرم من أعطى ، وتفضل .

فكأن موسى عليه الصلاة والسلام ، قال : المقصود يارب بالقصد الأول لنا كلنا ، هو التزام طاعتك ، والإيمان بك ، وأن من حضره عقله ورشده ، وتم[1] على ما وهبته من التوفيق ، فإنه لم يزل مستقيما .

وأما من ضعف عقله ، وسفه رأيه ، وصرفته الفتنة ، فهو الذى فعل ما فعل ، لذينك السببين .

ومع هذا ، فأنت أرحم الراحمين ، وخير الغافرين ، فاغفر لنا وارحمنا .

فأجاب الله سؤاله ، وأحياهم من بعد موتهم ، وغفر لهم ذنوبهم .

وقال موسى فى تمام دعائه [واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة] من علم نافع ، ورزق واسع ، وعمل صالح .

[وفى الآخرة حسنة] ، وهى ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب .

---

(١) قوله (وتم) أى : استمر .

وَفِى ٱلْأَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ

[إنا هـدنا إليك] أى : رجعنا مقرين بتقصيرنا ، منيبين فى جميع أمورنا .

[قال] الله تعالى [عذابى أصيب به من أشاء] ممن كان شقيا ، متعرضاً لأسبابه .

[ورحمتى وسعت كل شىء] من العالم العلوى والسفلى ، البر والفاجر ، المؤمن والكافر .

فلا مخلوق ، إلا قد وصلت إليه رحمة الله ، وغمره فضله وإحسانه .

ولكن الرحمة الخاصة ، المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ، ليست لكل أحد .

ولهذا قال عنها : [فسأكتبها للذين يتقون] المعاصي ، صغارها ، وكبارها .

[ويؤتون الزكاة] الواجبة مستحقيها [والذين هم بآياتنا يؤمنون] .

ومن تمام الإيمان بآيات الله ، معرفة معناها ، والعمل بمقتضاها .

ومن ذلك اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، ظاهراً وباطنا ، فى أصول الدين ، وفروعه .

[الذين يتبعون الرسول النبي الأمى] احتراز عن سائر الأنبياء ، فإن المقصود بهذا ، محمد بن عبدالله بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم .

ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ

والسياق فى أحوال بنى إسرائيل وأن الإيمان بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم ، شرط فى دخولهم فى الإيمان ، وأن المؤمنين به ، المتبعين ، هم أهل الرحمة المطلقة ، التى كتبها الله لهم .

ووصفه بالأمى ، لأنه من العرب ، الأمة الأميـة ، التى لا تقرأ ولا تـكتب ، وليس عندها قبل القرآن كتاب .

[الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل] باسمه وصفته ، التى من أعظمها وأجلها ، مايدعو إليه ، وينهى عنه .

وأنه [يأمرهم بالمعروف] وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ، ونفعه .

[وينهاهم عن المنـكر] وهو : كل ما عرف قبحه فى العقول ، والفطر .

فيأمرهم بالصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وصلة الأرحام ، وبر الوالدين ، والإحسان إلى الجار ، والمملوك ، وبذل النفع لسائر الخلق ، والصدق ، والعفاف ، والبر ، والنصيحة ، وما أشبه ذلك .

وينهى عن الشرك بالله ، وقتل النفوس بغير حق ، والزنا ، وشرب ما يسكر العقل ، والظـلم لسائر الخلق ، والـكذب ، والفجـور ، ونحو ذلك .

فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله ، ما دعا إليه ، وأمر به ، ونهى عنه ، وأحله ، وحرمه .

فإنه [يحل لهم الطيبات] من المطاعم ، والمشارب ، والمناكح .

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

[ويحرم عليهم الخبائث] من المطاعم ، والمشارب ، والمناكح ، والأقوال ، والأفعال .

[ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم] أى : ومن وصفه أن دينه ، سهل سمح ميسر ، لا إصرفيه ، ولا أغلال ، ولامشقات ، ولا تكاليف ثقال .

[فالذين آمنوا به وعزروه] أى : عظموه وبجلوه [ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه] وهو القرآن ، الذى يستضاء به فى ظلمات الشك والجهالات ويقتدى به ، إذا تعارضت المقالات .

[أولئك هم المفلحون] الظافرون ، بخير الدنيا والآخرة ، والناجون من شرها .

لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح .

[وأما من لم يؤمن بهذا النبى الأمى ، ويعزره ، وينصره ، ولم يتبع النور الذى أنزل معه ، فأولئك هم الخاسرون .

ولما دعا أهل التوراة من بنى إسرائيل ، إلى اتباعه ، وكان ربما توهم متوهم ، أن الحكم مقصور عليهم ، أتى بما يدل على العموم فقال :

[قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا] أى : عربيكم ، وعجميكم ، أهل الكتاب فيكم ، وغيرهم .

إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن

[الذى له ملك السموات والأرض] يتصرف فيها بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية ، وبأحكامه الشرعية الدينية ، التى من جملتها : أن أرسل إليكم رسولا عظيما .

يدعوكم إلى الله ، وإلى دار كرامته .

ويحذركم من كل ما يباعدكم منه ، ومن دار كرامته .

[لا إله إلا هو] أى : لا معبود بحق ، إلا الله وحده لاشريك له ، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله .

[يحيي ويميت] أى : من جملة تدابيره : الإحياء والإماتة ، التى لايشاركه فيها أحد .

وقد جعل الله الموت ، جسراً ، ومعبراً ، يعبر الإنسان منه إلى دار البقاء ، التى من آمن بها ، صدق الرسول محمدا صلى الله عايه وسلم ، قطعا .

[فآمنوا بالله و سوله النبى الأمى] إيمانا فى القلب ، متضمنا لأعمال القلوب والجوارح .

[الذى يؤمن بالله وكلماته] ، أى : آمنوا بهذا الرسول المستقيم فى عقائده ، وأعماله .

[واتبعوه لعلكم تهتدون] فى مصالحكم الدينية والدنيوية ، فإنكم إذا لم تتبعوه ، ضللتم ضلالا بعيداً .

قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ

[ومن قوم موسى أمة] أى : جماعة [يهدون بالحق وبه يعدلون] أى : يهدون الناس فى تعليمهم إياهم ، وفتواهم لهم ، ويعدلون به فى الحكم بينهم ، فى قضاياهم ، كما قال تعالى « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » .

وفى هذا فضيلة لأمة موسى ، عليه الصلاة والسلام ، وأن الله تعالى ، جعل منهم هداة يهدون بأمره .

وكان الإتيان بهذه الآية الكريمة ، فيه نوع احتراز مما تقدم .

فإنه تعالى ، ذكر فيما تقدم ، جملة من معايب بنى إسرائيل ، المنافية لكمال المناقضة للهداية .

فربما توهم متوهم ، أن هذا يعم جميعهم ، فذكر تعالى ، أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهدية .

[وقطعناهم] أى : قسمناهم [اثنتى عشرة أسباطا أمما] أى : اثنتى عشرة قبيلة ، متعارفة ، متوالفة ، كل بنى رجل من أولاد يعقوب ، قبيلة .

[وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه] أى : طلبوا منه أن يدعو الله تعالى ، أن يسقيهم ما يشربون منه ، وتشرب منه مواشيهم .

وذلك لأنهم — والله أعلم — فى محل قليل الماء .

كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ

فأوحى الله لموسى ، إجابة لطلبتهم [أن اضرب بعصاك الحجر] يحتمل أنه حجر معين .

ويحتمل أنه اسم جنس ، يشمل أى حجر كان .

فضرب به [فانبجست] أي : انفجرت من ذلك الحجر [اثنتا عشرة عينا] جارية سارحة .

[قد علم كل أناس مشربهم] أى : قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتى عشرة ، وجعل لكل منهم عينا ، فعلموها ، واطمأنوا ، واستراحوا من التعب والمزاحمة ، وهذا من تمام نعمة الله عليهم .

[وظللنا عليهم الغمام] فكان يسترهم من حر الشمس .

[وأنزلنا عليهم المن] وهو الحلوى .

[والسلوى] وهو لحم طير ، من أحسن أنواع الطيور ، وألذها .

فجمع الله لهم ، بين الظلال ، والشراب ، والطعام الطيب ، من الحلوى واللحوم ، على وجه الراحة والطمأنينة .

وقيل لهم : [كلوا من طيبات مارزقناكم وما ظلمونا] حين لم يشكروا الله ، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم .

[ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] حيث فوتوها كل خير ، وعرضوها للشر والنقمة ، وهذا كان مدة لبثهم فى التيه .

وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ

[وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية] أى : ادخلوها لتكون وطنا لكم ومسكنا ، وهى « إيلياء[1] » [وكلوا منها حيث شئتم] أى: قرية كانت كثيرة الأشجار ، غزيرة الثمار ، رغيدة العيش ، فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاءوا .

[وقولوا] حين تدخلون الباب : [حطة] أى : احطط عنا خطايانا ، واعف عنا .

[وادخلوا الباب سجدا] أى : خاضعين لربكم ، مستكينين لعزته ، شاكرين لنعمته

فأمرهم بالخضوع ، وسؤال المغفرة ، ووعدهم على ذلك ، مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل فقال :

[نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين] من خير الدنيا والآخرة .

فلم يمتثلوا هذا الأمر الإلهى ، بل خالفوا .

[فبدل الذين ظلموا منهم] أى : عصوا الله واستهانوا بأمره [قولا غير الذى قيل لهم] فقالوا ، بدل طلب المغفرة ، وقولهم « حطة » ، « حبة فى شعيرة » .

---

(١) إيلياء : أى مدينة القدس.

بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

وإذا بدلوا القول — مع يسره وسهولته — فتبديلهم للفعل من باب أولى .

ولهذا دخلوا يزحفون على أستاههم .

[فأرسلنا عليهم] حين خالفوا أمر الله وعصوه [رجزا من السماء] أى : عذابا شديداً ، إما الطاعون وإما غيره ، من العقوبات السماوية .

[وما ظلمهم الله بعقابه ، وإنما كان ذلك [بما كانوا يظلمون] .

[واسألهم] أى : اسأل بنى إسرائيل [عن القرية التى كانت حاضرة البحر] أى : على ساحله ، فى حال تعديهم وعقاب الله إياهم .

[إذ يعدون فى السبت] وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيداً ، فابتلاهم الله ، وامتحنهم .

فكانت [تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا] أى : كثيرة طافية على وجه البحر .

[ويوم لايسبتون] أى : إذا ذهب يوم السبت [لا تأتيهم] أى : تذهب في البحر ، فلا يرون منها شيئا [كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون] .

ففسقهم ، هو الذى أوجب أن يبتليهم الله ، وأن تكون لهم هذه المحنة .

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا

وإلا ، فلو لم يفسقوا ، لعافاهم الله ، ولما عرضهم للبلاء والشر .

فتحيلوا على الصيد ، فكانوا يحفرون لها حفراً ، وينصبون لها الشباك .

فإذا جاءت يوم السبت ، ووقعت فى تلك الحفر والشباك ، لم يأخذوها فى ذلك اليوم .

فإذا جاء يوم الأحد ، أخذوها ، وكثر فيهم ذلك ، وانقسموا ثلاث فرق .

معظمهم ، اعتدوا وتجرأوا ، وأعلنوا بذلك .

وفرقة أعلنت بنهيهم ، والإنكار عليهم .

وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم ، ونهيهم لهم وقالوا :

[لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً]

كأنهم يقولون : لا فائدة فى وعظ من اقتحم محارم الله ، ولم يصغ للنصيح ، بل استمر على اعتدائه وطغيانه ، فإنه لابد أن يعاقبهم الله ، إما بهلاك ، أو عذاب شديد .

فقال الواعظون : نعظهم وننهاهم [معذرة إلى ربكم]

أى : لنعذر فيهم .

[ولعلهم يتقون] أى : يتركون ماهم فيه من المعصية ، فلا نيأس من هدايتهم ، فربما نجح فيهم الوعظ ، وأثر فيهم اللوم .

نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن

وهذا هو المقصود الأعظم ، من إنكار المنكر ، ليكون معذرة ، وإقامة حجة على المأمور المنهى ، ولعل الله أن يهديه ، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر ، والنهى .

[فلما نسوا ما ذكروا به] أى : تركوا ما ذكروا به ، واستمروا على غيهم واعتدائهم .

[نجينا الذين ينهون عن السوء] وهكذا سنة الله فى عباده ، أن العقوبة إذا نزلت ، نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

[وأخذنا الذين ظلموا] وهم الذين اعتدوا فى السبت [بعذاب بئيس] أى : شديد [بما كانوا يفسقون] .

وأما الفرقة الأخرى التى قالت للناهين « لم تعظون قوما الله مهلكهم » .

فاختلف المفسرون فى نجاتهم ، وهلاكهم .

والظاهر ، أنهم كانوا من الناجين ، لأن الله خص الهلاك بالظالمين ، وهو لم يذكر ، أنهم ظالمون .

فدل على أن العقوبة ، خاصة بالمعتدين فى السبت .

ولأن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فرض كفاية .

إذا قام به البعض ، سقط عن الآخرين ، فاكتفوا بإنكار أولئك .

ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم [لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم

مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

عذاباً شديداً] فأبدوا من غضبهم عليهم ، مايقتضى أنهم كارهون أشد الكراهة ، لفعلهم ، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة .

[فلما عتوا عما نهوا عنه] أى : قسوا فلم يلينوا ، ولا اتعظوا .

[قلنا لهم] قولا قدرياً ، [كونوا قردة خاسئين[1]] فانقلبوا بإذن الله قردة ، وأبعدهم الله من رحمته .

ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقى منهم فقال :

[وإذ تأذن ربك] أى : أعلم إعلاما ، صريحاً .

[ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب] أى : يهينهم ، ويذلهم .

[إن ربك لسريع العقاب] لمن عصاه ، حتى إنه يعجل له العقوبة فى الدنيا .

[وإنه لغفور رحيم] لمن تاب إليه وأناب ، يغفر له الذنوب ، ويستر عليه العيوب ، ويرحمه ، بأن يتقبل منه الطاعات ، ويثيبه عليها بأنواع المثوبات .

وقد فعل الله بهم ما وعدهم به ، فلا يزالون فى ذل وإهانة ، تحت حكم غيرهم ، لاتقوم لهم راية ، ولاينصر لهم عَلَمٌ .

---

(١) خاسئين أى : ذليلين ، حقيرين .

أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن

[وقطعناهم فى الأرض أمما] أى : فرقناهم ومزقناهم فى الأرض ، بعد ما كانوا مجتمعين .

[منهم الصالحون] القائمون بحقوق الله ، وحقوق عباده .

[ومنهم دون ذلك] أى : دون الصلاح ، إما مقتصدون ، وإما الظالمون لأنفسهم .

[وبلوناهم] على عادتنا وسنتنا ، [بالحسنات والسيئات] أى : باليسر والعسر .

[لعلهم يرجعون] عما هم عليه مقيمون ، من الردى ، ويراجعون ما خلقوا له من الهدى ، فلم يزالوا بين صالح ، وطالح ، ومقتصد .

[فخلف من بعدهم خلف] زاد شرهم [ورثوا] بعدهم [الكتاب] وصار المرجع فيه إليهم ، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم ، وتبذل لهم الأموال ، ليفتوا ويحكموا ، بغير الحق ، وفشت فيهم الرشوة .

[يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون] مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة :

[سيغفر لنا] وهذا قول خال من الحقيقة ، فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة .

فلو كان ذلك ، لندموا على ما فعلوا ، وعزموا على أن لا يعودوا .

ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر ، ورشوة أخرى - يأخذونه .

يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ

فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، واستبدلوا الذى هو أدنى ، بالذى هو خير .

قال الله تعالى ـ فى الإنكار عليهم ، وبيان جراءتهم ـ :

[ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق] .

فما بالهم يقولون عليه غير الحق ، اتباعا لأهوائهم ، وميلا مع مطامعهم.

[و] الحال أنهم قد [درسوا ما فيه] فليس عليهم فيه إشكال ، بل قد أتوا أمرهم متعمدين ، وكانوا فى أمرهم مستبصرين .

وهذا أعظم للذنب ، وأشد للوم ، وأشنع للعقوبة .

وهذا من نقص عقولهم ، وسفاهة رأيهم ، بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، ولهذا قال :

[والدار الآخرة خير للذين يتقون] ما حرم الله عليهم ، من المآكل التى تصاب ، وتؤكل رشوة على الحكم ، بغير ما أنزل الله ، وغير ذلك من أنواع المحرمات .

[أفلا تعقلون] أي : أفلا تكون لكم عقول توازن بين ما ينبغى إيثاره ، وما ينبغى الإيثار عليه ، وماهو أولى بالسعى إليه ، والتقديم له على غيره .

وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

فخاصية العقل ، النظر للعواقب .

وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع ، يفوت نعيما عظيما باقياً فأنى له العقل والرأى ؟!! .

وإنما العقلاء حقيقة ، من وصفهم الله بقوله [والذين يمسكون بالكتاب] أى : يتمسكون به علماً وعملا ، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار ،التى علمها ، أشرف العلوم .

ويعلمون بما فيها من الأوامر ، التى هى قرة العيون ، وسرور القلوب ، وأفراح الأرواح ، وصلاح الدنيا والآخرة .

ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات ، إقامة الصلاة ، ظاهراً وباطناً .

ولهذا خصها بالذكر لفضلها ، وشرفها ، وكونها ميزان الإيمان .

وإقامتها ، داعية لإقامة غيرها من العبادات .

ولما كان عملهم كله إصلاحا ، قال تعالى : [إنا لانضيع أجر المصلحين] فى أقوالهم وأعمالهم ، ونياتهم ، مصلحين ، لأنفسهم ، ولغيرهم .

وهذه الآية ، وما أشبهها ، دلت على أن الله بعث رسله ، عليهم الصلاة والسلام ، بالصلاح لا بالفساد ، وبالمنافع لا بالمضار ، وأنهم بعثوا ، بصلاح الدارين ، فكل من كان أصلح ، كان أقرب إلى اتباعهم .

* ثم قال تعالى [وإذ نتقنا[1] الجبل فوقهم] حين امتنعوا من قبول ما فى التوراة .

---

(١) نتقنا . أى : قلعناه ورفعناه من أصله فوق رءوسهم .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن

فألزمهم الله العمل ونتق فوق رءوسهم الجبل ، فصار فوقهم [كأنه ظله ، وظنوا أنه واقع بهم] وقيل لهم [خذوا ما آتيناكم بقوة] أى : بجد واجتهاد .

[واذكروا ما فيه] دراسة ومباحثة ، واتصافا بالعمل [لعلكم تتقون] إذا فعلتم ذلك .

* يقول تعالى : وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم] أى : أخرج من أصلابهم ، ذريتهم ، وجعلهم يتناسلون ، ويتوالدون ، قرناً بعد قرن .

[و] حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم [أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم] أى : قررهم ، بإثبات ربوبيته ، بما أودعه فى فطرهم ، من الإقرار ، بأنه ربهم ، وخالقهم ، ومليكهم .

قالوا : « بلى » قد أقررنا بذلك ، فإن الله تعالى ، فطر عباده على الدين الحنيف القيم .

فكل أحد ، فهو مفطور على ذلك ، ولكن الفطرة قد تغير ، وتبدل ، بما يطرأ على العقول من العقائد الفاسدة ، ولهذا [قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين] .

أى : إنما امتحناكم ، حتى أقررتم ، بما تقرر عندكم ، من أن الله تعالى ، ربكم ، خشية أن تنكروا يوم القيامة ، فلا تقروا بشىء من ذلك ، وتزعمون

تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا

أن حجة الله ، ما قامت عليكم ، ولا عندكم بها علم ، بل أنتم غافلون عنها لاهون .

فاليوم ، قد انقطعت حجتكم ، وثبتت الحجة البالغة لله ، عليكم .

أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى ، فتقولون : [إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم] فحذونا حذوهم ، وتبعناهم فى باطلهم .

[أفتهلكنا بما فعل المبطلون] ، فقد أودع الله فى فطركم ، ما يدلكم على أن ما مع آبائكم ، باطل ، وأن الحق ما جاءت به الرسل ، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم ، ويعلو عليه .

نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه الضالين ، ومذاهبهم الفاسدة ، ما يظنه هو الحق ، وما ذاك إلا لإعراضه ، عن حجج الله وبيناته ، وآياته الأفقية ، والنفسية .

فإعراضه ذلك ، وإقباله على ما قاله المبطلون ، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق .

هذا هو الصواب فى تفسير هذه الآيات .

وقد قيل : إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم ، حين استخرجهم من ظهره ، وأشهدهم على أنفسهم ، فشهدوا بذلك .

فاحتج عليهم بما أمرهم به فى ذلك الوقت ، على ظلمهم ، فى كفرهم ، وعنادهم فى الدنيا والآخرة .

بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

ولكن ليس فى الآية ، ما يدل على هذا ، ولا له مناسبة ، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى .

والواقع شاهد بذلك .

فإن هذا العهد والميثاق ، الذى ذكروا ، أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره ، حين كانوا فى عالم كالذر ، لا يذكره أحد ، ولا يخطر ببال آدمى. فكيف يحتج الله عليهم بأمر ، ليس عندهم به خبر ، ولا له عين ولا أثر ؟!! .

ولهذا لما كان هذا أمراً واضحاً جلياً ، قال تعالى :

[وكذلك نفصل الآيات] أى : نبينها ونوضحها [ولعلهم يرجعون] إلى ما أودع الله فى فطرهم ، وإلى ما عاهدوا الله عليه ، فيرتدعوا عن القبائح .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ

---

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : [واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا] أى : علمناه كتاب الله ، فصار العالم الكبير ، والحبر النحرير .

[فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان] أى : انسلخ من الاتصاف الحقيقى ، بالعلم بآيات الله ، فإن العلم بذلك ، يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ويرقى إلى أعلى الدرجات ، وأرفع المقامات .

فترك هذا ، كتاب الله وراء ظهره ، ونبذ الأخلاق ، التى يأمر بها الكتاب ، وخلعها كما يخلع اللباس .

فلما انسلخ منها ، أتبعه الشيطان ، أى : تسلط عليه ، حين خرج من الحصن الحصين ، وصار إلى أسفل سافلين ، فأزه[١] إلى المعاصى أزاً .

[فكان من الغاوين] ، بعد أن كان من الراشدين المرشدين .

وهذا ، لأن الله تعالى خذله ، ووكله إلى نفسه ، فلهذا قال تعالى :

[ولو شئنا لرفعناه بها] بأن نوفقه للعمل بها ، فيرتفع فى الدنيا والآخرة ، فيتحصن من أعدائه .

[ولكنه] فعل ما يقتضى الخذلان ، إذ أخلد[٢] إلى الأرض] أى : إلى الشهوات السفلية ، والمقاصد الدنيوية .

[واتبع هواه] وترك طاعة مولاه .

---

(١) أزه . أى : أغراه بالمعاصى ، وهيجه ودفعه إليها .

(٢) أخلد . أى : ركن إلى الأرض ورضى بالدنيا ظاناً أنه يدوم ويخلد فيها .

إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ

[فمثله] فى شدة حرصه على الدنيا ، وانقطاع قلبه إليها .

[كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث][1] أى: لا يزال لاهثاً فى كل حال ، وهذا لا يزال حريصاً ، حرصاً قاطعاً قلبه ، لا يسد فاقته شىء من الدنيا .

[ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا] بعد أن ساقها الله إليهم ، فلم ينقادوا لها ، بل كذبوا بها ، وردوها ، لهوانهم على الله واتباعهم لأهوائهم ، بغير هدى من الله .

[فاقصص القصص لعلهم يتفكرون] فى ضرب الأمثال ، وفى العبر والآيات .

فإذا تفكروا ، علموا ، وإذا علموا ، عملوا .

* [ساء مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون] .

أى : ساء وقبح ، مثل من كذب بآيات الله ، وظلم نفسه ، بأنواع المعاصى ، فإن مثلهم ، مثل السوء .

وهذا الذى آتاه الله آياته ، يحتمل أن المراد شخص معين ، قد كان منه ، ما ذكره الله ، فقص الله قصة تبينها للعباد .

---

(١) يلهث . أى : يدفع لسانه ويخرجه بالنفس الشديد .

يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

ويحتمل أن المراد بذلك ، أنه اسم جنس ، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته ، فانسلخ منها .

وفى هذه الآيات ، الترغيب فى العمل بالعلم ، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه ، وعصمة من الشيطان .

والترهيب من عدم العمل به ، وأنه نزول إلى أسفل سافلين ، وتسليط الشيطان عليه .

وفيه أن اتباع الهوى ، وإخلاد العبد إلى الشهوات ، يكون سبباً للخذلان .

* ثم قال — مبيناً أنه المنفرد بالهداية والإضلال — :

[من يهد الله] بأن يوفقه للخيرات ، ويعصمه من المكروهات ، ويعلمه ما لم يكن يعلم .

[فهو المهتدى] حقاً لأنه آثر هدايته تعالى .

[ومن يضلل] فيخذله ولا يوفقه للخير [فأولئك هم الخاسرون] لأنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين .

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

---

* يقول تعالى - مبيناً كثرة الغاوين الضالين ، المتبعين إبليس اللعين - :

[ولقد ذرأنا] أى : أنشأنا وبثثنا [لجهنم كثيراً من الجن والإنس] صارت البهائم أحسن حالة منهم .

لهم قلوب لا يفقهون بها] أى : لا يصل إليها فقه ولا علم ، إلا مجرد قيام الحجة .

[ولهم أعين لا يبصرون بها] ما ينفعهم ، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.

[ولهم آذان لا يسمعون بها] سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم .

[أولئك] الذين بهذه الأوصاف القبيحة [كالأنعام] أى : البهائم ، التى فقدت العقول .

وهؤلاء آثروا ما يفنى ، على ما يبقى ، فسلبوا خاصية العقل .

[بل هم أضل] من البهائم ، فإن الأنعام ، مستعملة فيما خلقت له .

ولها أذهان ، تدرك بها ، مضرتها من منفعتها ، فلذلك كانت أحسن حالا منهم .

[وأولئك هم الغافلون] الذين غفلوا عن أنفع الأشياء .

غفلوا عن الإيمان بالله ، وطاعته ، وذكره .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار ، لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه ، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود .

فهؤلاء حقيقون ، بأن يكونوا ممن ذرأ [1] الله لجهنم وخلقهم لها .
فخلقهم للنار ، وبأعمال أهلها ، يعملون .

وأما من استعمل هذه الجوارح فى عبادة الله ، وانصبغ قلبه بالإيمان بالله ومحبته ، ولم يغفل عن الله ، فهؤلاء ، أهل الجنة ، وبأعمال أهل الجنة يعملون .

* هذا بيان ، لعظيم جلاله ، وسعة أوصافه ، بأن له الأسماء الحسنى ، أى : له كل اسم حسن .

وضابطه : أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة ، وبذلك كانت حسنى .

فإنها لو دلت على غير صفة ، بل كانت علماً محضاً ، لم تكن حسنى .

وكذلك لو دلت على صفة ، ليست بصفة كمال ، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح ، لم تكن حسنى .

فكل اسم من أسمائه، دال على جميع الصفة ، التى اشتق منها ، مستغرق لجميع معناها .

---

(١) ذرأ . أى : خلق .

. . . .

وذلك نحو « العليم » الدال على أن له علماً محيطا عاما لجميع الأشياء .

فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

و « الرحيم » الدال على أن له رحمة عظيمة ، واسعة لـكل شىء .

و« القدير » الدال على أن له قدرة عامة ، لايعجزها شىء ، ونحو ذلك.

ومن تمام كونها « حسنى » أنه لا يدعى إلا بها ، ولذلك قال : [فادعوه بها] [1] وهذا شامل لدعاء العبادة ، ودعاء المسألة .

فيدعى فى كل مطلوب ، بما يناسب ذلك المطلوب .

فيقول الداعى مثلا : اللهم اغفر لى وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم ، وتب عَلَيَّ ياتواب ، وارزقنى يارزاق ، والطف بى يالطيف ونحو ذلك .

وقوله [وذروا الذين يلحدون[1] فى أسمائه سيجرون ما كانوا يعملون]

---

(١) قوله [فادعوه بها] أى : ادعوا ربـكم بأسمائه ، على حسب حاجاتـكم ، فإن أردتم الرزق ، قولوا : اللهم باسمك الرزاق ارزقنا . وإذا أردتم النصر قولوا : باسمك النـاصر ، انصرنا ، وهكذا فإن لـكل اسم من أسماء الله الحسنى خاصية ، يدعى به الله ويسأل ، والمراد : التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى حسب تنوع الحاجات هذا هو الظاهر، والأوضح فى تفسير هذه الآية .

(٢) يلحدون . أى : يميلون وينحرفون عن الحق .

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

أى : عقوبة وعذابا على إلحادهم فى أسمائه .

وحقيقة الإلحاد ، الميل بها ، عما جعلت له .

إما بأن يسمى بها ، من لا يستحقها ، كتسمية المشركين بها لآلهتهم .

وإما بنفى معانيها وتحريفها ، وأن يجعل لها معنى ، ما أراده الله ولا رسوله .

وإما أن يشبه بها غيرها .

فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها ، ويحذر الملحدون فيها :

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « أن لله تسعة وتسعين اسما ، من أحصاها دخل الجنة » .

* وقوله : [وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون]

أى: ومن جملة من خلقنا ، أمة فاضلة ، كاملة فى نفسها ، مكملة لغيرها ، يهدون أنفسهم وغيرهم ، بالحق ، فيعلمون الحق ، ويعملون به ، ويعلمونه ، ويدعون إليه وإلى العمل به .

[وبه يعدلون] بين الناس فى أحكامهم ، إذا حكموا فى الأموال ، والدماء والحقوق ، والمقالات ، وغير ذلك .

وهؤلاء أئمة الهدى ، ومصابيح الدجا .

وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر .

وهم الصديقون الذين مرتبتهم ، تلى مرتبة الرسالة .

وهم فى أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله ، وعلو منزلته .

فسبحان من يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ

---

* أى : والذين كذبوا بآيات الله ، الدالة على صحة ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، من الهدى ، فردوها ولم يقبلوها .

[سنستدرجهم من حيث لا يعلمون] بأن الله يدر لهم الأرزاق

[وأملى لهم] أى: أمهلهم ، حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ، ولا يعاقبون ، فيزدادوا كفراً وطغياناً ، وشراً إلى شرهم .

وبذلك تزيد عقوبتهم ، ويتضاعف عذابهم ، فيضرون أنفسهم من حيث لا يعلمون ، ولهذا قال : [إن كيدى متين] أى : قوى بليغ .

* [أو لم يتفكروا ما بصاحبهم] صلى الله عليه وسلم [من جنة] أى : أو لم يعملوا أفكارهم ، وينظروا : هل فى صاحبهم ، الذى يعرفونه ، ولا يخفى عليهم من حاله شىء ، هل هو مجنون .

فلينظروا فى أخلاقه وهديه ، ودله وصفاته ، وينظروا فى ما دعا إليه .

فلا يجدون فيه من الصفات ، إلا أكملها ، ولا من الأخلاق إلا أتمها ، ولا من العقل والرأى ، إلا ما فاق به العالمين ، ولا يدعو إلا لكل خير ، ولا ينهى إلا عن كل شر .

أفبهذا ياأولى الألباب جنة ؟!! أم هو الإمام العظيم ، والناصح المبين ، والماجد الكريم ، والرءوف الرحيم ؟!! .

يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

ولهذا قال : [إن هو إلا نذير مبين] أى : يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب ، ويحصل لهم الثواب .

* [أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض] فإنهم إذا نظروا إليها ، وجدوها أدلة على توحيد ربها ، وعلى ماله من صفات الكمال .

[و] كذلك لينظروا إلى جميع [ما خلق الله من شىء] فإن جميع أجزاء العالم ، تدل أعظم دلالة ، على الله وقدرته ، وحكمته ، وسعة رحمته ، وإحسانه ، ونفوذ مشيئته ، وغير ذلك من صفاته العظيمة ، الدالة على تفرده بالخلق، والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، المسبح الموحد المحبوب.

وقوله [وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم] أى: لينظروا فى خصوص حالهم ، ولينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم ، ويفجأهم الموت ، وهم فى غفلة معرضون ، فلا يتمكنون حينئذ ، من استدراك الفارط .

[فبأى حديث بعده يؤمنون] أى : إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل ، فأى حديث يؤمنون به ؟ ! ! أبكتب الكذب والضلال ؟ أم بحديث كل مفتر دجال ؟ .

ولكن الضال لا حيلة فيه ، ولا سبيل إلى هدايته .

ولهذا قال تعالى [من يضلل الله فلا هادى له، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون] أى: يتحيرون ويترددون ، فلا يخرجون من طغيانهم ، ولا يهتدون إلى حق.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا

---

* يقول تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم: [يسألونك] أى: المكذبون لك، المتعنتون [عن الساعة أيان مرساها] أى : متى وقتها ، الذى تجىء به ، ومتى تحل بالخلق ؟ .

[قل إنما علمها عند ربى] أى : إنه تعالى المختص بعلمها .

[لا يجليها لوقتها إلا هو] أى : لا يظهرها لوقتها الذى قدر أن تقوم فيه ، إلا هو .

[ثقلت فى السموات والأرض] أى : خفى علمها على أهل السموات والأرض ، واشتد أمرها أيضا عليهم ، فهم من الساعة مشفقون .

[لا تأتيكم إلا بغتة] أى : فجأة من حيث لا يشعرون ، لم يستعدوا لها ، ولم يتهيأوا لها .

[يسألونك كأنك حفى[1] عنها] أى : هم حريصون على سؤالك عن الساعة ، كأنك مستحف[2] عن السؤال عنها ، ولم يعلموا أنك — لكمال علمك بربك ، وما ينفع السؤال عنه — غير مبال بالسؤال الخالى من المصلحة ، المتعذر علمه ، فإنه لا يعلمها نبى مرسل ، ولا ملك مقرب .

---

(١) حفى . أى : عالم بها ، ومستقص فى السؤال عنها .

(٢) قوله (مستحف) المراد : يسألونك هذا السؤال كأنك حريص على العلم بها ، ومستقص بالسؤال عنها ، كما يستفاد من المختار من الصحاح .

عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ

وهى من الأمور التى أخفاها عن الخلق ، لكمال حكمته ، وسعة علمه .

[قل إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون] .

فلذلك حرصوا ، على ما لا ينبغى الحرص عليه .

وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم ، ويدعون ما يجب عليهم ، من العلم ، ثم يذهبون إلى مالا سبيل لأحد أن يدركه ، ولا هم مطالبون بعلمه .

* [قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً] فإنى فقير مدبر ، لا يأتينى خير ، إلا من الله ، ولا يدفع عنى الشر ، إلا هو ، وليس لى من العلم إلاما علمنى الله تعالى .

[ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء] .

أى : لفعلت الأسباب التى أعلم أنها تنتج لى المصالح والمنافع ، ولحذرت من كل ما يفضى إلى سوء ومكروه ، لعلمى بالأشياء قبل كونها ، وعلمى بما تفضى إليه .

ولكنى — لعدم علمى — قد ينالنى ما ينالنى من السوء ، وقد يفوتنى ما يفوتنى ، من مصالح الدنيا ومنافعها .

فهذا أول دليل ، على أنى لا علم لى بالغيب .

لَأُسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

[إن أنا إلا نذير] أنذر بالعقوبات الدينية والدنيوية ، والأخروية ، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك ، وأحذر منها .

[وبشير] بالثواب العاجل ، ببيان الأعمال الموصلة إليه ، والترغيب فيها .

ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة ، وإنما ينتفع بذلك ، ويقبله ، المؤمنون .

وهذه الآيات الكريمات ، مبينة جهل من يقصد النبي صلى الله عليه وسلم ، ويدعوه لحصول نفع ، أو دفع ضر .

فإنه ليس بيده شيء من الأمر ، ولا ينفع من لم ينفعه الله ، ولا يدفع الضر ، عمن لم يدفعه الله عنه ، ولا له من العلم ، إلا ما علمه الله .

وإنما ينفع ، من قبل ما أرسل به ، من البشارة والنذارة ، وعمل بذلك .

فهذا نفعه عليه السلام ، الذى فاق نفع الآباء والأمهات ، والأخلاء والإخوان ، بما حث العباد على كل خير ، وحذرهم عن كل شر ، وفيه لهم ، غاية البيان والإيضاح .

* هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ

---

* أى : [هو الذى خلقكم] أيها الرجال والنساء ، المنتشرون فى الأرض على كثرتكم وتفرقكم .

[من نفس واحدة] وهو : آدم أبو البشر صلى الله عليه وسلم .

[وجعل منها زوجها] أى : خلق من آدم زوجته حواء [ليسكن إليها] لأنها إذا كانت منه ، حصل بينهما من المناسبة والموافقة ، مايقتضى سكون أحدهما إلى الآخر ، فانقاد كل منهما إلى صاحبه ، بزمام الشهوة .

[فلما تغشاها] أى تجللها مجامعاً لها قدر البارى أن يوجد من تلك الشهوة ، وذلك الجماع ، النسل ، وحينئذ [حملت حملا خفيفا] وذلك فى ابتداء الحمل ، لاتحس به الأنثى ، ولا يثقلها .

[فلما] استمرت و [أثقلت] به حين كبر فى بطنها ، فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد ، وعلى خروجه حيا ، صحيحا ، سالماً لا آفة فيه .

لذلك [دعوا الله ربهما لئن آتيتنا] ولداً [صالحاً] أى : صالح الخلقة تامها ، لانقص فيه [لنكونن من الشاكرين] .

[فلما آتاهما صالحا] على وفق ماطلبا ، وتمت عليهما النعمة فيه [جعلا له شركاء فيما آتاهما] أي : جعلا لله شركاء فى ذلك الولد ، الذى انفرد الله

ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ

بإيجاده ، والنعمة به ، وأقرَّ به أعين والديه ، فعبَّداه لغير الله .

إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ « عبد الحارث » و « عبد العزى » ، و « عبد الكعبة » ونحو ذلك .

أو يشركا فى الله فى العبادة ، بعد ما منَّ الله عليهما بما منَّ به ، من النعم التى لايحصيها أحد من العباد .

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس ، فإن أول الكلام ، فى آدم وحواء .

ثم انتقل الكلام فى الجنس .

ولا شك أن هذا موجود فى الذرية كثيراً ، فلذلك قررهم الله على بطلان الشرك ، وأنهم فى ذلك ، ظالمون ، أشد الظلم ، سواء كان الشرك فى الأقوال ، أم فى الأفعال .

فإن الله ، هو الخالق لهم ، من نفس واحدة ، الذى خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجا ، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ، مايسكن بعضهم إلى بعض ، ويألفه ، ويلتذ به .

ثم هداهم إلى مابه تحصل الشهوة واللذة ، والأولاد ، والنسل .

ثم أوجد الذرية فى بطون الأمهات ، وقتا موقوتاً ، تتشوف إليه نفوسهم ويدعون الله أن يخرجه سويا صحيحا ، فأتم الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم .

يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾

أفلا يستحق أن يعبدوه ، ولا يشركوا فى عبادته أحداً ، ويخلصوا له الدين .

ولكن الأمر جاء على العكس ، فأشركوا بالله [مالا يخلق شيئا وهم يخلقون . ولا يستطيعون لهم] أى : لعابديها [نصرا ولا أنفسهم ينصرون].

فإذا كانت لاتخلق شيئا ، ولا مثقال ذرة ، بل هى مخلوقة ، ولاتستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها ، ولا عن أنفسها فكيف تتخذ مع الله آلهة ؟!!

إن هذا إلا أظلم الظلم ، وأسفه السفه .

* [وإن تدعوهم] أى : وإن تدعوا ، أيها المشركون هذه الأصنام ، التى عبدتموها من دون الله [إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون].

فصار الإنسان أحسن حالة منها ، لأنها لاتسمع ، ولاتبصر ، ولاتهدِى ولا تُهدَى .

وكل هذا ، إذا تصوره اللبيب العاقل تصوراً مجرداً ، جزم ببطلان إلهيتها ، وسفاهة من عبدها .

۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ

---

* وهذا من نوع التحدى للمشركين العابدين للأوثان .

يقول تعالى [إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم] أى : لافرق بينكم وبينهم ، فكلكم عبيد لله مملوكون .

فإن كنتم كما تزعمون صادقين ، فى أنها تستحق من العبادة شيئا [فادعوهم فليستجيبوا لكم] فإن استجابوا لكم ، وحصلوا مطلوبكم وإلا تبين ، أنكم كاذبون فى هذه الدعوى ، مفترون على الله أعظم الفرية .

وهذا لايحتاج إلى تبيين فيه ، فإنكم إذا نظرتم إليها وجدتم صورتها ، دالة على أنه ليس لديها من النفع شىء .

فليس لها أرجل تمشى بها ، ولا أيد تبطش بها ، ولا أعين تبصر بها ، ولا آذان تسمع بها ، فهى عادمة لجميع الآلات والقوى ، الموجودة فى الإنسان .

فإذا كانت لاتجيبكم إذا دعوتموها ، فهى عباد أمثالكم ، بل أنتم أكمل منها ، وأقوى على كثير من الأشياء ، فلأى شىء عبدتموها .

[قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون] أى : اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ، على إيقاع السوء والمكروه بى ، من غير إمهال ولا إنظار .

فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾

فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بى .

[إن وليي الله] الذى يتولانى ، فيجلب لى المنافع ويدفع عنى المضار .

[الذى نزل الكتاب] الذى فيه الهدى ، والشفاء ، والنور .

وهو من توليه وتربيته لعباده الخاصة الدينية .

[وهو يتولى الصالحين] الذين صلحت نياتهم وأعمالهم ، وأقوالهم ، كما قال تعالى « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » .

فالمؤمنون الصالحون — لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى ، ولم يتولوا غيره ، ممن لا ينفع ، ولا يضر — تولاهم الله ، ولطف بهم ، وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة ، فى دينهم ، ودنياهم ، ودفع عنهم — بإيمانهم — كل مكروه ، كما قال تعالى « إن الله يدافع عن الذين آمنوا » .

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

---

* وهذا أيضاً فى بيان عدم استحقاق هذه الأصنام ، التى يعبدونها ، من دون الله ، شيئاً من العبادة ، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار ، فى نصر أنفسها ، ولا فى نصر عابديها ، وليس لها قوة العقل والاستجابة .

فلو دعوتها إلى الهدى ، لم تهتد ، وهى صور لاحياة فيها .

فتراهم ينظرون إليك ، وهم لايبصرون حقيقة ، لأنهم صوروها على صور الحيوانات ، من الآدميين أو غيرهم ، وجعلوا لها أبصاراً ، وأعضاء .

فإذا رأيتها ، قلت : هذه حية ، فإذا تأملتها ، عرفت أنها جمادات ، لاحراك بها ، ولا حياة .

فبأى رأيٍ اتخذها المشركون آلهة مع الله ؟

ولأى مصلحة ، أو نفع ، عكفوا عندها ، وتقربوا لها ، بأنواع العبادات ؟

فإذا عرف هذا ، عرف أن المشركين وآلهتهم التى عبدوها ، لواجتمعوا ، وأرادوا أن يكيدوا ، من تولاه فاطر السموات والأرض ، متولى أحوال عباده الصالحين ، لم يقدروا على كيده ، بمثقال ذرة من الشر ، لكمال عجزهم وعجزها ، وكمال قوة الله واقتداره ، وقوة من احتمى بجلاله ، وتوكل عليه .

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

وقيل : إن معنى قوله [وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون] أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين لرسول الله صلى عليه وسلم .

فتحسبهم ينظرون إليك يارسول الله ، نظر اعتبار ، يتبين به الصادق من الكاذب .

ولكنهم لا يبصرون حقيقتك ، وما يتوسمه المتوسمون فيك ، من الجمال والكمال ، والصدق .

* هذه الآية جامعة ، لحسن الخلق مع الناس ، وماينبغى فى معاملتهم .

فالذى ينبغى أن يعامل به الناس ، أن يأخذ العفو ، أى : ما سمحت به أنفسهم ، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق .

فلا يكلفهم ، مالا تسمح به طبائعهم ، بل يشكر من كل أحد ، ما قابله به، من قول ، وفعل ، جميل ، أو ما هو دون ذلك ، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم .

ولا يتكبر على الصغير لصغره ، ولا ناقص العقل لنقصه ، ولا الفقير لفقره .

بل يعامل الجميع ، باللطف ، والمقابلة بما تقضيه الحال ، وتنشرح له صدورهم .

[وأمر بالعرف] أى : بكل قول حسن ، وفعل جميل ، وخلق كامل للقريب والبعيد .

۞ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ

فاجعل ما يأتى إلى الناس منك ، إما تعليم علم ، أو حثا على خير ، من صلة رحم ، أو برّ والدين ، أو إصلاح بين الناس ، أو نصيحة نافعة ، أو رأى مصيب ، أومعاونة على بر وتقوى ، أو زجرعن قبيح ، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية ، أو دنيوية .

ولما كان لابد من أذية الجاهل ، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل ، بالإعراض عنه ، وعدم مقابلته بجهله .

فمن آذاك ، بقوله ، أو فعله ، لاتؤذه ، ومن حرمك ، لا تحرمه ، ومن قطعك ، فصِلْهُ ، ومن ظلمك فاعدل فيه .

وأما ما ينبغى أن يعامل به العبد شياطين الجن ، فقال تعالى : [وإما ينزعنك] إلى [ثم لايقصرون] .

* أى : أى وقت ، وفى أى حال [ينزغنك من الشيطان نزغ] أى: تحس منه بوسوسة ، وتثبيط عن الخير، أوحث على الشر، وإيعاز به .

[فاستعذ بالله] أى : التجىء واعتصم بالله ، واحتم بحماه [إنه سميع] لما تقول .

[عليم] بنيتك وضعفك ، وقوة التجائك له ، فسيحميك من فتنته ، ويقيك من وسوسته ، كما قال تعالى : « قل أعوذ برب الناس » إلى آخر السورة .

ولما كان العبد ، لابد أن يغفل وينال منه الشيطان ، الذى لايزال مرابطا ، ينتظر غرته وغفلته ، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين ، وأن المتقى ــ إذا أحس بذنب ، ومسه طائف من الشيطان ، فأذنب بفعل محرم

ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ

أو ترك واجب - تذكر من أى باب أُتِىَ، ومن أى مدخل دخل الشيطان عليه ، وتذكر ما أوجب الله عليه ، وما عليه من لوازم الإيمان ، فأبصر واستغفر الله تعالى ، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح ، والحسنات الكثيرة .

فرد شيطانه خاسئاً حسيراً ، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه .

وأما إخوان الشياطين ، وأولياؤهم ، فإنهم إذا وقعوا فى الذنوب ، لا يزالون يمدونهم فى الغى ، ذنبا بعد ذنب ، ولا يقصرون عن ذلك .

فالشياطين لاتقصر عنهم بالإغواء ، لأنها طمعت فيهم ، حين رأتهم سلسى القياد لها ، وهم لايقصرون عن فعل الشر .

* أى لايزال هؤلاء المكذبون لك فى تعنت وعناد ، ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد .

فإذا جئتهم بشىء من الآيات الدالة على صدقك ، لم ينقادوا .

[وإذا لم تأتهم بآية] من آيات الاقتراح ، التى يعينونها [قالوا لولا اجتبيتها] أى : هلا اخترت الآية ، فصارت الآية الفلانية، والمعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات ، المدبر لجميع المخلوقات ، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شىء .

أو لو لا اخترعتها من نفسك .

أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

[قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى] ، فأنا عبد متبع ، مدبر .

والله تعالى هو الذى ينزل الآيات ويرسلها ، على حسب ما اقتضاه حمده ، وطلبته حكمته البالغة .

فإن أردتم آية ، لا تضمحل على تعاقب الأوقات ، وحجة ، لاتبطل فى جميع الآنات .

فإن [هذا] القرآن العظيم ، والذكر الحكيم [بصائر من ربكم] يستبصر به فى جميع المطالب الإلهية ، والمقاصد الإنسانية ، وهو الدليل والمدلول [فمن تفكر وتدبره ، علم أنه تنزيل من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

وبه قامت الحجة ، على كل من بلغه ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

وإلا فمن آمن ، فهو [هدى] له من الضلال [ورحمة] له من الشقاء .

فالمؤمن ، مهتد بالقرآن ، متبع له ، سعيد فى دنياه وأخراه .

وأما من لم يؤمن به ، فإنه ضال شقى ، فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

---

* هذا الأمر عام فى كل من سمع كتاب الله يتلى ، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات .

والفرق بين الاستماع والإنصات ، أن الإنصات فى الظاهر ، بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه .

وأما الاستماع له ، فهو أن يلقى سمعه ، ويحضر قلبه ، ويتدبر ما يستمع .

فإن من لازم على هذين الأمرين ، حين يتلى كتاب الله ، فإنه ينال خيرا كثيرا ، وعلما غزيراً ، وإيماناً مستمراً متجدداً ، وهدى متزايداً ، وبصيرة فى دينه .

ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما .

فدل ذلك ، على أن من تلى عليه الكتاب ، فلم يستمع له ولم ينصت ، أنه محروم الحظ ، من الرحمة ، قد فاته خير كثير .

ومن أوكد ما يؤمر مستمع القرآن ، أنه يستمع له وينصت ، فى الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه ، فإنه مأمور بالإنصات .

حتى إن أكثر العلماء يقولون : إن اشتغاله بالإنصات ، أولى من قراءته الفاتحة ، وغيرها .

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾

* الذكر لله تعالى ، يكون بالقلب ، ويكون باللسان ، ويكون بهما ، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله .

فأمر الله ، عبده ورسوله ، محمداً أصلا ، وغيره تبعا ـ بذكر ربه فى نفسه أى : مخلصاً خالياً .

[تضرعا[1]] بلسانك ، مكررا لأنواع الذكر .

[وخيفة] فى قلبك بأن تكون خائفاً من الله ، وَجِلَ القلب منه ، خوفا أن يكون عملك غير مقبول .

وعلامة الخوف ، أن يسعى ويجتهد ، فى تكميل العمل وإصلاحه ، والنصح به .

[ودون الجهر من القول] أى : كن متوسطا ، لاتجهر بصلاتك ، ولا تخافت بها ، وابتغ بين ذلك سبيلا .

[بالغدو] أول النهار [والآصال] آخره

وهذان الوقتان ، فيهما مزية وفضيلة على غيرهما .

[ولا تكن من الغافلين] الذين نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم .

فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة .

وأعرضوا عمن كل السعادة والفوز ، فى ذكره وعبوديته .

(١) تضرعا . أى : مظهرا شدة الاضطرار والذلة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

وأقبلوا على من كل الشقاوة والخيبة ، فى الاشتغال به .

وهذه من الآداب ، التى ينبغى للعبد أن يراعيها حق رعايتها .

وهى : الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار ، خصوصاً ، طرفى النهار، مخلصا خاشعا، متضرعا ، متذللا ، ساكنا ، متواطئا عليه قلبه ولسانه بأدب ووقار ، وإقبال على الدعاء والذكر ، وإحضار له بقلبه ، وعدم غفلة ، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه .

ثم ذكر تعالى أن له عباداً . مستديمين لعبادته ، ملازمين لخدمته وهم الملائكة ، لتعلموا أن الله ، لايريد أن يتكثر بعبادتكم من قلة ، ولا ليتعزز بها من ذلة .

وإنما يريد نفع أنفسكم ، وأن تربحوا عليه ، أضعاف أضعاف ، ما عملتم ، فقال :

[إن الذين عند ربك] من الملائكة المقربين ، وحملة العرش والكروبيين .

[لايستكبرون عن عبادته] بل يذعنون لها ، وينقادون لأوامر ربهم [ويسبحونه] الليل والنهار ، لايفترون .

[وله] وحده لاشريك له [يسجدون] ، فليقتد العباد ، بهؤلاء الملائكة الكرام .

وليداوموا على عبادة الملك العلام

تم تفسير سورة الأعراف

ولله الحمد والشكر والثناء . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير

سُورَةُ الأَنفَال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن

الأنفال، هى: الغنائم، التى ينفلها الله لهذه الأمة، من أموال الكفار.

وكانت هذه الآيات فى هذه السورة، قد نزلت فى قصة «بدر» أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين.

فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع.

فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها، فأنزل الله [يسألونك عن الأنفال] كيف تقسم وعلى من تقسم؟

[قل] لهم [الأنفال لله والرسول] يضعانها حيث شاءا، فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله.

بل عليكم إذا حكم الله ورسوله، أن ترضوا بحكمهما، وتسلموا الأمر لهما.

وذلك داخل فى قوله [فاتقوا الله] بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

[وأصلحوا ذات بينكم] أى: أصلحوا ما بينكم من التشاحن، والتقاطع، والتدابر، بالتوادد، والتحاب، والتواصل.

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

فبذلك تجتمع كلمتكم ، ويزول ما يحصل — بسبب التقاطع — من التخاصم ، والتشاجر والتنازع .

ويدخل فى إصلاح ذات البين ، تحسين الخلق لهم ، والعفو عن المسيئين منهم فإنه — بذلك — يزول كثير مما يكون فى القلوب من البغضاء ، والتدابر .

والأمر الجامع لذلك كله قوله[وأطيعوا اللهورسوله إن كنتممؤمنين].

فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله .

كما أن من لم يطع الله ورسوله ، فليس بمؤمن .

ومن نقصت طاعته لله ورسوله ، فذلك لنقص إيمانه .

ولما كان الإيمان قسمين ، إيماناً كاملا يترتب عليه المدح والثناء ، والفوز التام ، وإيماناً ، دون ذلك — ذكر الإيمان الكامل فقال :

[إنما المؤمنون] الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان .

[الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم] أى : خافت ورهبت ، فأوجبت لهم ، خشية الله تعالى ، الانكفاف عن المحارم ، فإن خوف الله تعالى ، أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب .

[وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً] .

ووجه ذلك ، أنهم يلقون له السمع ، ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك ، يزيد إيمانهم .

يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

لأن التدبر من أعمال القلوب ، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى ، كانوا يجهلونه ، ويتذكرون ما كانوا نسوه .

أو يحدث فى قلوبهم رغبة فى الخير ، واشتياقاً إلى كرامة ربهم .

أو وجلا من العقوبات ، وازدجاراً عن المعاصى ، وكل هذا مما يزداد به الإيمان .

[وعلى ربهم] وحده ، لا شريك له [يتوكلون] أى : يعتمدون فى قلوبهم على ربهم ، فى جلب مصالحهم ، ودفع مضارهم الدينية، والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى ، سيفعل ذلك .

والتوكل ، هو ، الحامل للأعمال كلها ، فلا توجد ولا تكمل ،إلا به .

[الذين يقيمون الصلاة] من فرائض ، ونوافل ، بأعمالها الظاهرة والباطنة ، كحضور القلب فيها ، الذى هو روح الصلاة ولبها .

[ومما رزقناهم ينفقون] النفقات الواجبة ، كالزكوات ، والكفارات ، والنفقة على الزوجات والأقارب ، وما ملكت أيمانهم .

والمستحبة كالصدقة فى جميع طرق الخير .

[أولئك] الذين اتصفوا بتلك الصفات [هم المؤمنون حقاً] لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان ، بين الأعمال الباطنة ، والأعمال الظاهرة ، بين العلم والعمل ، بين أداء حقوق الله ، وحقوق عباده .

وقدم تعالى أعمال القلوب ، لأنها أصل لأعمال الجوارح ، وأفضل منها .

وفيها دليل على أن الإيمان ، يزيد وينقص ، فيزيد بفعل الطاعة ، وينقص بضدها .

أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِنـدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا

وأنه ينبغى للعبد ، أن يتعاهد إيمانه وينميه .

وأن أولى ما يحصل به ذلك ، تدبر كتاب الله تعالى ، والتأمل لمعانيه.

ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال :

[لهم درجات عند ربهم] أى : عالية بحسب علو أعمالهم .

[ومغفرة] لذنوبهم [ورزق كريم] وهو ما أعد الله لهم فى دار كرامته، مما لا عين رأت : ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ودل هذا ، على أن من يصل إلى درجتهم فى الإيمان — وإن دخل الجنة — فلن ينال ما نالوا ، من كرامة الله التامة .

* قدم تعالى — أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة — الصفات التى على المؤمنين أن يقوموا بها ، لأن من قام بها ، استقامت أحواله ، وصلحت أعماله ، التى من أكبرها ، الجهاد فى سبيله .

فكما أن إيمانهم ، هو الإيمان الحقيق ، وجزاءهم هو الحق الذى وعدهم الله به .

كذلك أخرج الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، من بيته إلى لقاء المشركين فى « بدر » بالحق الذى يحبه الله تعالى ، وقد قدره وقضاه .

وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم فى ذلك الخروج ، أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال .

مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ

لحين تبين لهم أن ذلك واقع ، جعل فريق من المؤمنين ، يجادلون النبى صلى الله عليه وسلم ، فى ذلك ، ويكرهون لقاء عدوهم ، كأنما يساقون إلى الموت ، وهم ينظرون .

والحال أن هذا ، لاينبغى منهم ، خصوصا بعد ما تبين لهم أن خروجهم بالحق ، ومما أمر الله به ، ورضيه .

فهذه الحال ، ليس للجدال فيها محل ، لأن الجدال ، محله وفائدته ، عند اشتباه الحق ، والتباس الأمر .

فأما إذا وضح وبان ، فليس إلا الانقياد والإذعان .

هذا ، وكثير من المؤمنين ، لم يجر منهم من هذه المجادلة شىء ، ولا كرهوا لقاء عدوهم .

وكذلك الذين عاتبهم الله ، انقادوا للجهاد أشد الانقياد ، وثبتهم الله، وقيض لهم من الأسباب ، ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتى ذكر بعضها .

وكان أصل خروجهم ليتعرضوا[1] لعير ، خرجت مع أبى سفيان بن حرب لقريش إلى الشام ، قافلة كبيرة .

فلما سمعوا برجوعها من الشام ، ندب النبى صلى الله عليه وسلم ، الناس .

---

(١) فى الأصل المطبوع « يتعرضون » والمقام يقتضى التعليل فلذلك أصلحنا الكلمة بـ « ليتعرضوا » .

إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

نخرج معه ، ثلثمائة ، وبضعة عشر رجلا ، معهم سبعون بعيراً ، يعتقبون عليها ، ويحملون عليها متاعهم .

فسمع بخبرهم قريش ، نخرجوا لمنع عيرهم ، فى عدد كثير وعُدَدٍ وافرة ، من السلاح ، والخيل ، والرجال ، يبلغ عددهم قريباً من الألف .

فوعد الله المؤمنين ، إحدى الطائفتين ، إما أن يظفروا بالعير ، أو بالنفير.

فأحبوا العير لقلة ذات يد المسلمين ، ولأنها غير ذات الشوكة .

ولكن الله تعالى ، أحب لهم ، وأراد أمراً ، أعلى مما أحبوا .

أراد أن يظفروا بالنفير ، الذى خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم.

[ويريد الله أن يحق الحق بكلماته] فينصر أهله [ويقطع دابر الكافرين].

أى يستأصل أهل الباطل ، ويُرِىَ عباده من نصرة للحق أمراً لم يكن يخطر ببالهم .

[ليحق الحق] بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه .

[ويبطل الباطل] بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه [ولو كره المجرمون] فلا يبالى الله بهم .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ

---

* أى: اذكروا نعمة الله عليكم، لما قارب التقاؤكم بعدوكم، استغثتم بربكم، وطلبتم منه أن يعينكم وينصركم [فاستجاب لكم] وأغاثكم بعدة أمور.

منها أن الله أمدكم [بألف من الملائكة مردفين] أى: يردف بعضهم بعضاً.

[وما جعله الله] أى إنزال الملائكة [إلا بشرى] أى: لتستبشر بذلك نفوسكم.

[ولتطمئن به قلوبكم] وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد، ولا عُدَدٍ.

[إن الله عزيز] لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذى يخذل من بلغوا من الكثرة، ومن العدد والآلات، ما بلغوا.

[حكيم] حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها.

ومن نصره واستجابته لدعائكم، أن أنزل عليكم نعاساً [يغشيكم] أى: فيذهب ما فى قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون [أمنة] لكم، وعلامة على النصر والطمأنينة.

ومن ذلك أنه أنزل عليكم من السماء مطراً، ليطهركم به من الحدث والخبث، وليطهركم من وساوس الشيطان، ورجزه.

ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ

[وليربط على قلوبكم] أى : يثبتها فإن ثبات القلب ، أصل ثبات البدن .

[ويثبت به الإقدام] فإن الأرض كانت سهلة دهسة[1] فلما نزل عليها المطر ، تلبدت ، وثبتت به الأقدام .

ومن ذلك أن الله أوحى إلى الملائكة [أنى معكم] بالعون والنصر والتأييد .

[فثبتوا الذين آمنوا] أى : ألقوا فى قلوبهم ، وألهموهم الجراءة على عدوهم ، ورغبوهم فى الجهاد وفضله .

[سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب] الذى هو أعظم جندلكم عليهم.

فإن الله إذا ثبت المؤمنين ، وألقى الرعب فى قلوب الكافرين ، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم ، ومنحهم الله أكتافهم .

[فاضربوا فوق الأعناق] أى : على الرقاب [واضربوا منهم كل بنان]. أى : مفصل .

---

(١) دهسة أى : ما سهل ولان من الأرض ولم يبلغ أن يكون رملا ، اهـ ، نهاية لابن الأثير .

بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

وهذا خطاب ، إما للملائكة الذين أوحى إليهم أن يثبتوا الذين آمنوا، فيكون فى ذلك دليل ، أنهم باشروا القتال يوم بدر .

أو للمؤمنين يشجعهم الله ، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين ، وأنهم لا يرحمونهم .

[ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله] أى : حاربوهما ،وبارزوهما بالعداوة .

[ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب] ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه ، وتقتيلهم .

[ذلكم] العذاب المذكور [فذوقوه] أيها المشاقون لله ورسوله عذاباً معجلا .

[وأن للكافرين عذاب النار] .

وفى هذه القصة من آيات الله العظيمة ، ما يدل على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، رسول الله حقاً .

منها : أن الله وعدهم وعداً ، فأنجزهموه .

ومنها : ما قال الله تعالى « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين » الآية .

ومنها : إجابة دعوة الله للمؤمنين ، لما استغاثوه ، بما ذكره من الأسباب .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا

وفيها الاعتناء العظيم ، بحال عباده المؤمنين ، وتقييض الأسباب ، التى بها ثبت إيمانهم ، ثبتت أقدامهم ، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية .

ومنها : أن من لطف الله بعبده ، أن يسهل عليه طاعته ، وييسرها بأسباب داخلية وخارجية .

* أمر الله تعالى عباده المؤمنين ، بالشجاعة الإيمانية ، والقوة فى أمره ، والسعى فى جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان .

ونهاهم عن الفرار ، إذا التقى الزحفان فقال: [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً] أى : صف القتال ، وتزاحف الرجال ،واقتراب بعضهم من بعض .

[فلا تولوهم الأدبار] ، بل اثبتوا لقتالهم ، واصبروا على جلادهم.، فإن فى ذلك ، نصرة لدين الله ، وقوة لقلوب المؤمنين ، وإرهابا للكافرين .

[ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء] أى : رجع [بغضب من الله ومأواه] أى مقره [جهنم وبئس المصير] .

وهذا يدل على أن الفرار من الزحف ، من غير عذر ، من أكبر الكبائر ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد .

ومفهوم الآية : أن المتحرف للقتال ، وهو الذى ينحرف من جهة

لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَاٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

إلى أخرى ، ليكون أمكن له فى القتال ، وأنكى لعدوه ، فإنه لا بأس بذلك ، لأنه لم يول دبره فاراً ، وإنما ولى دبره ، ليستعلى على عدوه ، أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته ، أو ليخدعه بذلك ، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين ، وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار ، فإن ذلك جائز .

فإن كانت الفئة فى العسكر ، فالأمر فى هذا واضح .

وإن كانت الفئة فى غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدى الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين ، فقد ورد من آثار الصحابة مايدل على أن هذا جائز .

ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون ، أن الانهزام أحمد عاقبة ، وأبقى عليهم .

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار فى ثباتهم لقتالهم ، فيبعد - فى هذه الحال - أن تكون من الأحوال المرخص فيها ، لأنه - على هذا - لا يتصور الفرار المنهى عنه .

وهذه الآية مطلقة ، وسيأتى فى آخر السورة تقييدها بالعدد .

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

---

* يقول تعالى — لما انهزم المشركون يوم بدر ، وقتلهم المسلمون .

[فلم تقتلوهم] بحولكم وقوتكم [ولكن الله قتلهم] حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره .

[وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى] .

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقت القتال ، دخل العريش ، وجعل يدعو الله ، ويناشده فى نصرته .

ثم خرج منه ، فأخذ حفنة من تراب ، فرماها فى وجوه المشركين ، فأوصلها الله إلى وجوههم .

فما بقى منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه ، وفمه ، وعينيه منها .

فحينئذ انكسر حدهم ، وفتر زندهم ، وبان فيهم الفشل والضعف ، فانهزموا .

يقول تعالى لنبيه : لست بقوتك — حين رميت التراب — أوصلته إلى أعينهم ، وإنما أوصلناه إليهم ، بقوتنا واقتدارنا .

[وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً] أى : إن الله تعالى ، قادرعلى انتصار المؤمنين من الكافرين ، من دون مباشرة قتال .

ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين ، ويوصلهم بالجهاد ، إلى أعلى الدرجات ، وأرفع المقامات ، ويعطيهم أجراً حسنا ، وثواباً جزيلا .

إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

[إن الله سميع عليم] يسمع تعالى ، ما أسر به العبد ، وما أعلن ، ويعلم ما فى قلبه ، من النيات الصالحة وضدها .

فيقدر على العباد أقداراً ، موافقة لعلمه وحكمته ، ومصلحة عباده ، ويجزى كلا بحسب نيته وعمله .

[ذلكم] النصر ، من الله لكم [وأن الله موهن كيد الكافرين] أى : مضعف كل مكر وكيد ، يكيدون به الإسلام وأهله ، وجاعل مكرهم محيقا[1] بهم .

* [إن تستفتحوا] أيها المشركون ، أى : تطلبون من الله أن يوقع بأسه وعذابه . على المعتدين الظالمين .

[فقد جاءكم الفتح] حين أوقع الله بكم من عقابه ، ما كان نكالا[2] لكم ، وعبرة للمتقين [وإن تنتهوا] عن الاستفتاح [فهو خير لكم] لأنه ربما أمهلكم ، ولم يعجل لكم النقمة .

---

(١) محيقاً ، أى : محيطاً بهم ، وفعله « أحاق » مثل « حاق » أى : أحاط به ، كما يستفاد من القاموس .

(٢) نكالا . أى : عقوبة لكم ، تكون عبرة لغيركم ، تمنعهم عن مثل ما استحققتم به العقاب من سوء الأعمال .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

[ولن تغنى عنكم فئتكم] أى : أعوانكم وأنصاركم ، الذين تحاربون وتقاتلون ، معتمدين عليهم [شيئا ، وإن كثرت وأن الله مع المؤمنين] ومن كان الله معه فهو المنصور وإن كان ضعيفا قليلا عدده .

وهذه المعية التى أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين ، تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان .

فإذا أديل العدو على المؤمنين فى بعض الأوقات ، فليس ذلك إلا تفريطا من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه ، وإلا فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه . لما انهزمت لهم راية انهزاما مستقرا ولا أديل عليهم عدوهم أبداً .

* لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين ، أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون معيته فقال : [يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله] بامتثال أمرهما واجتناب نهيهما .

[ولا تولوا عنه] أى: عن هذا الأمر الذى هو طاعة الله، وطاعة رسوله.

[وأنتم تسمعون] ما يتلى عليكم من كتاب الله ، وأوامره ، ووصاياه ، ونصائحه .

فتوليكم ، فى هذه الحال ، من أقبح الأحوال .

[ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون] أى: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية ، التى لا حقيقة لها ، فإنها حالة ، لا يرضاها الله ولا رسوله .

﴿ إِن شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

فليس الإيمان بالتمني والتحلي ، ولـكنه ما وقر فى القلوب ، وصدقته الأعمال .

* يقول تعالى : [إن شر الدواب عند الله] من لم تفد فيهم الآيات والنذر .

وهم [الصم] عن استماع الحق [البكم] عن النطق به .

[الذين لا يعقلون] ماينفعهم ، ويؤثرونه على مايضرهم .

فهؤلاء ، شر عند الله ، من شرار الدواب ، لأن الله أعطاهم ، أسماعا وأبصاراً ، وأفئدة ، ليستعملوها فى طاعة الله ، فاستعملوها فى معاصيه ، وعدموا — بذلك — الخير الـكثير .

فإنهم كانوا ، بصدد أن يكونوا من خيار البرية ، فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم ، أن يكونوا من شر البرية .

والسمع الذين نفاه الله عنهم ، سمع المعنى المؤثر فى القلب .

وأما سمع الحجة ، فقد قامت حجة الله تعالى عليهم ، بما سمعوه من آياته .

وإنما لم يسمعهم السماع النافع ، لأنه لم يعلم فيهم خيراً يصلحون به لسماع آياته .

[ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم] على الفرض والتقدير

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ

[لتولو] عن الطاعة [وهم معرضون] لا التفات لهم إلى الحق ، بوجه من الوجوه .

وهذا دليل على أن الله تعالى ، لا يمنع الإيمان والخير ، إلا عمن لا خير فيه ، والذى لا يزكو لديه ، ولا يثمر عنده . وله الحمد تعالى والحكمة ، فى هذا .

* يأمر تعالى ، عباده المؤمنين ، بما يقتضيه الإيمان منهم ، وهو : الاستجابة لله وللرسول ، أى : الانقياد لما أمر به ، والمبادرة إلى ذلك ، والدعوة إليه ، والاجتناب لما نهيا عنه ، والانكفاف عنه ، والنهى عنه.

وقوله [إذا دعاكم لما يحييكم] وصف ملازم ، لكل ما دعا الله ورسوله إليه ، وبيان لفائدته وحكمته ، فإن حياة القلب والروح ، بعبودية الله تعالى ، ولزوم طاعته ، وطاعة رسوله ، على الدوام .

ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال :

[واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه] فإياكم أن تردوا أمر الله ، أول ما يأتيكم ، فيحال بينكم وبينه ، إذا أردتموه بعد ذلك ، وتختلف قلوبكم فإن الله يحول بين المرء وقلبه ، يقلب القلوب حيث شاء ، ويصرفها ، أنى شاء .

فليكثر العبد من قول « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » يا مصرف القلوب ، اصرف قلبى إلى طاعتك .

إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

[وأنه إليه تحشرون] أى : تجمعون ليوم لاريب فيه ، فيجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بعصيانه .

[واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة] بل تصيب فاعل الظلم وغيره .

وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير ، فإن عقوبته ، تعم الفاعل وغيره .

وتُتَّقَى هذه الفتنة ، بالنهى عن المنكرَ وقمع أهل الشر والفساد ، وأن لايمكنوا من المعاصى والظلم ، مهما أمكن .

[واعلموا أن الله شديد العقاب] لمن تعرض لمساخطه ، وجانب رضاه .

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

---

* يقول تعالى — ممتنا على عباده ، فى نصرهم بعد الذلة ، وتكثيرهم بعد القلة ، وإغنائهم بعد العيلة[1].

[واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض] أى : مقهورون تحت حكم غيركم [تخافون أن يتخطفكم الناس] أى : يأخذوكم .

[فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات] فجعل لكم بلداً تأوون إليه ، وانتصر من أعدائكم على أيديكم ، وغنمتم من أموالهم ، ما كنتم به أغنياء .

[لعلكم تشكرون] الله على منته العظيمة ، وإحسانه التام ، بأن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً .

---

(١) العيلة . أى : الفقر .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

---

* يأمر تعالى، عباده المؤمنين، أن يؤدوا ما ائتمنهم الله عليه، من أوامره، ونواهيه.

فإن الأمانة قد عرضها الله على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا.

فمن أدى الأمانة، استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها، استحق العقاب الوبيل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته، منقصاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات، وهى الخيانة، مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها، وهى: الأمانة.

ولما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده، فربما حملته محبته ذلك، على تقديم هوى نفسه، على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد، فتنة يبتلى الله بهما عباده، وأنهما عارية، ستؤدى لمن أعطاها، وترد لمن استودعها [وأن الله عنده أجر عظيم].

فإن كان لكم عقل ورأى، فآثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة.

فالعاقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

---

* امتثال العبد لتقوى ربه ، عنوان السعادة ، وعلامة الفلاح .

وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة ، شيئاً كثيراً .

فذكر هنا ، أن من اتقى الله ، حصل له أربعة أشياء ، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها :

الأول : الفرقان ، وهو : العلم والهدى ، الذى يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والحلال والحرام ، وأهل السعادة من أهل الشقاوة .

الثانى والثالث ، تكفير السيئات ، ومغفرة الذنوب .

وكل واحد منها داخل فى الآخر ، عند الإطلاق ، وعند الاجتماع .

يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر ، ومغفرة الذنوب ، بتكفير الكبائر .

الرابع : الأجر العظيم ، والثواب الجزيل ، لمن اتقاه ، وآثر رضاه على هوى نفسه .

[والله ذو الفضل العظيم] .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

* أى [و] أذكر ، أيها الرسول ، ما منّ الله به عليك .

[إذ يمكر بك الذين كفروا] حين تشاور المشركون فى دار الندوة ، فيما يصنعون بالنبي صلى الله عليه وسلم ، إما أن يثبتوه عندهم بالحبس ، ويوثقوه .

وإما أن يقتلوه فيستريحوا — بزعمهم — من دعوته .

وإما أن يخرجوه ويجلوه من ديارهم .

فكلٌّ أبدى من هذه الآراء رأياً رآه .

فاتفق رأيهم ، على رأى رآه شريرهم ، أبو جهل ، لعنه الله .

وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش ، فتى ، ويعطوه سيفاً صارما ، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد ، ليتفرق دمه فى القبائل .

فيرضى بنو هاشم ثَمَّ بديته ، فلا يقدرون على مقاومة جميع قريش .

فترصدوا للنبى صلى الله عليه وسلم ، فى الليل ، ليوقعوا به ، إذا قام من فراشه .

فجاء الوحى من السماء ، وخرج عليهم ، فذرَّ على رءوسهم التراب وخرج ، وأعمى الله أبصارهم عنه .

حتى إذا استبطأوه ، جاءهم آت وقال : خيبكم الله ، قد خرج محمد ، وذَرَّ على رءوسكم التراب .

. . . .

فنفض كل منهم التراب عن رأسه .

ومنع الله رسوله منهم ، وأذن له فى الهجرة إلى المدينة .

فهاجر إليها ، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار .

ولم يزل أمره يعلو ، حتى دخل مكة عنوة ، وقهر أهلها .

فأذعنوا له ، وصاروا تحت حكمه ، بعد أن خرج مستخفياً منهم ، خائفا[١] على نفسه .

---

(١) قوله (خائفاً على نفسه) كلام غير صحيح . كيف إن الله طمأنه بحفظه وقال [والله يعصمك من الناس] فشجاعته عليه الصلاة والسلام بلغت أقصى الغايات ولم يستخف بخروجه من منزله ، بل شق طريقه — امتثالا لأمر الله — فى وسط صفوفهم أفيكون هذا الخروج استخفاءاً ؟! بل هو غاية فى الاستعلان ، ولم يكن النبي فى وقت من الأوقات خائفاً من المخلوقين . وما فعل ما فعل من الخروج من منزله ومن مكة بلده ومسقط رأسه إلا بأمر من ربه وما كان استخفاؤه فى الغار إلا تشريعاً لأمته كيف يتخذون الحيطة لأنفسهم عند الأزمات ، فعجيب جداً أن يقال : إن الرسول كان يخشى على نفسه من الناس . كيف يكون ذلك مع فضله وتكريمه على الخلق أجمع فهل يكون أقل شجاعة من ابن رواحة الذى قال كلمته المدوية فى غزوة مؤتة مشجعاً إخوانه الجنود حينما رأوا كثرة العدو ، وتضاعفه — (والله إن الذى تكرهون هو ما خرجتم لأجله (أى الشهادة) نحن لا نحارب بكثرة الرجال ولكن نحارب بقوة الإيمان الذى أودعه الله فى قلوبنا . فهذا صحابى بلغ به قوة الإيمان هذا المبلغ ولقى مصرعه بين تلك الجموع الكثيفة . أفيكون رسول الله أقل منه شجاعة ويقال عنه خرج مستخفياً منهم خائفاً على نفسه) اللهم عرفنا بك ثم بقدر نبيك .

۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ

فسبحان اللطيف بعباده الذى لا يغالبه مغالب .

* يقول تعالى — فى بيان عناد المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم — [وإذا تتلى عليهم آياتنا] الدالة على صدق ما جاء به الرسول .

[قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين] وهذا من عنادهم وظلمهم .

وإلا فقد تحداهم الله، أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله ، فلم يقدروا على ذلك ، وتبين عجزهم .

فهذا القول الصادر من هذا القائل ، مجرد دعوى ، كذبه الواقع .

وقد علم أنه صلى الله عليه وسلم أُمِّيٌّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، ولا رحل ليدرس ، من أخبار الأولين ، فأتى بهذا الكتاب الجليل ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

[وإذ قالوا اللهم إن كان هذا] الذى يدعو إليه محمد [هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم] قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم ، والجهل بما ينبغى من الخطاب .

فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات ، ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه — قالوا لمن ناظرهم ، وادعى أن الحق معه .

ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ

إن كان هذا هو الحق من عندك ، فاهدنا له ، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم .

فمذ قالوا : [اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك] الآية ، علم بمجرد قولهم ، أنهم السفهاء الأغبياء ، الجهلة الظالمون .

فلو عاجلهم الله بالعقاب ، لما أبقى منهم باقية .

ولكنه تعالى ، دفع عنهم العذاب ، بسبب وجود الرسول بين أظهرهم فقال :

[وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم] فوجوده صلى الله عليه وسلم ، أمنة لهم من العذاب .

وكانوا مع قولهم هذه المقالة ، التي يظهرونها على رءوس الأشهاد ، يدرون بقبحها فكانوا يخافون من وقوعها فيهم ، فيستغفرون الله تعالى فلهذا قال [وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون] .

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم ، بعد ما انعقدت أسبابه .

ثم قال [وما لهم أن لا يعذبهم الله] أي : أي شيء يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك وهو صد الناس عن المسجد الحرام ، خصوصاً صدهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه ، الذين هم أولى به منهم .

ولهذا قال : [وما كانوا] أي المشركون [أولياءه] يحتمل أن الضمير يعود إلى الله ، أى : أولياء الله .

ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أى: وما كانوا أولى به من غيرهم.

وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

[إن أولياؤه إلا المتقون] وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة ، وأخلصوا له الدين .

[ولكن أكثرهم لا يعلمون] فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمراً ، غيرهم أولى به .

* يعنى : أن الله تعالى ، إنما جعل بيته الحرام ، ليقام فيه دينه ، وتخلص له فيه العبادة .

فالمؤمنون ، هم الذين قاموا بهذا الأمر .

وأما هؤلاء المشركون ، الذين يصدون عنه ، فما كان صلاتهم فيه ، التى هى أكبر أنواع العبادات [إلا مكاء وتصدية] .

أى صفيراً وتصفيقاً ، فعل الجهلة الأغبياء ، الذين ليس فى قلوبهم تعظيم لربهم ، ولا معرفة بحقوقه ، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها .

فإذا كانت هذه صلاتهم فيه ، فكيف ببقية العبادات ؟ ! ! .

فبأى شىء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة ، والأفعال السديدة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ

لا جرم ، أورثهم الله بيته الحرام ، ومكنهم منه .

وقال — بعد ما مكن لهم منه — « ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .

وقال هنا [فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون] .

* يقول تعالى - مبيناً لعداوة المشركين ، وكيدهم ، ومكرهم ، ومبارزتهم لله ولرسوله ، وسعيهم فى إطفاء نوره ، وإخماد كلمته ، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فقال :

[إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله] أى : ليبطلوا الحق ، وينصروا الباطل ، ويبطل توحيد الرحمن ، ويقوم دين عبادة الأوثان .

[فسينفقونها] أى : فسيصدرون هذه النفقة ، وتخف عليهم ، لتمسكهم بالباطل ، وشدة بغضهم للحق .

[ثم تكون عليهم حسرة] أى : ندامة ، وخزيا ، وذلا .

[ثم يغلبون] فتذهب أموالهم ، وما أملوا ، ويعذبون فى الآخرة أشد العذاب .

ولهذا قال : [والذين كفروا إلى جهنم يحشرون] أى : يجمعون إليها ، ليذوقوا عذابها ، وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء .

وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ

والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب ، ويجعل كل واحد على حدة ، وفى دار تخصه .

فيجعل الخبيث بعضه على بعض ، من الأعمال ، والأموال والأشخاص .

[فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم ، أولئك هم الخاسرون] الذين خسروا أنفسهم ، وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين .

* هذا من لطفه تعالى بعباده ، لا يمنعه كفر العباد ، ولا استمرارهم فى العناد ، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى ، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغى والردى ، فقال :

[قل للذين كفروا إن ينتهوا] عن كفرهم ، وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له .

[يغفر لهم ما قد سلف] منهم من الجرائم [وإن يعودوا] إلى كفرهم وعنادهم [فقد مضت سنة الأولين] بإهلاك الأمم المكذبة ، فلينتظروا ما حل بالمعاندين ، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون .

فهذا خطابه للمكذبين .

وأما خطابه للمؤمنين ، عندما أمرهم بمعاملة الكافرين ، فقال :

[وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة] أى : شرك ، وصد عن سبيل الله ويذعنوا لأحكام الإسلام .

لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

[ويكون الدين كله لله] فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين ، أن يدفع شرهم عن الدين ، وأن يذب عن دين الله ، الذى خلق الخلق له ، حتى يكون هو العالى على سائر الأديان.

[فإن انتهوا] عن ما هم عليه من الظلم [فإن الله بما يعملون بصير] لا تخفى عليه منهم خافية .

[وإن تولوا] عن الطاعة ، وأوضعوا فى الإضاعة [فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى] الذى يتولى عباده المؤمنين ، ويوصل إليهم مصالحهم ، وييسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية .

[ونعم النصير] الذى ينصرهم ، فيدفع عنهم كيد الفجار ، وتكالب الأشرار .

ومن كان الله مولاه وناصره ، فلا خوف عليه ، ومن كان الله عليه ، فلا عزّ له ، ولا قائمة تقوم له .

﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ

---

* يقول تعالى: [واعلموا أنما غنمتم من شيء] أي: أخذتم من مال الكفار قهراً بحق، قليلا كان أو كثيراً.

[فإن لله خمسه] أي: وباقيه لكم، أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها.

فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله صلى الله عليه وسلم: للراجل سهم، وللفارس سهمان سهم لفرسه، وسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يصرف فى مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله.

فإذا لم يعين الله له مصرفا، دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

والخمس الثانى: لذى القربى، وهم قرابة النبي صلى الله عليه وسلم، من بنى هاشم، وبنى المطلب.

وأضافه الله إلى القرابة، دليلا على أن العلة فيه، مجرد القرابة، فيستوى فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

والخمس الثالث، لليتامى وهم: الذين فقدت آباؤهم، وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس، رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم.

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ

والخمس الرابع للمساكين ، أى : المحتاجين الفقراء ، من صغار ، وكبار ، ذكور ، وإناث

والخمس الخامس ، لابن السبيل ، وهو : الغريب المنقطع به فى غير بلده .

وبعض المفسرين يقول : إن خمس الغنيمة ، لا يخرج عن هذه الأصناف ، ولا يلزم أن يكونوا فيه ، على السواء ، بل ذلك تبع للمصلحة ، وهذا هو الأولى .

وجعل الله أداء الخمس على وجهه ، شرطاً للإيمان فقال :

[إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان] وهو يوم « بدر » الذى فرق الله به بين الحق والباطل ، وأظهر الحق ، وأبطل الباطل .

[يوم التقى الجمعان] جمع المسلمين ، وجمع الكافرين .

أى : إن كان إيمانكم بالله ، وبالحق الذى أنزله الله على رسوله يوم الفرقان ، الذى حصل فيه من الآيات والبراهين ، ما دل على أن ما جاء به هو الحق .

[والله على كل شىء قدير لا يغالبه أحد إلا غلبه .

[إذ أنتم بالعدوة الدنيا] أى : بعدوة الوادى القريبة من المدينة .

[وهم بالعدوة القصوى] أى : جانبه البعيد من المدينة ، فقد جمعكم واد واحد .

[والركب] الذى خرجتم لطلبه ، وأراد الله غيره [أسفل منكم] مما يلى ساحل البحر .

فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

[ولو تواعدتم] أنتم وإياهم على هذا الوصف، وبهذه الحال [لاختلفتم في الميعاد] أي : لا بد من تقدم أو تأخر ، أو اختيار منزل ، أو غير ذلك ، مما يعرض لكم ، أو لهم ، يصدفكم عن ميعادهم.

[ولكن] الله جمعكم على هذه الحال [ليقضى الله أمراً كان مفعولا] أي : مقدراً في الأزل ، لابد من وقوعه .

[ليهلك من هلك عن بينة] أي ليكون حجة وبينة للمعاند ، فيختار الكفر على بصيرة وجزم ببطلانه ، فلا يبقى له عذر عند الله .

[ويحيا من حي عن بينة] أي : يزداد المؤمن بصيرة ويقينا ، بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه ، ما هو تذكرة لأولى الألباب .

[وإن الله لسميع] سميع لجميع الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات.

[عليم] بالظواهر ، والضمائر ، والسرائر ، والغيب ، والشهادة .

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ

---

* وكان الله قد أرى رسوله ، المشركين فى الرؤيا ، قليلا ، فبشر بذلك أصحابه ، فاطمأنت قلوبهم ، وتثبتت أفئدتهم .

[ولو أراكهم الله كثيراً] فأخبرت بذلك أصحابك [لفشلتم ، ولتنازعتم فى الأمر] .

فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم ، ومنكم من لا يرى ذلك ، والتنازع مما يوجب الفشل .

[ولكن الله سلم] أى : لطف بكم [إنه عليم بذات الصدور] أى : بما فيها من ثبات وجزع ، وصدق وكذب .

فعلم الله من قلوبكم ، ما صار سببا للطفه وإحسانه بكم ، وصدق رؤيا رسوله .

فأرى الله المؤمنين عدوهم ، قليلا فى أعينهم ، ويقللكم — يامعشر المؤمنين — فى أعينهم .

فكل من الطائفتين ، ترى الأخرى قليلة ، لتقدم كل منهما على الأخرى .

قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ

[ليقضى الله أمراً كان مفعولا] من نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين وقتل قادتهم ، ورؤساء الضلال منهم ، ولم يبق منهم أحد ، له اسم يذكر ، فيتيسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام ، فصار أيضاً لطفا بالباقين، الذين مَنَّ الله عليهم بالإسلام .

[وإلى الله ترجع الأمور] أى : جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله ، فيميز الخبيث من الطيب ، ويحكم فى الخلائق بحكمه العادل ، الذى لاجور فيه ، ولا ظلم .

* يقول تعالى : [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة] أى : طائفة من الكفار تقاتلكم .

[فاثبتوا] لقتالها ، واستعملوا الصبر ، وحبس النفس ، على هذه الطاعة الكبيرة ، التى عاقبتها العز والنصر .

واستعينوا على ذلك ، بالإكثار من ذكر الله [لعلكم تفلحون] أى : تدركون ما تطلبون ، من الانتصار على أعدائكم .

فالصبر والثبات ، والإكثار من ذكر الله ، من أكبر الأسباب للنصر .

[وأطيعوا الله ورسوله] فى استعمال ما أمروا به ، والمشى خلف ذلك فى جميع الأحوال .

وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ وَٱصۡبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ

[ولا تنازعوا] تنازعا يوجب تشتيت القلوب وتفرقها .

[فتفشلوا] أى : تجبنوا [وتذهب ريحكم] أى : وتنحل عزائمكم ، وتفرق قوتكم ، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله .

[واصبروا] نفوسكم على طاعة الله [إن الله مع الصابرين] بالعون والنصر والتأييد ، واخشعوا لربكم ، واخضعوا له .

[ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله] أى : هذا مقصدهم الذى خرجوا إليه ، وهذا الذى أبرزهم من ديارهم ، لقصد الأشر والبطر فى الأرض ، وليراهم الناس ويفخروا لديهم .

والمقصود الأعظم : أنهم خرجوا ، ليصدوا عن سبيل الله ، من أراد سلوكه.

[والله بما يعملون محيط] فلذلك أخبركم بمقاصدهم ، وحذركم أن تشبهوا بهم ، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة .

فليكن قصدكم فى خروجكم ، وجه الله تعالى ، وإعلاء دين الله ، والصد عن الطريق الموصلة إلى سخط الله وعقابه ، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم ، الموصل لجنات النعيم.

مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ

[وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم] حسنها فى قلوبهم .

[وقال لا غالب لكم اليوم من الناس] ، فإنكم فى عَدَدٍ وعُدَدٍ ، وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه .

[وإنى جار لكم] من أن يأتيكم أحد ، ممن تخشون غائلته ، لأن إبليس قد تبدّى لقريش فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى وكانوا يخافون من بنى مدلج ، لعداوة كانت بينهم .

فقال لهم الشيطان : أنا جار لكم ، فاطمأنت نفوسهم ، وأتوا على حرد قادرين[1] .

فلما [تراءت الفئتان] المسلمون والكافرون ، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام يزع[2] الملائكة خاف خوفا شديداً [ونكص على عقبيه] أى : ولى مدبرا .

---

(١) قوله (على حرد قادرين) قال الراغب ، أى : على امتناع من أن يتناولوه قادرين على ذلك اهـ . فيكون المراد : وأتوا بمنع وحدة وغضب .

(٢) قوله (يزع) أى : حبس أولهم على آخرهم ، فلم يتركهم يتطلقون كما يشاءون ، بل كان جبريل يقودهم بنظام .

وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ

---

* [وقال] لمن خدعهم وغرهم : [إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون] .

أى : أرى الملائكة الذين لا يدان ، لأحد بقتالهم .

[إنى أخاف الله] أى : أخاف أن يعاجلني بالعقوبة فى الدنيا [والله شديد العقاب] .

ومن المحتمل أن يكون الشيطان ، سول لهم ، ووسوس فى صدورهم ، أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ، وأنه جار لهم .

فلما أوردهم مواردهم ، نكص عنهم ، وتبرأ منهم ، كما قال تعالى :

« كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر ، فلما كفر قال : إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين » .

* [إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض] أى : شك وشبهة ، من ضعفاء الإيمان ، للمؤمنين ، حين أقدموا ـ مع قلتهم ـ على قتال المشركين مع كثرتهم .

[غر هؤلاء دينهم] أى : أوردهم الدين الذى هم عليه ، هذه الموارد ، التى لا يدان لهم بها ، ولا استطاعة لهم بها .

يقولونه ، احتقارا لهم ، وا . تنافا بعقولهم ، وهم — والله — الأخفَّاء عقولا ، الضعفاء أحلاما .

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

فإن الإيمان ، يوجب لصاحبه ، الإقدام على الأمور الهائلة ، التى لايقدم عليها الجيوش العظام .

فإن المؤمن المتوكل على الله ، الذى يعلم أنه ، ما من حول ، ولا قوة ، ولا استطاعة لأحد ، إلا بالله تعالى .

وأن الخلق ، لو اجتمعوا كلهم ، على نفع شخص ، بمثقال ذرة ، لم ينفعوه .

ولو اجتمعوا على أن يضروه ، لم يضروه إلا بشىء قد كتبه الله عليه ، وعلم أنه على الحق ، وأن الله تعالى حكيم رحيم ، فى كل ماقدره وقضاه فإنه لايبالى بما أقدم عليه ، من قوة وكثرة ، وكان واثقاً بربه ، مطمئن القلب لافزعاً ولا جبانا .

ولهذا قال : [ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز] لا تغالب قوته قوة .

[حكيم] فيما قضاه وأجراه .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : ولو ترى الذين كفروا بآيات الله ، حين توفاهم الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم ، وقد اشتد بهم القلق ، وعظم كربهم ، و[الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم] يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم ، ونفوسهم ممتنعة مستعصية على الخروج ، لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم .

ولهذا قال : [وذوقوا عذاب الحريق] أي : العذاب الشديد المحرق .

ذلك العذاب ، حصل لكم غير ظلم ولا جور ، من ربكم ، وإنما هو بما قدمت أيديكم ، من المعاصى ، التى أثرت لكم ما أثرت ، وهذه سنة الله فى الأولين والآخرين .

فإن دأب هؤلاء المكذبين أى : سنتهم ، وما أجرى الله عليهم من الهلاك ، بذنوبهم .

[كدأب آل فرعون والذين من قبلهم] من الأمم المكذبة .

[كفروا بآيات الله فأخذهم الله] بالعقاب [بذنوبهم ، إن الله قوى شديد العقاب] لا يعجزه أحد يريد أخذه ، « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » .

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم

---

* [ذلك] العذاب الذى أوقعه الله بالأمم المكذبة ، وأزال عنهم ما هم فيه ، من النعم والنعيم ، بسبب ذنوبهم ، وتغييرهم ما بأنفسهم .

[بأن الله يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم] من نعم الدين والدنيا ، بل يبقيها ، ويزيدهم منها ، إن ازدادوا له شكراً .

[حتى يغيروا ما بأنفسهم] من الطاعة إلى المعصية ، فيكفروا نعمة الله ، ويبدلوا بها كفراً ، فيسلبهم إياها ، ويغيرها عليهم ، كما غيروا ما بأنفسهم .

ولله الحكمة فى ذلك والعدل والإحسان إلى عباده ، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم ، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه ، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره .

[وأن الله سميع عليم] يسمع جميع ما نطق به الناطقون ، سواء من أسر القول ومن جهر به .

ويعلم ما تنطوى عليه الضمائر ، وتخفيه السرائر ، فيجرى على عباده من الأقدار ، ما اقتضاه علمه ، وجرت به مشيئته .

[كدأب آل فرعون] أى : فرعون وقومه [والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم] حين جاءتهم [فأهلكناهم بذنوبهم] كل بحسب جرمه .

بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

[وأغرقنا آل فرعون وكل] من المهلكين المعذبين [كانوا ظالمين] لأنفسهم ، ساعين فى هلاكها ، لم يظلمهم الله ، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه .

فليحذر المخاطبون ، أن يشابهوهم فى الظلم ، فيحل الله بهم من عقابه ، ما أحل بأولئك الفاسقين .

* [إن] هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث — الكفر ، وعدم الإيمان ، والخيانة — بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ، ولا قول قالوه .

هم [شر الدواب عند الله] فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها ، لأن الخير معدوم منهم ، والشر متوقع فيهم .

فإذهاب هؤلاء ومحقهم ، هو المتعين ، لئلا يسرى داؤهم لغيرهم ولهذا قال :

[فإما تثقفهم فى الحرب] أى : تجدنهم فى حال المحاربة ، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق .

[فشرد بهم من خلفهم] أى نكل بهم غيرهم ، وأوقع بهم من

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

العقوبة ، مايصيرون به ، عبرة لمن بعدهم [لعلهم] أى : من خلفهم [يذكرون] صنيعهم ، لئلا يصيبهم ما أصابهم .

وهذه من فوائد العقوبات والحدود ، المرتبة على المعاصى ، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصى ، بل وزجراً لمن عملها ، أن لايعاودها .

ودل تقييد هذه العقوبة فى الحرب ، أن الكافر — ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر — أنه إذا أُعْطِىَ عهداً ، لايجوز خيانته وعقوبته .

* أى : وإذا كان بينك وبين قوم ، عهد وميثاق ، على ترك القتال ، فخفت منهم خيانة .

بأن ظهر من قرائن أحوالهم ، مايدل على خيانتهم ، من غير تصريح منهم بالخيانة .

[فانبذ إليهم] عهدهم ، أى : ارمه عليهم ، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم .

[على سواء] أى : حتى يستوى علمك وعلمهم بذلك ، ولايحل لك أن تغدرهم ، أو تسعى فى شىء مما منعه ، موجب العهد ، حتى تخبرهم بذلك .

[إن الله لايحب الخائنين] بل يبغضهم أشد البغض .

فلا بد من أمر بيِّنٍ ، يبرئكم من الخيانة .

ودلت الآية ، على أنه ، إذا وجدت الخيانة المحققة منهم ، لم يحتج أن

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُواْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ينبذ إليهم عهدهم ، لأنه لم يخف منهم ، بل علم ذلك ، ولعدم الفائدة ولقوله : [على سواء] .

وهنا قد كان معلوما عند الجميع غدرهم .

ودل مفهومها أيضاً ، أنه إذا لم يُخَفْ منهم خيانة ، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك ، أنه لايجوز نبذ العهد إليهم ، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته .

* أي : لايحسب الكافرون بربهم ، المكذبون بآياته ، أنهم سبقوا الله وفاتوه ، فإنهم لايعجزونه ، والله لهم بالمرصاد .

وله تعالى الحكمة البالغة ، فى إمهالهم ، وعدم معاجلتهم بالعقوبة ، التى من جملتها ، ابتلاء عباده المؤمنين ، وامتحانهم ، وتزودهم من طاعته ومراضيه ، ما يصلون به المنازل العالية ، واتصافهم بأخلاق وصفات ، لم يكونوا بغيره ، بالغيها .

فلهذا قال لعباده المؤمنين : [وأعدوا لهم ما استطعتم] إلى [وأنتم لاتظلمون] .

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ

* أى : [وأعدوا] لأعدائكم الكفار ، الساعين فى هلاككم ، وإبطال دينكم .

[ما استعطتم من قوة] أى : كل ما تقدرون عليه ، من القوة العقلية والبدنية ؛ وأنواع الأسلحة ونحو ذلك ، مما يعين على قتالهم .

فدخل فى ذلك ، أنواع الصناعات ، التى تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات ، من المدافع ، والرشاشات ، والبنادق ، والطيارات الجوية ، والمراكب البرية والبحرية ، والقلاع ، والخنادق ، وآلات الدفاع ، والرأى والسياسة ، التى بها يتقدم المسلمون ، ويندفع عنهم به ، شر أعدائهم ، وتَعَلُّم الرَّمْىِ ، والشجاعة ، والتدبير .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « ألا إن القوة الرَّمْىُ » .

ومن ذلك : الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال .

ولهذا قال تعالى : [ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم] .

وهذه العلة موجودة فيها فى ذلك الزمان ، وهى إرهاب الأعداء ، والحكم يدور مع علته .

فإذا كان شىء موجودا أكثر إرهابا منها ، كالسيارات البرية والهوائية ، المعدة للقتال ، التى تكون النكاية فيها أشد ، كانت مأموراً بالاستعداد بها ، والسعى لتحصليها .

حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلُّم الصناعة ، وجب ذلك ، لأن « مالا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب » .

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾

وقوله [ترهبون به عدو الله وعدوكم] ممن تعلمون أنهم أعداؤكم .

[وآخرين من دونهم لا تعلمونهم] ممن سيقاتلونكم بعد هذا الوقت ، الذى يخاطبهم الله به [الله يعلمهم] فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم .

ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذلك ، النفقات المالية ، فى جهاد الكفار .

ولهذا قال تعالى مرغبا فى ذلك : [وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله] قليلا كان أو كثيراً [يوف إليكم] أجره يوم القيامة مضاعفا أضعافا كثيرة .

حتى إن النفقة فى سبيل الله ، تضاعف إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة .

[وأنتم لا تظلمون] أى : لا تنقصون ، من أجرها وثوابها ، شيئاً .

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ

---

* يقول تعالى [وإن جنحوا] أى : الكفار المحاربون أى: مالوا [للسلم] أى : الصلح وترك القتال .

[فاجنح لها وتوكل على الله] أى : أجبهم إلى ماطلبوا ، متوكلا على ربك ، فإن فى ذلك فوائد كثيرة .

منها : أن طلب العافية ، مطلوب كل وقت ، فإذا كانوا ، هم المبتدئين فى ذلك ، كان أولى لإجابتهم .

ومنها : أن فى ذلك استجماماً لقواكم ، واستعداداً منكم لقتالهم فى وقت آخر ، إن احتيج إلى ذلك .

ومنها : أنكم ، إذا أصلحتم ، وأمن بعضكم بعضاً ، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر ، فإن الإسلام يعلو ، ولا يعلى عليه .

فكل من له عقل وبصيرة ، إذا كان معه إنصاف ، فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان ، لحسنه فى أوامره ونواهيه ، وحسنه فى معاملته للخلق ، والعدل فيهم ، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه ، فحينئذ يكثر الراغبون فيه ، والمتبعون له .

فصار هذا السلم ، عونا للمسلمين على الكافرين .

ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة ، وهى أن يكون الكفار ، قصدهم بذلك ، خدع المسلمين ، وانتهاز الفرصة فيهم .

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

فأخبرهم الله ، أنه حسبهم وكافيهم خداعهم ، وأن ذلك يعود عليهم ضرره فقال :

[وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله] أى : كافيك ما يؤذيك ، وهو القائم بمصالحك ومهماتك ، فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ، ما يطمئن به قلبك .

وإنه [هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين] أى : أعانك بمعونة سماوية وهو : النصر منه ، الذى لا يقاومه شيء ، ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك .

[وألف بين قلوبهم] فاجتمعوا وائتلفوا ، وازدادت قوتهم ، بسبب اجتماعهم .

ولم يكن هذا بسعى أحد ، ولا بقوة ، غير قوة الله .

وإنك [لو أنفقت ما فى الأرض جميعا] من ذهب ، وفضة وغيرهما ، لتأليفهم بعد تلك النفرة ، والفرقة الشديدة [ما ألفت بين قلوبهم] لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى .

[ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم] ومن عزته ، أن ألف بين قلوبهم ، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ

ثم قال تعالى [يا أيها النبى حسبك الله] أى : كافيك [ومن اتبعك من المؤمنين] أى : وكافى أتباعك من المؤمنين .

وهذا وعد من الله ، لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله ، بالكفاية ، والنصرة على الأعداء .

فإذا أتوا بالسبب ، الذى هو الإيمان والاتباع ، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم ، من أمور الدين والدنيا ، وإنما تتخلف الكفاية ، بتخلف شرطها .

* يقول تعالى ، لنبيه صلى الله عليه وسلم : [يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال] أى : حثهم واستنهضهم [1] إليه بكل ما يقوى عزائمهم ، وينشط هممهم ، من الترغيب فى الجهاد ، ومقارعة الأعداء ، والترهيب من ضد ذلك ، وذكر فضائل الشجاعة ، والصبر ، وما يترتب على ذلك ، من خير فى الدنيا والآخرة ، وذكر مضار الجبن ، وأنه من الأخلاق الرذيلة ، المنقصة للدين والمروءة ، وأن الشجاعة بالمؤمنين ، أولى من غيرهم « إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون » .

[إن يكن منكم] أيها المؤمنون [عشرون صابرون يغلبوا مائتين ،

---

(١) فى الأصل المطبوع « ونهضهم » وهو خطأ لغوى .

يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِاْئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا] يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار .

وذلك [بأنهم] أى : الكفار [قوم لا يفقهون] أى : لا علم عندهم ، بما أعد الله للمجاهدين فى سبيله ، فهم يقاتلون لأجل العلو فى الأرض ، والفساد فيها .

وأنتم تفقهون المقصود من القتال ، أنه لإعلاء كلمة الله ، وإظهار دينه والذب عن كتاب الله ، وحصول الفوز الأكبر عند الله .

وهذه كلها ، دواع للشجاعة والصبر ، والإقدام على القتال .

ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد فقال :

[الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا] فلذلك اقتضت رحمته وحكمته ، التخفيف .

[فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين] بعونه وتأييده .

وهذه الآيات ، صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين ، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين ، يغلبون ذلك المقدار المعين فى مقابلته من الكفار ، وأن الله يمتن عليهم ، بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية .

. . . .

ولـكن معناها وحقيتها ، الأمر ، وأن الله أمر المؤمنين — فى أول الأمر — أن الواحد لايجوز له أن يفر من العشرة ، والعشرة من المـائة ، والمائة من الألف .

ثم إن الله خفف ذلك ، فصار لايجوز فرار المسلمين من مثليهم من الـكفار ، فإن زادوا على مثليهم ، جاز لهم الفرار ، ولـكن يرد على هذا أمران .

أحدها : أنها بصورة الخبر ، والأصل فى الخبر ، أن يكون على بابه ، وأن المقصود بذلك ، الامتنان ، والإخبار بالواقع .

والثانى: تقييد ذلك العدد ، أن يكونوا صابرين ، بأن يكونوا متدربين على الصبر .

ومفهوم هذا ، أنهم إذا لم يكونوا صابرين ، فإنه يجوز لهم الفرار ، ولو أقل من مثلهم ، إذا غلب على ظنهم الضرر ، كما تقتضيه الحـكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول ، بأن قوله : [الآن خفف الله عنـكم] إلى آخرها ، دليل على أن هذا الأمر لازم ، وأمر محتم ، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد .

فهذا ظاهر فى أنه أمر ، وإن كان فى صيغة الخبر .

وقد يقال : إن فى إتيانه بلفظ الخبر ، نـكتة بديعة ، لا توجد فيه ، إذا كان بلفظ الأمر .

وهى : تقوية قلوب المؤمنين ، والبشارة بأنهم ، سيغلبون الـكافرين .

ويجاب عن الثانى : أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين ، أنه حث على الصبر ، وأنه ينبغى منـكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك .

فإذا فعلوها ، صارت الأسباب الإيمانية ، والأسباب المـادية ، مبشرة بحصول ما أخبر الله به ، من النصر ، لهذا العدد القليل

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ

---

* هذه معاتبة من الله لرسوله والمؤمنين ، يوم « بدر » إذ أسروا المشركين ، وأبقوهم لأجل الفداء .

وكان رَأْىُ أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب فى هذه الحال ، قتلهم واستئصالهم .

فقال تعالى : [ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض] أى : ما ينبغى ، ولا يليق به ، إذا قاتل الكفار ، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ، ويسعون لإخماد دينه ، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله ، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم ، لأجل الفداء ، الذى يحصل منهم ، وهو عرض قليل ، بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم ، وإبطال شرهم .

فما دام لهم شر وصولة ، فالأوفق أن لا يؤسروا .

فإذا أثخن فى الأرض ، وبطل شر المشركين ، واضمحل أمرهم ، فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم ، وإبقائهم .

يقول تعالى : [تريدون] بأخذكم الفداء وإبقائهم [عرض الحياة الدنيا] أى : لا لمصلحة تعود إلى دينكم .

[والله يريد الآخرة] بإعزاز دينه ، ونصر أوليائه ، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم ، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك .

[والله عزيز حكيم] أى : كامل العزة ، ولو شاء أن ينتصر من

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

الكفار ، من دون قتال ، لفعل ولكنه حكيم ، يبتلى بعضكم ببعض .

[لولا كتاب من الله سبق] به القضاء والقدر ، أنه قد أحل لكم الغنائم ، وأن الله رفع عنكم - أيتها الأمة - العذاب [لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم] وفى الحديث « لو نزل عذاب يوم بدر ، ما نجا منه إلا عمر » .

[فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا] وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة ، أن أحل لها الغنائم ، ولم تحل لأمة قبلها .

[واتقوا الله] فى جميع أموركم ولازموها ، شكراً لنعم الله عليكم .

[إن الله غفور] يغفر لمن تاب إليه ، جميع الذنوب .

ويغفر لمن لم يشرك به شيئا ، جميع المعاصى .

[رحيم] بكم ، حيث أباح لكم الغنائم ، وجعلها حلالا طيباً .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

وهذه نزلت فى أسارى يوم بدر ، وكان من جملتهم ، العباس ، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما طلب منه الفداء ، ادّعى أنه مسلم قبل ذلك ، فلم يسقطوا عنه الفداء .

فأنزل الله تعالى ، ، جبراً لخاطره ، ومن كان على مثل حاله .

[يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيراً مما أخذ منكم] أى : من المال ، بأن ييسر لكم من فضله ، خيراً كثيراً ، مما أخذ منكم .

[ويغفر لكم] ذنوبكم ، ويدخلكم الجنة [والله غفور رحيم] .

وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره ، فحصل له — بعد ذلك — من المال ، شيء كثير .

حتى إنه مرة ، لما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم ، مال كثير ، أتاه العباس ، فأمره أن يأخذ منه بثوبه ، مايطيق حمله فأخذ منه ، ما كاد أن يعجز عن حمله .

[وإن يريدوا خيانتك] فى السعى لحربك ، ومنابذتك .

[فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم] فليحذروا خيانتك ، فإنه تعالى قادر عليهم ، وهم تحت قبضته .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم

والله عليم حكيم أى : عليم بكل شىء ، حكيم ، يضع الأشياء مواضعها .

ومن علمه وحكمته ، أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة ، وقد تكفل بكفايتكم ، شأن الأسرى وشرهم ، إن أرادوا خيانة .

* هذا عقد موالاة ومحبة ، عقدها الله بين المهاجرين ، الذين آمنوا وهاجروا فى سبيل الله . وتركوا أوطانهم لله ، لأجل الجهاد فى سبيل الله .

وبين الأنصار ، الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه وأعانوهم فى ديارهم وأموالهم وأنفسهم .

فهؤلاء ، بعضهم ، أولياء بعض ، لكمال إيمانهم ، وتمام اتصال بعضهم ببعض .

[والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا] .

فإنهم قطعوا ولايتكم ، بانفصالهم عنكم ، فى وقت شدة الحاجة إلى الرجال .

فلما لم يهاجروا ، لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شىء .

مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾

لكنهم [إن استنصروكم فى الدين] أى : لأجل قتال من قاتلهم [فعليكم النصر] والقتال معهم .

وأما من قاتلوهم لغير ذلك ، من المقاصد ، فليس عليكم نصرهم .

وقوله تعالى [إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق] أى : عهد بترك القتال ، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون ، الذين لم يهاجروا قتالهم ، فلا تعينوهم عليهم ، لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق .

[والله بما تعملون بصير] يعلم ما أنتم عليه ، من الأحوال ، فيشرع لكم من الأحكام ، ما يليق بكم .

* لما عقد الولاية بين المؤمنين ، أخبر أن الكفار ، حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء بعض ، فلا يواليهم إلا كافر مثلهم .

وقوله [إلا تفعلوه] أى : موالاة المؤمنين ، ومعاداة الكافرين ، بأن واليتموهم أو عاديتموهم كلهم ، أو واليتم الكافرين ، وعاديتم المؤمنين .

[تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير] فإنه يحصل بذلك ، من الشر ، مالا ينحصر ، من اختلاط الحق بالباطل ، والمؤمن بالكافر ، وعدم كثير من العبادات الكبار ، كالجهاد ، والهجرة ، وغير ذلك من مقاصد الشرع ، والدين ، التى تفوت ، إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء ، بعضهم لبعض .

۞ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ

---

* الآيات السابقات ، فى ذكر عقد الموالاة ، بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار .

وهذه الآيات ، فى بيان مدحهم وثوابهم ، فقال : [والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون] من المهاجرين والأنصار أى : المؤمنون [حقا] لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به ، من الهجرة ، والنصرة ، والموالاة ، بعضهم لبعض ، وجهادهم لأعدائهم ، من الكفار والمنافقين .

(لهم مغفرة) من الله ، تمحى بها سيئاتهم ، وتضمحل بها زلاتهم .

(و) لهم (رزق كريم) أى : خير كثير ، من الرب الكريم ، فى جنات النعيم .

وربما حصل لهم من الثواب المعجل ، ما تقر به أعينهم ، وتطمئن به قلوبهم .

وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار ، ممن اتبعهم بإحسان فآمن وهاجر وجاهد فى سبيل الله .

[فأولئك منكم] لهم ما لكم وعليهم ما عليكم .

فهذه الموالاة الإيمانية ــ وقد كانت فى أول الإسلام ــ لها وقع كبير ، وشأن عظيم

حتى إن النبى صلى الله عليه وسلم ، آخى بين المهاجرين والأنصار ،

مَعَكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

أخوة خاصة ، غير الأخوة الإيمانية العامة ، وحتى كانوا يتوارثون بها ، فأنزل الله [وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله] .

فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات ، وأصحاب الفروض .

فإن لم يكونوا ، فأقرب قراباته ، من ذوى الأرحام ، كما دل عليه عموم الآية الكريمة .

وقوله [فى كتاب الله] أى : فى حكمه وشرعه .

[إن الله بكل شىء عليم] ومنه ما يعلمه ، من أحوالكم ، التى يجرى من شرائعه الدينية عليكم ، ما يناسبها .

تم تفسير سورة الأنفال ـ ولله الحمد والمنة

تفسير

سورة التوبة

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ (٢) ﴾

أى : هذه براءة من الله ، ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاندين ، أن لهم أربعة أشهر ، يسيحون فى الأرض على اختيارهم ، آمنين من المؤمنين ، وبعد الأربعة الأشهر ، فلا عهد لهم ، ولا ميثاق .

وهذا لمن كان له عهد مطلق، غير مقدر ، أو مقدر بأربعة أشهر، فأقل .

أما من كان له عهد مقدر ، بزيادة على أربعة أشهر ، فإنه يتعين أن يتم له عهده ، إذا لم يخف منه خيانة ، ولم يبدأ بنقض العهد .

ثم أنذر المعاهدين فى مدة عهدهم ، أنهم ، وإن كانوا آمنين ، فإنهم لن يعجزوا الله ، ولن يفوتوه .

وأنه ، من استمر منهم على شركه ، فإنه لا بد أن يخزيه .

فكان هذا ، مما يجلبهم إلى الدخول فى الإسلام ، إلا من عاند ، وأصر ، ولم يبال بوعيد الله .

۞ وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ

---

* هذا ما وعد الله به المؤمنين ، من نصر دينه ، وإعلاء كلمته ، وخذلان أعدائهم ، من المشركين ، الذين أخرجوا الرسول ومن معه ، من مكة ، من بيت الله الحرام ، وأجلوهم مما لهم التسلط عليه ، من أرض الحجاز .

نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة ، وأذل المشركين ، وصار للمؤمنين ، الحكم والغلبة ، على تلك الديار .

فأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر ، وهو : يوم النحر ، وقت اجتماع الناس ، مسلمهم ، وكافرهم ، من جميع جزيرة العرب ، أن يؤذن بأن الله برىء ورسوله من المشركين .

فليس لهم عنده ، عهد وميثاق ، فأينما وجدوا قتلوا ، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا ، وكان سنة تسع من الهجرة .

وحج بالناس أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وأذن ببراءة يوم النحر ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على بن أبى طالب رضى الله عنه .

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة ، ورهبهم من الاستمرار على الشرك فقال : [فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم ، فاعلموا أنكم غير معجزى الله] .

أى : فائتيه ، بل أنتم فى قبضته ، قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين .

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾

[وبشر الذين كفروا بعذاب أليم] أى : مؤلم مفظع فى الدنيا ، بالقتل ، والأسر ، والجلاء ، وفى الآخرة ، بالنار ، وبئس القرار .

* أى هذه البراءة التامة المطلقة ، من جميع المشركين .

[إلا الذين عاهدتم من المشركين] واستمروا على عهدهم ، ولم يجر منهم ما يوجب النقص ، فلا نقصوكم شيئاً ، ولا عاونوا عليكم أحداً ، فهؤلاء أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، قَلَّتْ ، أو كثرت .

لأن الإسلام ، لا يأمر بالخيانة ، وإنما يأمر بالوفاء .

[إن الله يحب المتقين] الذين أدوا ما أمروا به ، واتقوا الشرك والخيانة ، وغير ذلك ، من المعاصى .

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

---

* يقول تعالى [فإذا انسلخ الأشهر الحرم] أى : التى حرم فيها قتال المشركين المعاهدين ، وهى أشهر التيسير الأربعة ، وتمام المدة ، لمن له مدة أكثر منها ، فقد برئت منهم الذمة .

[فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم] فى أى مكان وزمان .

[وخذوهم] أسرى [واحصروهم] أى : ضيقوا عليهم ، فلا تدعوهم يتوسعون فى بلاد الله وأرضه ، التى جعلها معبداً لعباده .

فهؤلاء ، ليسوا أهلا لسكناها ، ولا يستحقون منها شبراً ، لأن الأرض أرض الله ، وهم أعداؤه ، المنابذون له ولرسله ، المحاربون ، الذين يريدون أن تخلو الأرض من دينه ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون .

[واقعدوا لهم كل مرصد] أي : كل ثنية وموضع ، يمرون عليه ، ورابطوا فى جهادهم ، وابذلوا غاية مجهودكم فى ذلك ، ولا تزالوا على هذا الأمر ، حتى يتوبوا من شركهم .

ولهذا قال : [فإن تابوا] من شركهم [وأقاموا الصلاة] أى : أدوها بحقوقها [وآتوا الزكاة] لمستحقيها [فخلوا سبيلهم] أى : اتركوهم ، وليكونوا مثلكم ، لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم .

[إن الله غفور رحيم] يغفر الشرك فما دونه ، للتائبين ، ويرحمهم ، بتوفيقهم للتوبة ، ثم قبولها منهم .

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

وفى هذه الآية ، دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة ، فإنه يقاتل حتى يؤديها ، كما استدل بذلك أبو بكر الصديق رضى الله عنه

* لما كان ما تقدم من قوله [فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد] أمراً عاماً فى جميع الأحوال ، وفى كل الأشخاص منهم ، ذكر تعالى ، أن المصلحة إذا اقتضت تقريب بعضهم ، جاز ، بل وجب ذلك فقال :

[وإن أحد من المشركين استجارك] أى : طلب منك أن تجيره ، وتمنعه من الضرر ، لأجل أن يسمع كلام الله ، وينظر حالة الإسلام .

[فأجره حتى يسمع كلام الله] ثم إن أسلم ، فذاك ، وإلا فأبلغه مأمنه ، أى : المحل الذى يأمن فيه .

والسبب فى ذلك ، أن الكفار قوم لا يعلمون .

فربما كان استمرارهم على كفرهم ، لجهل منهم ، إذا زال ، اختاروا عليه الإسلام .

فلذلك أمر الله رسوله ، وأمته أسوته فى الأحكام ، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله .

وفى هذا حجة صريحة ، لمذهب أهل السنة والجماعة ، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، لأنه تعالى ، هو المتكلم به ، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها .

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾

وبطلان مذهب المعتزلة ، ومن أخذ بقولهم : أن القرآن مخلوق .

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول ، ليس هذا ، محل ذكرها .

* هذا بيان للحكمة الموجبة ، لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين ، فقال :

[كيف يكون للمشركين عهد عندالله وعند رسوله ؟!] هل قاموا بواجب الإيمان ، أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أذيتهم ؟ .

حاربوا الحق ونصروا الباطل ؟

أما سعوا فى الأرض فساداً ، فيحق عليهم أن يتبرأ الله منهم ، وأن لا يكون لهم عهد عنده ، ولا عند رسوله ؟ .

[إلا الذين عاهدتم] من المشركين [عند المسجد الحرام] فإن لهم — فى العهد — وخصوصاً فى هذا المكان الفاضل — حرمة أوجب أن يراعوا فيها .

[فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين] ، ولهذا قال :

(كيف وإن يظهروا) إلى قوله (لقوم يعلمون) .

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ

---

* أى : [كيف] يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق [و] الحال أنهم [إن يظهروا عليكم] بالقدرة والسلطة ، لا يرحموكم ، و [لا يرقبوا منكم إلا ولا ذمة[1]] أى : لا ذمة ولا قرابة ، ولا يخافون الله فيكم ، بل يسومونكم سوء العذاب ، فهذه حالكم معهم لو ظهروا .

ولا يغرنكم منهم ، ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم ، فإنهم [يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم] الميل والمحبة لكم ، بل هم الأعداء حقاً ، المبغضون لكم صدقاً .

[وأكثرهم فاسقون] لا ديانة لهم ، ولا مروءة .

[اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا] أى : اختاروا الحظ العاجل الخسيس فى الدنيا . على الإيمان بالله ورسوله ، والانقياد لآيات الله .

[فصدوا] بأنفسهم ، وصدوا غيرهم [عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة] أى : لأجل عداوتهم للإيمان إلا ولا ذمة] أى : لأجل عداوتهم للإيمان وأهله .

---

(١) قال الراغب الأصفهانى : (الإل) كل حالة ظاهرة من عهد خلف وقرابة ، « تئل : تلمع فلا يمكن إنكاره والمراد هنا : لا يرعون عهداً ولا حلفاً ولا قرابة وقوله (ولا ذمة) أى : لا عهد لهم ولا أمان .

إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

فالوصف ، الذى جعلهم يعادونكم لأجله ويبغضونكم ، هو الإيمان .

فذبوا عن دينكم ، وانصروه ، واتخذوا من عاداه ، عدواً ، ومن نصره لكم ولياً ، واجعلوا الحكم يدور معه ، وجوداً وعدما .

لا تجعلوا الولاية والعداوة ، طبعية تميلون بها ، حيثما مال الهوى ، وتتبعون فيها النفس الأمارة بالسوء ، ولهذا :

[فإن تابوا] عن شركهم ، ورجعوا إلى الإيمان [وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فإخوانكم فى الدين] وتناسوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين ، لتكونوا عباد الله المخلصين ، وبهذا يكون العبد ، عبداحقيقة.

لما بين من أحكامه العظيمة ما بين ، ووضح منها ما وضح ، أحكاما وحِكَماً ، وحُكْماً ، وحكمة قال :

[ونفصل الآيات] أى : نوضحها ونميزها [لقوم يعلمون] فإليهم سياق الكلام ؛ وبهم تعرف الآيات والأحكام ، وبهم عرف دين الإسلام، وشرائع الدين .

اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون ، ويعملون بما يعلمون ، برحمتك وجودك ، وكرمك ، وإحسانك ، يارب العالمين .

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ

---

* يقول تعالى — بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين ، إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء .

[وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم] أى : نقضوها وحلوها ، أو أعانوا على قتالكم ، أو نقصوكم .

[وطعنوا فى دينكم] أي : عابوه ، وسخروا منه .

ويدخل فى هذا ، جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين ، أو إلى القرآن .

[فقاتلوا أئمة الكفر] أى : القادة فيه ، الرؤساء الطاعنين فى دين الرحمن ، الناصرين لدين الشيطان .

وخصهم بالذكر ، لعظم جنايتهم ، ولأن غيرهم تبع .

وليدل على أن من طعن فى الدين ، وتصدي للرد عليه ، فإنه من أئمة الكفر .

[إنهم لا أيمان لهم] أى : لا عهود ، ولا مواثيق ، يلازمون على الوفاء بها ، بل لا يزالون خائنين ، ناكثين للعهد ، لا يوثق منهم .

[لعلهم] فى قتالهم إياهم [ينتهون] عن الطعن فى دينكم ، وربما دخلوا فيه

ثم حث على قتالهم ، وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف ، التى صدرت من هؤلاء الأعداء ، والتى هم موصوفون بها ، المقتضية لقتالهم فقال :

[ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول] الذى يجب

ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

احترامه ، وتوقيره ، وتعظيمه ؟ وهموا أن يجلوه ويخرجوه من وطنه، وسعوا فى ذلك ما أمكنهم .

[وهم بدأوكم أول مرة] حيث نقضوا العهد ، وأعانوا عليكم .

وذلك حيث أعانت قريش — وهم معاهدون — بنى بكر حلفاءهم ، على خزاعة ، حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط فى السيرة .

[أتخشونهم] فى ترك قتالهم [فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين] .

فالله أمركم بقتالهم ، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد .

فإن كنتم مؤمنين ، فامتثلوا لأمر الله ، ولا تخشوهم ، فتتركوا أمر الله .

ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد ، وكل هذا ، حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم فقال :

[قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم] بالقتل [ويخزهم] إذا نصركم الله عليهم ، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه .

[وينصركم عليهم] هذا وعد من الله وبشارة ، قد أنجزها .

[ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم] فإن فى قلوبهم من الحنق والغيظ عليهم ، ما يكون قتالهم وقتلهم ، شفاء لما فى قلوب المؤمنين

وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

من الغم ، والهم ، إذ يرون هؤلاء الأعداء ، محاربين لله ولرسوله ، ساعين في إطفاء نور الله ، وزوالاً للغيظ ، الذى فى قلوبكم .

وهذا يدل على محبة الله للمؤمنين ، واعتنائه بأحوالهم .

حتى إنه جعل — من جملة المقاصد الشرعية — شفاء ما فى صدورهم وذهاب غيظهم .

ثم قال : [ويتوب الله على من يشاء] من هؤلاء المحاربين ، بأن يوفقهم للدخول فى الإسلام ، ويزينه فى قلوبهم ، ويُكَرِّهَ إليهم الكفر والفسوق والعصيان .

[والله عليم حكيم] يضع الأشياء مواضعها ، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه ، ومن لا يصلح ، فيبقيه فى غيه وطغيانه .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

---

* يقول تعالى لعباده المؤمنين ـ بعد ما أمرهم بالجهاد ـ :

[أم حسبتم أن تتركوا] من دون ابتلاء وامتحان ، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب .

[ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم] أى : علماً يظهر ما فى القوة إلى الخارج ، ليترتب عليه الثواب والعقاب .

فيعلم الذين يجاهدون فى سبيله : لإعلاء كلمته [ولم يتخذوا من دون الله ولا المؤمنين وليجة[1]] أى: ولياً من الكافرين ، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء .

فشرع الله الجهاد ، ليحصل به هذا المقصود الأعظم ، وهو أن يتميز الصادقون ، الذين لا يتحيزون إلا لدين الله ، من الكاذبين ، الذين يزعمون الإيمان ، وهم يتخذون الولائج والأولياء ، من دون الله ، ورسوله ، والمؤمنين .

[والله خبير بما تعملون] أى : ما يصير منكم ويصدر ، فيبتليكم بما تظهر به حقيقة ما أنتم عليه ، ويجازيكم على أعمالكم ، خيرها وشرها .

---

(١) وليجة أى : أصدقاء وبطانة . تطلعونهم على جميع أسراركم وتعتمدون عليهم فى شئونكم قال الراغب فى شرح مفردات غريب القرآن (الوليجة كل مايتخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله من قولهم « فلان وليجة فى القوم » إذا لحق بهم وليس منهم ، إنسانا كان أو غيره) اهـ .

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ

---

* يقول تعالى : [ما كان] أى ما ينبغى ولا يليق [للمشركين أن يعمروا مساجد الله] بالعبادة ، والصلاة ، وغيرها من أنواع الطاعات ، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر ، بشهادة حالهم وفطرهم ، وعلم كثير منهم ، أنهم على الكفر والباطل .

فإذا كانوا [شاهدين على أنفسهم بالكفر] وعدم الإيمان ، الذى هو شرط لقبول الأعمال ، فكيف يزعمون أنهم عُمَّارُ مساجد الله ، والأصل منهم مفقود ، والأعمال منهم باطلة ؟ ! ! .

ولهذا قال : [أولئك حبطت أعمالهم] أى : بطلت وضلت [وفى النار هم خالدون] .

ثم ذكر من هم عمار مساجد الله فقال : [إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة] الواجبة والمستحبة ، بالقيام بالظاهر منها والباطن .

[وآتى الزكاة] لأهلها [ولم يخش إلا الله] أى قصر خشيته على ربه ، فكف عنه ما حرم الله ، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة .

فوصفهم بالإيمان النافع ، وبالقيام بالأعمال الصالحة ، التى أُمُّها ، الصلاة ، والزكاة ، وبخشية الله ، التى هى أصل كل خير .

وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ

فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها ، الذين هم أهلها .

[فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين] و« عسى » من الله واجبة .

وأما من لم يؤمن بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا عنده خشية لله ، فهذا ليس من عمار مساجد الله ، ولا من أهلها ، الذين هم أهلها ، وإن زعم ذلك ، وادعاه .

* لما اختلف بعض المسلمين ، أو بعض المسلمين وبعض المشركين ، فى تفضيل عمارة المسجد الحرام ، بالبناء ، والصلاة ، والعبادة فيه ، وسقاية الحاج ، على الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيله — أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما ، فقال:

[أجعلتم سقاية الحاج] أى : سقيهم الماء من زمزم ، كما هو المعروف ، إذا أطلق هذا الإسم ، أنه هو المراد [وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، لا يستوون عند الله] .

فالجهاد والإيمان بالله ، أفضل من سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، بدرجات كثيرة ، لأن الإيمان ، أصل الدين ، وبه تقبل الأعمال ، وتزكو الخصال .

وأما الجهاد فى سبيل الله ، فهو ذروة سنام الدين ، به يحفظ الدين الإسلامى ، ويتسع ، وينصر الحق ، ويخذل الباطل .

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾

وأما عمارة المسجد الحرام ، وسقاية الحاج ، فهى ، وإن كانت أعمالا صالحة ، فهى متوقفة على الإيمان ، وليس فيها من المصالح ، ما فى الإيمان والجهاد ، فلذلك قال :

[لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين] أى : الذين وصفهم الظلم ، الذين لا يصلحون لقبول شىء من الخير ، بل لا يليق بهم إلا الشر .

ثم صرح بالفضل فقال : [الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم] بالنفقة فى الجهاد ، وتجهيز الغزاة [وأنفسهم] بالخروج بالنفس [أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون] أى : لا يفوز بالمطلوب ، ولا ينجو من المرهوب ، إلا من اتصف بصفاتهم ، وتخلق بأخلاقهم .

[يبشرهم ربهم] رحمة منه ، وكرماً ، وبراً بهم ، واعتناء ومحبة لهم .

[برحمة منه] أزال بها عنهم الشرور ، وأوصل إليهم بها كل خير .

[ورضوان] منه تعالى عليهم ، الذى هو أكبر نعيم الجنة وأجله ، فيحل عليهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم أبداً .

[وجنات لهم فيها نعيم مقيم] من كل ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، مما لا يعلم وصفه ومقداره ، إلا الله تعالى ، الذى منه أن الله أعد للمجاهدين

خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ

فى سبيله ، مائة درجة ، ما بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض ، ولو اجتمع الخلق فى درجة واحدة منها لوسعتهم .

[خالدين فيها أبداً] لا ينتقلون عنها ، ولا يبغون عنها حِوَلاً .

[إن الله عنده أجر عظيم] لا تستغرب كثرته على فضل الله ، ولا يتعجب من عظمه وحسنه ، على من يقول للشيء كن فيكون .

* يقول تعالى : [يا أيها الذين آمنوا] اعملوا بمقتضى الإيمان ، بأن توالوا من قام به ، وتعادوا من لم يقم به .

و [لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم] الذين هم أقرب الناس إليكم . وغيرهم من باب أولى وأحرى ، فلا تتخذوهم [أولياء إن استحبوا] أى : اختاروا على وجه الرضا والمحبة [الكفر على الإيمان] .

[ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون] لأنهم تجرأوا على معاصى الله ، واتخذوا أعداء الله أولياء .

وأصل الولاية : المحبة والنصرة .

وذلك أن اتخاذهم أولياء ، موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله ، ومحبتهم على محبة الله ورسوله .

فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك ، وهو أن محبة الله ورسوله ، يتعين تقديمها على محبة كل شىء ، وجعل جميع الأشياء تابعة لها فقال :

[قل إن كان آباؤكم] ومثلهم الأمهات [وأبناؤكم وإخوانكم] فى النسب والعشيرة [وأزواجكم وعشيرتكم] أى : قراباتكم عموما [وأموال اقترفتموها] أى : اكتسبتموها ، وتعبتم فى تحصيلها .

خصها بالذكر ، لأنها أرغب عند أهلها ، وصاحبها أشد حرصا عليها ، ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كدّ .

[وتجارة تخشون كسادها] أى : رخصها ونقصها ، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات ، من الأثمان ، والأوانى ، والأسلحة ، والأمتعة ، والحبوب ، والحروث ، والأنعام ، وغير ذلك .

[ومساكن ترضونها] من حسنها وزخرفتها ، وموافقتها لأهوائكم .

فإن كانت هذه الأشياء [أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله] فأنتم فسقة ظلمة .

[فتربصوا] أي : انتظروا ما يحل بكم من العقاب [حتى يأتى الله بأمره] الذى لا مرد له .

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

[والله لا يهدى القوم الفاسقين] أى : الخارجين عن طاعة الله ، المقدمين على محبة الله ، شيئاً من المذكورات .

وهذه الآية الكريمة ، أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله ، وعلى تقديمها على محبة كل شىء .

وعلى الوعيد الشديد[1] والمقت الأكيد ، على من كان شىء من المذكورات أحب إليه من الله ورسوله ، وجهاد فى سبيله .

وعلامة ذلك ، أنه إذا عرض عليه أمران ، أحدهما يحبه الله ورسوله ، وليس لنفسه فيها هوى .

والآخر ، تحبه نفسه وتشتهيه ، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوباً لله ورسوله ، أو ينقصه .

فإنه إن قدم ما تهواه نفسه ، على ما يحبه الله ، دل على أنه ظالم ، تارك لما يجب عليه .

---

(١) قوله (وعلى الوعيد الشديد الخ) معطوف على قوله السابق (على وجوب) .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ

---

* يمتن تعالى ، على عباده المؤمنين ، بنصره إياهم فى مواطن كثيرة من مواطن اللقاء ، ومواضع الحروب والهيجاء ، حتى فى يوم « حنين » الذى اشتدت عليهم فيه الأزمة ، ورأوا من التخاذل والفرار ، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبها وسعتها .

وذلك أن النبى صلى الله مليه وسلم ، لما فتح مكة ، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه .

فسار إليهم صلى الله عليه وسلم ، فى أصحابه ، الذين فتحوا مكة ، وممن أسلم من الطلقاء ، أهل مكة .

فكانوا اثنى عشر ألفاً ، والمشركون أربعة آلاف .

فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم ، وقال بعضهم :

لن نغلب اليوم من قلة .

فلما التقوا ، هم وهوازن ، حملوا على المسلمين حملة واحدة ، فانهزموا ، لايلوى أحد على أحد ، ولم يبق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا نحو مائة رجل ، ثبتوا معه ، وجعلوا يقاتلون المشركين .

وجعل النبى صلى الله عليه وسلم ، يركض بغلته نحو المشركين ويقول « أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ

ولما رأى من المسلمين ما رأى ، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادى فى الأنصار ، وبقية المسلمين ، وكان رفيع الصوت فناداهم :

يا أصحاب السمرة ، يا أهل سورة البقرة .

فلما سمعوا صوته ، عطفوا عطفة رجل واحد ، فاجتلدوا مع المشركين .

فهزم الله المشركين ، هزيمة شنيعة ، واستولوا على معسكرهم،ونسائهم، وأموالهم .

وذلك قوله تعالى [لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين] وهو اسم للمكان الذى كانت فيه الوقعة بين مكة والطائف .

[إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً] أى : لم تفدكم شيئاً ، قليلا ولا كثيراً [وضاقت عليكم الأرض] بما أصابكم من الهم والغم ، حين انهزمتم [بما رحبت] أى على رحبها وسعتها .

[ثم وليتم مدبرين] أى منهزمين .

[ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين] والسكينة : ما يجعله الله فى القلوب ، وقت القلاقل والزلازل ، والمفظعات ، ما يثبتها ، ويسكنها، ويجعلها مطمئنة ، وهى من نعم الله العظيمة على العباد .

[وأنزل جنوداً لم تروها] وهم الملائكة ، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين ، يثبتونهم ، ويبشرونهم بالنصر .

[وعذب الذين كفروا] بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نسائهم وأولادهم وأموالهم .

كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ

[وذلك جزاء الكافرين] يعذبهم الله فى الدنيا ، ثم يردهم فى الآخرة إلى عذاب غليظ .

[ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء] فتاب الله على كثير ، ممن كانت الوقعة عليهم ، وأتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، مسلمين تائبين ، فرد عليهم نساءهم ، وأولادهم .

[والله غفور رحيم] أى : ذو مغفرة واسعة ، ورحمة عامة ، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين ، ويرحمهم — بتوفيقهم للتوبة والطاعة ، والصفح عن جرائمهم ، وقبول توباتهم .

فلا ييأسنَّ أحد من رحمته ومغفرته ، ولو فعل من الذنوب والإجرام ، ما فعل .

* يقول تعالى [ياأيها الذين آمنوا إنما المشركون] بالله الذين عبدوا معه غيره [نجس] أى خبثاء فى عقائدهم وأعمالهم .

وأى نجاسة أبلغ ، ممن كان يعبد مع الله آلهة ، لا تنفع ولا تضر ، ولا تغنى عنه شيئاً ؟ ! ! .

وأعمالهم ما بين محاربة لله ، وصد عن سبيل الله ، ونصر للباطل ، ورد للحق ، وعمل بالفساد فى الأرض لا فى الصلاح .

مِن فَضْلِهِ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها ، عنهم .

[فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا] وهو سنة تسع من الهجرة ، حين حج بالناس أبو بكر الصديق .

وبعث النبي صلى الله عليه وسلم ابن عمه ، علياً ، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ « براءة » .

فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

وليس المراد هنا ، نجاسة البدن ، فإن الكافر ـ كغيره ـ طاهر البدن ، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها ، ولم يأمر بغسل ما أصاب منها .

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار ، ولم ينقل عنهم أنهم تقذروا منها ، تَقَذُّرَهُمْ من النجاسات .

وإنما المراد ـ كما تقدم ـ نجاستهم المعنوية ، بالشرك .

فكما أن التوحيد والإيمان ، طهارة ، فالشرك نجاسة .

وقوله [وإن خفتم] أيها المسلمون [عيلة] أى : فقراً وحاجة ، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام ، بأن تنقطع الأسباب التى بينكم وبينهم ، من الأمور الدنيوية .

[فسوف يغنيكم الله من فضله] فليس الرزق مقصوراً على باب واحد ، ومحل واحد ، بل لا ينغلق باب ، إلا وفتح غيره أبواب كثيرة ، فإن فضل الله واسع ، وجوده عظيم .

. . . .

خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجه الله الكريم ، فإن الله أكرم الأكرمين .

وقد أنجز الله وعده ، فإن الله قد أغنى المسلمين من فضله ، وبسط لهم من الأرزاق ، ما كانوا به من أكبر الأغنياء والملوك .

وقوله : [إن شاء] تعليق للإغناء بالمشيئة ، لأن الغنى فى الدنيا ، ليس من لوازم الإيمان ، ولا يدل على محبة الله ، فلهذا علقه الله بالمشيئة .

فإن الله يعطى الدنيا ، من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان والدين ، إلا من يحب .

[إن الله عليم حكيم] أى : علمه واسع ، يعلم من يليق به الغنى ، ومن لا يليق .

ويضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها .

وتدل الآية الكريمة ، وهى قوله [فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا] ، أن المشركين — بعد ما كانوا ، هم الملوك والرؤساء بالبيت ، ثم صار بعد الفتح ، الحكم لرسول الله والمؤمنين ، مع إقامتهم فى البيت ، ومكة المكرمة ، ثم نزلت هذه الآية .

ولما مات النبى صلى الله عليه وسلم ، أمر أن يجلوا من الحجاز ، فلا يبقى فيها دينان .

وكل هذا لأجل بُعْدِ كل كافر عن المسجد الحرام ، فيدخل فى قوله [فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا] .

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ

---

* هذه الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من [الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر] إيماناً صحيحاً يصدقونه بأفعالهم وأعمالهم.

[ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله] فلا يتبعون شرعه ، فى تحريم المحرمات .

[ولا يدينون دين الحق] أى : لا يدينون بالدين الصحيح ، وإن زعموا أنهم على دين ، فإنه دين ، غير الحق .

لأنه إما دين مبدل ، وهو : الذى لم يشرعه الله أصلا .

وإما دين منسوخ قد شرعه الله ، ثم غيره بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، فيبقى التمسك به بعد النسخ ، غير جائز .

فأمره بقتال هؤلاء ، وحث على ذلك ، لأنهم يدعون إلى ما هم عليه ، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس ، بسبب أنهم أهل كتاب .

وغيي ذلك القتال [حتى يعطو الجزية] أى : المال الذى يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم ، وإقامتهم آمنين على أنفسهم وأموالهم ، بين أظهر المسلمين ، يؤخذ منهم كل عام ، كلٌّ على حسب حاله ، من غنى ، وفقير ، ومتوسط ، كما فعل ذلك أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب وغيره ، من أمراء المؤمنين .

وقوله [عن يد] أى : حتى يبذلوها فى حال ذلهم ، وعدم اقتدارهم ، ويعطوها بأيديهم ، فلا يرسلون بها خادما ، ولا غيره ، بل لا تقبل إلا

مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

من أيديهم . هم صاغرون[1]] .

فإذا كانوا بهذه الحال ، وسألوا المسلمين أن يقروهم بالجزية ، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم ، وحال الأمن من شرهم وفتنتهم ، واستسلموا للشروط التى أجراها المسلمون ، بما ينفى عزهم وتكبرهم ، ويوجب ذلهم وصغارهم ، وجب على الإمام أو نائبه ، أن يعقدها لهم .

وإلا ، بأن لم يفوا ، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، لم يجز إقرارهم بالجزية ، بل يقاتلون حتى يسلموا .

واستدل بهذه الآية ، الجمهور ، الذين يقولون : لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب ، لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا منهم .

وأما غيرهم ، فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا .

وألحق بأهل الكتاب ـ فى أخذ الجزية ، وإقرارهم فى ديار المسلمين ، المجوس .

فإن النبي صلى الله عليه وسلم ، أخذ الجزية من مجوس هجر .

ثم أخذها أمير المؤمنين عمر ، من الفرس المجوس .

وقيل : إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار، من أهل الكتاب وغيرهم.

لأن هذه الآية ، نزلت بعد الفراغ من قتال العرب المشركين

(١) صاغرون ، أى : طائعون منقادون .

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن

والشروع فى قتال أهل الكتاب ونحوهم ، فيكون هذا القيد إخباراً بالواقع ، لا مفهوماً له .

ويدل على هذا ، أن المجوس أخذت منهم الجزية ، وليسوا أهل كتاب .

ولأنه قد تواتر عن المسلمين ، من الصحابة ومن بعدهم ، أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث .

إما الإسلام ، أو أداء الجزية ، أو السيف ، من غير فرق بين كِتَابِيٍّ وغيره .

* لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب ، ذكر من أقوالهم الخبيثة ، مايهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينهم ، على قتالهم ، والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال :

[وقالت اليهود عزيز ابن الله] وهذه المقالة ، وإن لم تكن مقالة لعامتهم فقد قالها فرقة منهم

فيدل ذلك ، على أن فى اليهود ، من الخبث والشر ، ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة ، التى تجرأوا فيها على الله ، وتنقصوا عظمته وجلاله .

وقد قيل : إن سبب ادعائهم فى « عزير » أنه ابن الله ، أنه لما تسلط الملوك على بنى إسرائيل ، ومزقوهم كل ممزق ، وقتلوا حَمَلَةَ التوراة ، وجدوا عزيرا بعد ذلك ، حافظا لها أو أكثرها ، فأملاها عليهم من حفظه ، واستنسخوها ، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة .

قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟

[وقالت النصارى المسيح] عيسى بن مريم [ابن الله] .

قال الله تعالى [ذلك] القول الذى قالوه [قولهم بأفواههم] لم يقيموا عليه حجة ولا برهانا .

ومن كان لايبالى بما يقول ، لا يستغرب عليه أى قول يقوله ، فإنه لادين ولاعقل ، يحجزه ، عما يريد من الكلام .

ولهذا قال : [يضاهئون] أي : يشابهون فى قولهم هـذا [قول الذين كفروا من قبل] أى : قول المشركين الذين يقولون : « الملائكة بنات الله » تشابهت أقوالهم فى البطلان .

[قاتلهم الله أنَّى يؤفكون] أي : كيف يصرفون على الحق ، الصرف الواضح المبين ، إلى القول الباطل المبين .

وهذا ـ وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة ، أن تتفق على قول ـ يدل على بطلانه ، أدنى تفكر وتسليط للعقل عليه ـ فإن لذلك سببا وهو أنهم :

[اتخذوا أحبارهم] وهم علماؤهم [ورهبانهم] أى : العُبَّاد المتجردين للعبادة .

[أربابا من دون الله] يُحِلُّون لهم ماحرم الله ، فيحلونه ، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه ، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها .

وكانوا أيضاً يغلون فى مشايخهم وعبادهم ، ويعظمونهم ، ويتخذون

إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ

قبورهم أوثانا ، تعبد من دون الله ، وتقصد بالذبائح ، والدعاء ، والاستغاثة .

[والمسيح بن مريم] اتخذوه إلها من دون الله .

والحال أنهم خالفوا فى ذلك ، أمر الله لهم على ألسنة رسله قال الله تعالى :

[وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلاهو] فيخلصون له العبادة والطاعة ، ويخصونه بالمحبة والدعاء .

فنبذوا أمر الله ، وأشركوا به ، ما لم ينزل به سلطانا .

[وسبحانه] وتعالى [عما يشركون] أى : تنزه وتقدس ، وتعالت عظمته عن شركهم وافترائهم ، فإنهم ينتقصونه فى ذلك ، ويصفونه بما لا يليق بجلاله .

والله تعالى العالى فى أوصافه وأفعاله ، عن كل ما نسب إليه ، مما ينافى كماله المقدس .

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه ، ولا برهان لما أصّلوه ، وإنما هو مجرد قول قالوه ، وافتراء افتروه ـ أخبر أنهم [يريدون] بهذا [أن يطفئوا نور الله بأفواههم] .

ونور الله : دينه ، الذى أرسل به الرسل ، وأنزل به الكتب .

وسماه الله نوراً ، لأنه يستنار به فى ظلمات الجهل ، والأديان الباطلة .

وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

فإنه علم بالحق ، وعمل بالحق ، وما عداه ، فإنه بضده .

فهؤلاء اليهود والنصارى ، ومن ضاهاهم من المشركين ، يريدون أن يطفئوا نور الله ، بمجرد أقوالهم ، التى ليس عليها دليل أصلا .

[ويأبى الله إلاَّ أن يتم نوره] لأنه النور الباهر ، الذى لا يمكن لجميع الخلق ، لو اجتمعوا على إطفائه ، أن يطفئوه .

والذى أنزله ، جميع نواصى العباد بيده .

وقد تكفل بحفظه ، من كل من يريده بسوء ، ولهذا قال :

[ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون] وسعوا ما أمكنهم فى رده وإبطاله ، فإن سعيهم ، لا يضر الحق شيئا .

* ثم بين تعالى ، هذا النور الذى قد تكفل بإتمامه وحفظه ، فقال :

[هو الذى أرسل رسوله بالهدى] الذى هو العلم النافع [ودين الحق] الذى هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وسلم ، مشتملا على بيان الحق من الباطل ، فى أسماء الله ، وأوصافه ، وأفعاله، وفى أحكامه وأخباره ، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب ، والأرواح ، والأبدان ، من إخلاص الدين لله وحده ، ومحبة الله وعبادته ، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، والأعمال الصالحة ، والآداب النافعة ، والنهى عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه ، من الأخلاق ، والأعمال السيئة ، المضرة للقلوب والأبدان ، والدنيا والآخرة .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

فأرسله الله بالهدى ودين الحق [ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون] أى : ليعليه على سائر الأديان ، بالحجة والبرهان ، والسيف والسنان .

وإن كره المشركون ذلك ، وبغوا له الغوائل ، ومكروا مكرهم ، فإن المكر السيء ، لا يضر إلا صاحبه .

فوعد الله ، لابد أن ينجزه ، وما ضمنه ، لابد أن يقوم به .

* هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين ، عن كثير من الأحبار والرهبان ، أى : العلماء والعباد ، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ، أى : بغير حق ، ويصدون عن سبيل الله .

فإنهم — إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس ، أو بذل الناس لهم من أموالهم - فإنه لأجل علمهم وعبادتهم ، ولأجل هداهم وهدايتهم .

وهؤلاء يأخذونها ، ويصدون الناس عن سبيل الله ، فيكون أخذهم لها ، على هذا الوجه ، سحتا وظلما .

فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم ، إلا ليدلوهم على الطريق المستقيم .

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق ، أن يعطوهم ليفتوهم ، أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله .

فهؤلاء الأحبار والرهبان ، ليحذر منهم هاتان الحالتان :

وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

أخذهم لأموال الناس بغير حق ، وصدهم الناس عن سبيل الله .

* [والذين يكنزون الذهب والفضة] أى : يمسكونها [ولا ينفقونها فى سبيل الله] أى : طرق الخير الموصلة إلى الله ، وهذا هو الكنز المحرم ، أن يمسكها عن النفقة الواجبة .

كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات ، أو الأقارب ، أو النفقة فى سبيل الله إذا وجبت .

[فبشرهم بعذاب أليم] . ثم فسره بقوله [يوم يحمى عليها] .

أى : على أموالهم .

[فى نار جهنم] فيحمى كل دينار أو درهم على حدته .

[فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم] فى يوم القيامة كلما بردت أعيدت فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ويقال لهم توبيخاً ولوماً :

[هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون] فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم ، وعذبتموها بهذا الكنز .

وذكر الله فى هاتين الآيتين ، انحراف الإنسان فى ماله ، وذلك بأحد أمرين :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ

إما أن ينفقه فى الباطل ، الذى لا يجدى عليه نفعاً ، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض .

وذلك كإخراج الأموال فى المعاصى والشهوات ، التى لاتعين على طاعة الله ، وإخراجها للصد عن سبيل الله .

وإما أن يمسك ماله عن إخراجه فى الواجبات ، و« النهى عن الشىء ، أمر بضده » .

* يقول تعالى [إن عدة الشهور عند الله] أى فى قضاء الله وقدره .

[اثنا عشر شهراً] وهى هذه الشهور المعروفة [فى كتاب الله] أى فى حكمه القدرى .

[يوم خلق السموات والأرض] وأجرى ليلها ونهارها ، وقدر أوقاتها فقسمها على هذه الشهور الاثنى عشر شهراً .

[منها أربعة حرم] وهى : رجب الفرد ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم .

وسميت حرما ، لزيادة حرمتها ، وتحريم القتال فيها .

[فلا تظلموا فيهن أنفسكم] يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثنى عشر شهرا ، وأن الله تعالى ، بين أنه جعلها مقادير للعباد ، وأن تعمر بطاعته ،

كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

ويشكر الله تعالى على مِنَّتِهِ بها ، وتقييضها لصالح العباد ، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها .

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم ، وأن هـذا نهى لهم عن الظلم فيها ، خصوصا مع النهى عن الظلم كل وقت ، لزيادة تحريمها ، وكون الظلم فيها أشد منه فى غيرها .

ومن ذلك ، النهى عن القتال فيها ، على قول من قال : إن القتال فى الأشهر الحرم لم ينسخ تحريمه ، عملا بالنصوص العامة فى تحريم القتال فيها .

ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ ، أخذا بعموم نحو قوله تعالى: [وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة] أى : قاتلوا جميع أنواع المشركين ، والكافرين برب العالمين .

ولا تخصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد ، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك ، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم ، لا يألونهم من الشر شيئا .

ويحتمل أن [كافة] حال من الواو فيكون معنى هذا :

وقاتلوا جميعكم [1] المشركين ، فيكون فيها وجوب النفير ، على جميع المؤمنين .

(١) الأولى أن يقال « مجتمعين » كلكم حتى يتضح معنى الاحتمال الأخير ولأن الحال يجب أن تكون مشتقة ، وكلمة (جميع) ليست مشتقة فلا يصار إلى التأويل إذا أمكن عدمه .

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ

وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله : [وما كان المؤمنون لينفروا كافة] الآية .

[واعلموا أن الله مع المتقين] بعونه ، ونصره ، وتأييده .

فلتحرصوا على استعمال تقوى الله ، فى سركم ، وعلنكم ، والقيام بطاعته .

خصوصا عند قتال الكفار ، فإنه فى هذه الحال ، بما ترك المؤمن العمل بالتقوى فى معاملة الكفار الأعداء المحاربين .

* النسيء هو : ما كان أهل الجاهلية يستعملونه فى الأشهر الحرم .

وكان من جملة بدعهم الباطلة ، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال ، فى بعض أوقات الأشهر الحرم ، رأوا - بآرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم ، التى حرم الله القتال فيها ، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم ، أو يقدموه ، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ، ما أرادوا .

فإذا جعلوه مكانه ، أحلوا القتال فيه ، وجعلوا الشهر الحلال حراماً .

فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة فى كفرهم وضلالهم ، لما فيه من المحاذير .

منها : أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه .

والله ورسوله بريئان منه .

فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

ومنها : أنهم قلبوا الدين ، فجعلوا الحلال حراماً ، والحرام حلالا .

ومنها : أنهم مَوَّهوا على الله بزعمهم ، وعلى عباده ، ولبسوا عليهم دينهم ، واستعملوا الخداع والحيلة فى دين الله.

ومنها : أن العوائد المخالفة للشرع ، مع الاستمرار عليها ، يزول قبحها عن النفوس .

وربما ظن ، أنها عوائد حسنة ، فحصل من الغلط والضلال ، ما حصل .

ولهذا قال : [يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله] أى : ليوافقوها فى العدد ، فيحلوا ما حرم الله .

[زين لهم سوء أعمالهم] أى : زينت لهم الشياطين ، الأعمال السيئة ، فرأوها حسنة ، بسبب العقيدة المزينة فى قلوبهم .

[والله لا يهدى القوم الكافرين] أى : الذين انصبغ الكفر والتكذيب فى قلوبهم ، فلو جاءتهم كل آية ، لم يؤمنوا .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأَخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾

اعلم أن كثيراً من هذه السورة الكريمة ، نزلت فى غزوة تبوك .

إذ ندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى غزو الروم ، وكان الوقت حاراً ، والزاد قليلا ، والمعيشة عسرة .

فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ، ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم ، فقال تعالى :

* [يا أيها الذين آمنوا] ألا تعلمون بمقتضى الإيمان ، ودواعى اليقين ، من المبادرة لأمر الله ، والمسارعة إلى رضاه ، وجهاد أعدائه لدينكم .

فـ[ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثَّاقلتم إلى الأرض] أى : تكاسلتم ، وملتم إلى الأرض ، والدعة ، والسكون فيها .

[أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة] أى : ما حالكم إلا حال من رضى بالدنيا ، وسعى لها ، ولم يبال بالآخرة ، فكأنه ما آمن بها .

[فما متاع الحياة الدنيا] التى مالت بكم ، وقدمتموها على الآخرة [إلا قليل] .

أفليس قد جعل الله لكم عقولا ، تَزِنُون بها الأمور ، وأيها أحق بالإيثار ؟ .

أفليست الدنيا ـ من أولها إلى آخرها ـ لا نسبة لها فى الآخرة .

إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

فما مقدار عمر الإنسان القصير جدا من الدنيا ، حتى يجعله الغاية ، التى لا غاية وراءها .

فيجعل سعيه ، وكده وهمه ، وإرادته ، لايتعدى الحياة الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار ، المشحونة بالأخطار .

فبأى رَأْيٍ ، رأيتم إيثارها على الدار الآخرة ، الجامعة لكل نعيم ، التى فيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وأنتم فيها خالدون .

فوالله ما آثر الدنيا على الآخرة ، من وقر الإيمان فى قلبه ، ولا من جزل رأيه ، ولا من عُدَّ من أولى الألباب .

ثم توعدهم على عدم النفير فقال :

[إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما] فى الدنيا والآخرة .

فإن عدم النفير فى حال الاستنفار ، من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب ، لما فيه من المضار الشديدة .

فإن المتخلف ، قد عصى الله تعالى ، وارتكب لنهيه ، ولم يساعد على نصر دين الله ، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه ، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم ، الذى يريد أن يستأصلهم ، ويمحق دينهم .

وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان ، بل ربما فَتَّ فى أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله .

فحقيق بمن هذا حاله ، أن يتوعده الله بالوعيد الشديد ، فقال :

* [إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوماً غيركم ولاتضروه شيئا] .

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ

فإنه تعالى متكفل بنصرة دينه وإعلاء كلمته .

فسواء امتثلتم لأمر الله ، أو ألقيتموه وراءكم ظهريا .

[والله على كل شيء قدير] لايعجزه شيء أراده ، ولا يغالبه أحد .

* أى : إلا تنصروا رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، فالله غنى عنكم ، لاتضرونه شيئا .

فقد نصره فى أقل ما يكون [إذ أخرجه الذين كفروا] من مكة ، لما هموا بقتله ، وسعوا فى ذلك ، وحرصوا أشد الحرص ، فالجأوه إلى أن يخرج .

[ثانى اثنين] أى : هو وأبو بكر الصديق رضى الله عنه .

[إذ هما فى الغار] أى : لما هربا[1] من مكة ، لجآ إلى غار ثور ، فى أسفل

---

(١) قوله (لما هربا) تعبير فيه ما فيه من المؤاخذات .

والذى يتتبع كتب السيرة وتمهيدات الهجرة النبوية ، يعلم يقيناً ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يحرك ساكنا ، ولم يأت بعمل ، إلا بأمر الله تعالى ،

وقد تحمل صلى الله عليه وسلم ، من أذى قريش ، ما لا يتحمله إلا أشد الناس ، وأشجع من خلق الله تعالى .

ولا يستغرب ذلك منه ، عليه الصلاة والسلام ، لأنه سيد أولى العزم من الرسل وأشجعهم .

فلو كان خروجه هرباً من المشركين ، لهام على وجهه ، ولم يلبث بمكة =

. . . .

= ولا ما يقربها من الأماكن ، لحظة واحدة ، كما هو شأن الهاربين .

ولم يكن مكثه فى الغار ، تلك الأيام ، إلا تشريعاً للأمة ، وتعليما لهم ، بأخذ الحيطة فى الأمور المتأزمة .

تصفح معى كتب السيرة ، تعلم تماماً ، أن تحركات النبى كلها ، لم تكن إلا بالوحى الإلهى .

وذلك أنه لما تآمرت قريش على قتله ، وانتدبت من كل قبيلة شاباً جلداً ، فى يد كل واحد سيف صارم تنزل عليه تلك السيوف دفعة واحدة ، فيتفرق دمه فى القبائل .

فلا يستطيع بنو هاشم محاربة كل العرب ، فتقدم ديته إليهم وينقضى الأمر .

ودخلت المسألة فى دور التنفيذ .

فحاصر هؤلاء الشبان ، بيت النبى ، وأحاطوا به ، إحاطة الهالة بالقمر ، والأكمام بالثمر .

ومع هذا فهو ثابت الجأش ، رابط القلب .

فنزل عليه جبريل يبلغه أمر الله إياه بالهجرة فامتثل الأمر ، وخرج شاقاً وسط تلك الجموع ذاراً فوق رءوسهم حفنة من رمل وهو يتلو قوله تعالى :

« وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون »

فاجتاز تلك الصفوف ، ولم يره أحد .

أيكون هذا العمل هرباً ؟ اللهم لا . =

. . . .

= أيكون اختباؤه خوفاً من المشركين ؟ اللهم لا ، بل تعليم للأمة فى أخذ الحيطة فى الأزمات ، وليقف على حركات قريش ، ويعلم مقاصدهم ، ولينكشف ما اعتزموا عليه .

وما قول الله [إذ أخرجه الذين كفروا] إلا من إطلاق السبب على المسبب .

وذلك أنه لما تفاقم إيذاء قريش للنبى وأصحابه ولم يبق ثمة علاج ، واستعصى الداء على الدواء ، ولم ينجع أى دواء ، وانتشرت الدعوة الإسلامية فى المدينة المنورة .

حينذاك أمره الله بالهجرة إلى دار صالحة التربة ، لبذر بذور الإسلام .

فخرج صلى الله عليه وسلم ، امتثالا لأمر الله ، واستقر فى المدينة .

فأخصبت الدعوة الإسلامية فيها ، وضربت جذور الدعوة فى أعماق الأرض ، وأخذت أصولها وفروعها فى السموق إلى السماء ، كما قال تعالى : (أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) .

فتكونت الدولة الإسلامية ، وخرجت جيوشها المظفرة ، ففتحت البلاد ، ومصرت الأمصار ، وحطمت دول الكفر ، وأتت على بنيان الطغيان من القواعد فهدمته ، وجعلته هشيما تذروه الرياح .

وما إضافة الله إخراج النبى إلى الذين كفروا ، إلا من إضافة السبب إلى المسبب كما قلنا ، لأنهم ركبوا رءوسهم فى العناد ، وبلغ إيذاؤهم للنبى وأصحابه ، نهايته ، وظهر لكل ذى عينين أن مكة يومئذ غير صالحة لنشر الدعوة الإسلامية فيها ، وبلغ السيل الزبى . =

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا

مكة ، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب .

فهما فى تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة ، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما فأنزل الله عليهما ، من نصره ، مالا يخطر على البال.

[إذ يقول] النبي صلى الله عليه وسلم [لصاحبه] أبى بكر لما حزن واشتد قلقه .

[لا تحزن إن الله معنا] بعونه ونصره وتأييده .

[فأنزل الله سكينته عليه] أى : الثبات والطمأنينة ، والسكون المثبتة للفؤاد .

= فاقتضت عدالة الله وحكمته ، أن أذن لرسوله بالهجرة من مكة ، ونسب هذا الخروج لمن تسبب فيه ، وهم المشركون .

فهذه الإجراءات كلها ، تلقى أسطع الأنوار على حقيقة تحركات النبى ، وأنها كلها كانت بأمر من الله ، أيكون عمر بن الخطاب أشجع من رسول حينما أعلن على ملأ من قريش أنه اعتزم على الهجرة وقال لهم كلمته التى تداولتها كتب السيرة (من أراد أن ييتم أطفاله ويرمل امرأته فليلقنى فى موضع كذا) فلم يتجرأ منهم أحد على ملاقاته ولا على منعه من الهجرة .

ومما بسطناه من الكلام ، يعلم القارىء أن قول المؤلف (لما هربا) تعبير غير لائق بالجناب النبوى ، فمعاذ الله أن يوصف الرسول بالهرب الذى هو من أخس الصفات .

وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ

ولهذا لما قلق صاحبه سكنه و« قال لا تحزن إن الله معنا » .

[وأيده بجنود لم تروها] وهى الملائكة الكرام ، الذين جعلهم الله حرساً له .

[وجعل كلمة الذين كفروا السفلى] أى : الساقطة المخذولة .

فإن الذين كفروا ، كانوا على حرد قادرين ، فى ظنهم أنهم يقدرون على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخذه ، حنقين عليه ، فعملوا غاية مجهودهم فى ذلك .

فخذلهم الله ، ولم يتم لهم مقصودهم ، بل ولا أدركوا شيئاً منه .

ونصر الله رسوله ، بدفعه عنه .

وهذا هو النصر المذكور فى هذا الموضع .

فإن النصر على قسمين ، نصر المسلمين إذا طمعوا فى عدوهم ، بأن يتم الله لهم ما طلبوا ، وقصدوا ، ويستولوا على عدوهم ، ويظهروا عليهم .

والثانى نصر المستضعف ، الذين طمع فيه عدوه القادر .

فنصر الله إياه ، أن يرد عنه عدوه ، ويدافع عنه ، ولعل هذا النصر أنفع النصرين .

ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين من هذا النوع .

وقوله [وكلمة الله هى العليا] أى كلماته القدرية ، وكلماته الدينية ، هى العالية على كلمة غيره ، التى من جملتها قوله :

(وكان حقا علينا نصر المؤمنين) ، (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا

فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) ، (وإن جندنا لهم الغالبون) .

فدين الله ، هو الظاهر العالى ، على سائر الأديان ، بالحجج الواضحة ، والآيات الباهرة والسلطان الناصر .

[والله عزيز] لا يغالبه مغالب ، ولا يفوته هارب .

[حكيم] يضع الأشياء مواضعها ، وقد يؤخر نصر حزبه ، إلى وقت آخر ، اقتضته الحكمة الإلهية .

وفى هذه الآية الكريمة ، فضيلة أبى بكر الصديق ، بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة ، وهى الفوز بهذه المنقبة الجليلة ، والصحبة الجميلة .

وقد أجمع المسلمون ، على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة .

ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبى بكر للنبى صلى الله عليه وسلم ، كافراً لأنه منكر للقرآن الذى صرح بها .

وفيها فضيلة السكينة ، وأنها من تمام نعمة الله على العبد ، فى أوقات الشدائد والمخاوف ، التى تطيش لها الأفئدة ، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه ، وثقته بوعده الصادق ، وبحسب إيمانه وشجاعته .

وفيها : أن الحزن قد يعرض لخواص عباده الصديقين ، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد — أن يسعى فى ذهابه عنه ، فإنه مضعف للقلب ، موهن للعزيمة .

﴿ انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ

---

* يقول تعالى ، لعباده المؤمنين ــ مهيجاً لهم على النفير فى سبيله :ــ [انفروا خفافا وثقالا] فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، والحر والبرد ، وفى جميع الأحوال .

[وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله] أى : ابذلوا جهدكم فى ذلك ، واستفرغوا وسعكم ، فى المال والنفس .

وفى هذا دليل ، على أنه ــ كما يجب الجهاد فى النفس ــ يجب فى المال ، حيث اقتضت الحاجة ، ودعت لذلك .

ثم قال [ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون] أى : الجهاد فى النفس والمال ، خير لكم من التقاعد عن ذلك ، لأن فيه رضا الله تعالى ، والفوز بالدرجات العاليات عنده ، والنصر لدين الله ، والدخول جملة جنده وحزبه .

[لو كان] خروجهم [عرضاً قريباً] أى : لطلب عرض قريب ، ومنفعة دنيوية ، سهلة التناول [و] كان السفر [سفراً قاصداً] أى : قريباً سهلا .

[لاتبعوك] لعدم المشقة الكثيرة .

[ولكن بعدت عليهم الشقة] أي : طالت عليهم المسافة ، وصعب عليهم السفر ، فلذلك تثاقلوا عنك .

وليس هذا من أمارات العبودية ، بل العبد حقيقة ، هو المتعبد لربه فى كل حال ، القائم بالعبادة السهلة والشاقة ، فهذا العبد لله على كل حال .

وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾

[وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم] أى : سيحلفون لتخلفهم عن الخروج — أن لهم عذراً ، وأنهم لا يستطيعون ذلك .

[يهلكون أنفسهم] بالقعود والكذب ، والإخبار بغير الواقع .

[والله يعلم إنهم لكاذبون] .

وهذا العتاب ، إنما هو للمنافقين ، الذين تخلفوا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فى « غزوة تبوك » وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا .

فعفا النبى صلى الله عليه وسلم عنهم بمجرد اعتذارهم ، من غير أن يمتحنهم ، فيتبين له الصادق من الكاذب ، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى قبول اعتذارهم فقال : (عفا الله عنك) إلى قوله (فى ريبهم يترددون)

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

* يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم [عفا الله عنك] أى : سامحك، وغفر لك ما أجريت .

[لم أذنت لهم] فى التخلف [حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين].

بأن تمحنهم ، ليتبين لك الصادق من الكاذب ، فتعذر من يستحق العذر ، ممن لا يستحق ذلك .

ثم أخبر ، أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون فى ترك الجهاد ، بأموالهم وأنفسهم ، لأن ما معهم من الرغبة فى الخير والإيمان ، يحملهم على الجهاد ، من غير أن يحثهم عليه حاث ، فضلا عن كونهم يستأذنون فى تركه من غير عذر .

[والله عليم بالمتقين] فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه .

ومن علمه بالمتقين ، أنه أخبر ، أن من علاماتهم ، أنهم لا يستأذنون فى ترك الجهاد .

[إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم] أى : ليس لهم إيمان تام ، ولا يقين صادق ، فلذلك قلّت رغبتهم فى الخير، وجبنوا عن القتال ، واحتاجوا أن يستأذنوا فى ترك القتال .

[فهم فى ريبهم يترددون] أى : لا يزالون فى الشك والحيرة .

﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ

---

* يقول تعالى : مبيناً أن المتخلفين من المنافقين ،قدظهر منهم من القرائن ، ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج بالكلية ، وأن أعذارهم التى اعتذروها ، باطلة ، فإن العذر ، هو المانع الذى يمنع ، إذا بذل العبد وسعه ، وسعى فى أسباب الخروج ، ثم منعه مانع شرعى ، فهذا الذى يعذر .

[و] أما هؤلاء المنافقون [لو أرادوا الخروج ، لأعدوا له عدة] أى : لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب .

ولكن لما لم يعدوا له عدة ، علم أنهم ما أرادوا الخروج .

[ولكن كره الله انبعاثهم] معكم فى الخروج للغزو [فثبطهم] قدراً وقضاء ، وإن كان قد أمرهم ، وحثهم على الخروج ، وجعلهم مقتدرين عليه .

ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم ، بل خذلهم وثبطهم [وقيل اقعدوا مع القاعدين] من النساء والمعذورين .

ثم ذكر الحكمة فى ذلك فقال [لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا] أى : نقصاً .

[ولأوضعوا خلالكم] أى : ولسعوا فى الفتنة والشر بينكم ، وفرقوا جماعتكم المجتمعين .

[يبغونكم الفتنة] أى : هم حريصون على فتنتكم ، وإلقاء العداوة بينكم .

وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

[وفيكم] أناس ضعفاء العقول [سماعون لهم] أى : مستجيبون لدعوتهم ، يغترون بهم .

فإذا كانوا حريصين على خذلانكم ، وإلقاء الشر بينكم ، وتثبيطكم عن أعدائكم ، وفيكم من يقبل منهم ، ويستنصحهم .

فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم ؟.

فلله ما أتم الحكمة حيث ثبطهم ، ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم ، ولطفاً من أن يداخلهم ، مالا ينفعهم ، بل يضرهم .

[والله عليم بالظالمين] فيعلم عباده كيف يحذرونهم ، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم .

ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق فى الشر فقال :

* [لقد ابتغوا الفتنة من قبل] أى : حين هاجرتم إلى المدينة ، فبذلوا الجهد .

[وقلبوا لك الأمور] : أى : أداروا الأفكار ، وأعملوا الحيل ، فى إبطال دعوتكم ، وخذلان دينكم ، ولم يقصروا فى ذلك .

[حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كافرون] فبطل كيدهم واضمحل باطلهم .

فحقيق بمثل هؤلاء ، أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم ، وأن لا يبالى المؤمنين ، بتخلفهم عنهم .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

---

* أى : ومن هؤلاء المنافقين ، من يستأذن فى التخلف ، ويعتذر بعذر آخر عجيب .

فيقول : [ائذن لى] فى التخلف [ولا تفتنى] فى الخروج .

فإنى إذا خرجت ، فرأيت نساء بنى الأصفر ، لا أصبر عنهن ، كما قال ذلك « الجد بن قيس » .

ومقصوده فى قلبه — قبحه الله — الرياء والنفاق ويعبر بلسانه بأن مقصودى مقصود حسن ، فإن فى خروجى فتنة وتعرضاً للشر ، وفى عدم خروجى ، عافية ، وكفاً عن الشر .

قال الله تعالى — مبيناً كذب هذا القول — [ألا فى الفتنة سقطوا] .

فإنه على تقدير صدق هذا القائل فى قصده ، فإن فى التخلف مفسدة كبرى ، وفتنة عظمى ، محققة ، وهى : معصية الله ، ومعصية رسوله ، والتجرى على الإثم الكبير ، والوزر العظيم .

وأما الخروج ، فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف ، وهى متوهمة .

مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير ، ولهذا توعدهم الله بقوله :

[وإن جهنم لمحيطة بالكافرين] ليس لهم عنها مفر ولا مناص ، ولا فكاك ، ولا خلاص .

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾

---

* يقول تعالى — مبيناً أن المنافقين، هم الأعداء حقاً، المبغضون للدين صرفاً.

[إن تصبك حسنة] كنصر وإدالة[1] على العدو [تسؤهم] أى: تحزنهم وتغمهم.

[وإن تصبك مصيبة] كإدالة العدو عليك [يقولوا] متبجحين بسلامتهم من الحضور معك.

[قد أخذنا أمرنا من قبل] أى: قد حذرنا وعملنا، بما ينجينا من الوقوع فى مثل هذه المصيبة.

[ويتولوا وهم فرحون] بمصيبتك، وبعدم مشاركتهم إياك فيها.

قال تعالى - رادًّا عليهم فى ذلك - [قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا] أى: ما قدره وأجراه فى اللوح المحفوظ.

[هو مولانا] أى: متولى أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره، وليس فى أيدينا من الأمر شىء.

[وعلى الله] وحده [فليتوكل المؤمنون] أى: ليعتمدوا عليه، فى جلب

---

(١) إدالة على العدو. أى: انتصار على العدو.

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

مصالحهم ، ودفع المضار عنهم ، وليثقوا به فى تحصيل مطلوبهم ، فلا خاب من توكل عليه .

وأما من توكل على غيره ، فإنه مخذول ، غير مدرك لما أمل .

* أى : قل للمنافقين ، الذين يتربصون بكم الدوائر : أى شىء تربصون بنا ؟

فإنكم لا تربصون بنا ، إلا أمراً ، فيه غاية نفعنا ، وهو إحدى الحسنيين .

إما الظفر بالأعداء ، والنصر عليهم ، ونيل الثواب الأخروى والدنيوى .

وإما الشهادة التي هى من أعلى درجات الخلق ، وأرفع المنازل عند الله .

وأما تربصنا بكم — يا معشر المنافقين — فنحن نتربص بكم ، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ، لا سبب لنا فيه ، أو بأيدينا ، بأن يسلطنا عليكم فنقتلكم .

[فتربصوا] بنا الخير [إنا معكم متربصون] بكم الشر .

﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾

---

* يقول تعالى ـ مبينا بطلان نفقات المنافقين ، وذاكراً السبب فى ذلك ـ

[قل] لهم [أنفقوا طوعا] من أنفسكم [أو كرها] على ذلك ، بغير اختياركم .

[لن يتقبل منكم] شىء من أعمالكم [إنكم كنتم قوما فاسقين] خارجين عن طاعة الله .

ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم بقوله :

[وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله] والأعمال كلها ، شرط قبولها ، الإيمان ، فهؤلاء ، لا إيمان لهم ، ولا عمل صالح .

حتى إن الصلاة ، التى هى أفضل أعمال البدن ، إذا قاموا إليها ، قاموا كسالى ، وقد بين الله ذلك فقال :

[ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى] أى : متثاقلون ، لا يكادون يفعلونها ، من ثقلها عليهم .

[ولا ينفقون إلا وهم كارهون] من غير انشراح صدر ، وثبات نفس .

ففى هذا ، غاية الذم ، لمن فعل مثل فعلهم .

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾

وأنه ينبغى للعبد ، أن لا يأتى الصلاة ، إلا وهو نشيط البدن ، والقلب إليها .

ولا ينفق ، إلا وهو منشرح الصدر ، ثابت القلب ، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده ، ولا يتشبه بالمنافقين .

* يقول تعالى : فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم ، فإنه لا غبطة فيها .

وأول بركاتها عليهم ، أن قدموها على مراضى ربهم ، وعصوا الله لأجلها [إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا] .

والمراد بالعذاب هنا ، ما ينالهم من المشقة فى تحصيلها ، والسعى الشديد فى ذلك ، وهم القلب فيها ، وتعب البدن .

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم ، لم يكن لها نسبة إليها ، فهى - لما ألهتهم عن الله وذكره - صارت وبالا عليهم ، حتى فى الدنيا .

ومن وبالها العظيم الخطر ، أن قلوبهم تتعلق بها ، وإرادتهم لاتتعداها فتكون منتهى مطلوبهم ، وغاية مرغوبهم ولا يبقى فى قلوبهم للآخرة نصيب ، فيوجب ذلك ، أن ينتقلوا من الدنيا [وتزهق أنفسهم وهم كافرون].

فأى : عقوبة أعظم من هذه العقوبة ، الموجبة للشقاء الدائم ، والحسرة الملازمة .

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

[ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ولكنهم] قصدهم في حلفهم هذا أنهم [قوم يفرقون] أي : يخافون الدوائر ، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم .

فيخافون إن أظهروا حالهم منكم ، ويخافون أن تتبرأوا منهم ، فيتخطفهم الناس من كل جانب .

وأما حال قوي القلب ، ثابت الجنان ، فإنه يحمله ذلك ، على بيان حاله ، حسنة كانت أو سيئة .

ولكن المنافقين خلع عليهم خلعة الجبن ، وحلوا بحلية الكذب .

ثم ذكر شدة جبنهم فقال : [لو يجدون ملجأ] يلجأون إليه عندما تنزل بهم الشدائد .

[أو مغارات] يدخلونها ، فيستقرون فيها [أو مدخلا] أي : محلا يدخلونه فيتحصنون فيه [لولوا إليه وهم يجمحون] أي : يسرعون ويهرعون . فليس لهم ملكة ، يقتدرون بها على الثبات .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

---

* أى : ومن هؤلاء المنافقين ، من يعيبك فى قسمة الصدقات ، وينتقد عليك فيها .

وليس انتقادهم فيها وعيبهم ، لقصد صحيح ، ولا لرأى رجيح ، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها .

[فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها ، إذا هم يسخطون] وهذه حالة ، لا ينبغى للعبد أن يكون رضاه وغضبه ، تابعاً لهوى نفسه الدنيوى ، وغرضه الفاسد .

بل الذى ينبغى ، أن يكون لمرضاة ربه ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم، « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

وقال هنا : [ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله] أى : أعطاهم من قليل وكثير .

[وقالوا حسبنا الله] أى : كافينا الله ، فنرضى بما قسمه لنا .

وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا : [سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون] أى : متضرعون فى جلب منافعنا ، ودفع مضارنا .

ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال : [إنما الصدقات] إلى [عليم حكيم] .

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

* يقول تعالى : [إنما الصدقات] أى : الزكوات الواجبة ، بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد ، لا يخص بها أحد دون أحد .

إنما الصدقات ـ لهؤلاء المذكورين ، دون من عداهم ، لأنه حصرها فيهم ، وهم ثمانية أصناف .

الأول والثانى . الفقراء ، والمساكين ، وهم فى هذا الموضع ، صنفان متفاوتان .

فالفقير ، أشد حاجة من المسكين ، لأن الله بدأ بهم ، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم ، ففسر الفقير ، بأنه الذى لا يجد شيئاً ، أو يجد بعض كفايته دون نصفها .

والمسكين : هو الذى يجد نصفها فأكثر ، ولا يجد تمام كفايته ، لأنه لو وجدها لكان غنياً ، فيعطون من الزكاة ، ما يزول به فقرهم ومسكنتهم .

والثالث : العاملون على الزكاة ، وهم : كل من له عمل وشغل فيها ، من حافظ لها ، وجابٍ لها من أهلها ، أو راعٍ ، أو حامل لها ، أو كاتب ، أو نحو ذلك .

فيعطون لأجل عمالتهم ، وهى أجرة لأعمالهم فيها .

والرابع : المؤلفة قلوبهم .

والمؤلفة قلبه هو : السيد المطاع فى قومه ، ممن يرجى إسلامه ، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته ، قوة إيمانه ، أو إسلام نظيره ، أو جبايتها ممن لا يعطيها .

فيعطى ، ما يحصل به التأليف والمصلحة .

وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ

الخامس : الرقاب ، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم .

فهم يسعون فى تحصيل ما يفك رقابهم ، فيعانون على ذلك من الزكاة .

وفك الرقبة المسلمة التي فى حبس الكفار ، داخل فى هذا ، بل أولى .

ويدخل فى هذا ، أنه يجوز أن يعتق الرقاب استقلالا ، لدخوله فى قوله « وفى الرقاب » .

السادس ، الغارمون ، وهم قسمان :

أحدهما : الغارمون لإصلاح ذات البين ، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس ، شر وفتنة ، فيتوسط الرجل للإ صلاح بينهم ، بما يبذله لأحدهم أو لهم كلهم .

فجعل له نصيب من الزكاة ، ليكون أنشط له ، وأقوى لعزمه ، فيعطى ، ولو كان غنياً .

والثانى: من غرم لنفسه ، ثم أعسر ، فإنه يعطى ما يُوَفِّى به دينه .

والسابع : الغازى فى سبيل الله ، وهم : الغزاة المتطوعة ، الذين لا ديوان لهم .

فيعطون من الزكاة ، ما يعينهم على غزوهم ، من ثمن سلاح ، أو دابة ، أو نفقة له ولعياله ، ليتوفر على الجهاد ، ويطمئن قلبه .

وقال كثير من الفقهاء : إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم ، أعطى من الزكاة ، لأن العلم داخل فى الجهاد فى سبيل الله .

فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

وقالوا أيضاً : يجوز أن يعطى منها الفقير ، لحج فرضه ، وفيه نظر .

والثامن : ابن السبيل ، وهو : الغريب المنقطع به فى غير بلده .

فيعطى من الزكاة ، ما يوصله إلى بلده .

فهؤلاء الأصناف الثمانية ، الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم .

[فريضة من الله] فرضها وقدرها ، تابعة لعلمه وحكمه [والله عليم حكيم].

واعلم أن هذه الأصناف الثمانية ، ترجع إلى أمرين .

أحدهما : من يعطى لحاجته ونفعه ، كالفقير ، والمسكين ، ونحوهما .

والثانى : من يعطى للحاجة إليه ، وانتفاع الإسلام به .

فأوجب الله هذه الحصة ، فى أموال الأغنياء ، لسد الحاجات الخاصة والعامة ، للإسلام والمسلمين .

فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم ، على الوجه الشرعى ، لم يبق فقير من المسلمين .

ولحصل من الأموال ، ما يسد الثغور ، ويجاهد به الكفار ، وتحصل به جميع المصالح الدينية .

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

* أى : من هؤلاء المنافقين [الذين يؤذون النبى] بالأقوال الردية ، والعيب له ولدينه .

[ويقولون هو أذن] أى : لايبالون بما يقولون من الأذية للنبى .

ويقولون : إذا بلغه عنا بعض ذلك ، جئنا نعتذر إليه ، فيقبل منا ، لأنه أذن ، أى : يقبل كل ما يقال له ، لايميز بين صادق وكاذب .

وقصدهم — قبحهم الله - فيما بينهم ، أنهم غير مكترثين بذلك ، ولا مهتمين به .

لأنه إذا لم يبلغه ، فهذا مطلوبهم ، وإن بلغه ، اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل .

فأساءوا كل الإساءة ، من أوجه كثيرة ، أعظمها أذية نبيهم ، الذى جاء لهدايتهم ، وإخراجهم من الشقاء والهلاك ، إلى الهدى والسعادة .

ومنها : عدم اهتمامهم أيضاً بذلك ، وهو قدر زائد على مجرد الأذية .

ومنها : قدحهم فى عقل النبى صلى الله عليه وسلم ، وعدم إدراكه ، وتفريقه بين الصادق والكاذب .

وهو أكمل الخلق عقلا ، وأتمهم إدراكا ، وأثقبهم رأيا وبصيرة ، ولهذا قال تعالى :

مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟

[قل أذن خير لكم] أى : يقبل من قال له خيراً وصدقا .

وأما إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكاذبة ، فلسعة خلقه ، وعدم اهتمامه بشأنهم ، وامتثاله لأمر الله فى قوله :

[سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم إنهم رجس] .

وأما حقيقة ما فى قلبه ورأيه ، فقال عنه : [يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين] الصادقين المصدقين ، ويعلم الصادق من الكاذب، وإن كان كثيرا مايعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم .

[ورحمة للذين آمنوا منكم] فإنهم به يهتدون ، وبأخلاقه يقتدون .

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة ، بل ردوها ، فخسروا دنياهم وآخرتهم .

[والذين يؤذون رسول الله] بالقول والفعل [لهم عذاب أليم] فى الدنيا والآخرة.

ومن العذاب الأليم ، أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتمه .

[يحلفون بالله لكم ليرضوكم] فيتبرأوا مما صدر منهم من الأذية وغيرها .

مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

فغايتهم أن ترضوا عليهم .

[والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين] لأن المؤمن لا يقدم شيئا على رضا ربه .

فدل هذا ، على انتفاء إيمانهم ، حيث قدموا رضا غير الله ورسوله .

وهذا محادة لله ، ومشاقة له ، وقد توعد من حاده بقوله :

[ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله] بأن يكون فى حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله ، وتجرأ على محارمه .

[فأن له نار جهنم خالدين فيها وذلك الخزى العظيم] الذى لا خزى أشنع ولا أفظع منه ، حيث فاتهم النعيم المقيم ، وحصلوا على عذاب الجحيم عياذا بالله من حالهم .

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

---

* كانت هذه السورة الكريمة ، تسمى « الفاضحة » لأنها بينت أسرار المنافقين ، وهتكت أستارهم .

فما زال الله يقول : ومنهم ومنهم ، ويذكر أوصافهم ، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين .

إحداهما : أن الله ستِّيرٌ ، يحب الستر على عباده .

والثانية : أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين ، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلي يوم القيامة .

فكان ذكر الوصف ، أعم وأنسب ، حتى خافوا غاية الخوف .

قال الله تعالى « لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا » .

وقال هنا [يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم] أى : تخبرهم وتفضحهم ، وتبين أسرارهم ، حتى تكون علانية لعباده ، ويكونوا عبرة للمعتبرين .

[قل استهزئوا] أى : استمروا على ما أنتم عليه ، من الاستهزاء والسخرية .

[إن الله مخرج ما تحذرون] وقد وفَّى تعالى بوعده ، فأنزل هذه السورة التى بينتهم وفضحتهم ، وهتكت أستارهم .

وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ

---

* [ولئن سألتهم] عما قالوه من الطعن فى المسلمين ، وفى دينهم ، يقول طائفة منهم فى غزوة تبوك « ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء — يعنون النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه — أرغب بطونا ، وأكذب ألسنا ، وأجبن عند اللقاء ونحو ذلك » .

ولما بلغهم أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قد علم بكلامهم ، جاءوا يعتذرون إليه ويقولون :

[إنما كنا نخوض ونلعب] أى : نتكلم بكلام ، لا قصد لنا به ، ولا قصدنا الطعن والعيب .

قال الله تعالى — مبينا عدم عذرهم وكذبهم فى ذلك : —

[قل] لهم [أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * قد كفرتم بعد إيمانكم] .

فإن الاستهزاء بالله ورسوله ، كفر مخرج عن الدين .

لأن أصل الدين ، مبنى على تعظيم الله ، وتعظيم دينه ورسله .

والاستهزاء بشىء من ذلك ، مناف لهذا الأصل ، ومناقض له أشد المناقضة .

ولهذا لما جاءوا إلى الرسول ، يعتذرون بهذه المقالة ، والرسول لايزيدهم على قوله [أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم] .

إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

وقوله [إن نعف عن طائفة منكم] لتوبتهم واستغفارهم وندمهم .

[نعذب طائفة] منكم [بأنهم] أى بسبب أنهم [كانوا مجرمين] مقيمين على كفرهم ونفاقهم .

وفى هذه الآيات ، دليل على أن من أسر سريرة ، خصوصا السريرة ، التى يمكر فيها بدينه ، ويستهزىء به وبآياته ورسوله ، فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ، ويعاقبه أشد العقوبة .

وأن من استهزأ بشىء من كتاب الله وسنة رسوله الثابتة عنه ، أو سخر بذلك ، أو تنقصه ، أو استهزأ بالرسول ، أو تنقصه ، فإنه كافر بالله العظيم ، وأن التوبة مقبولة من كل ذنب ، وإن كان عظيما .

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

---

* يقول تعالى : [المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض] لأنهم اشتركوا فى النفاق ، فاشتركوا فى تولِّى بعضهم بعضا ، وفى هـذا قطع للمؤمنين من ولايتهم .

ثم ذكر وصف المنافقين العام ، الذى لا يخرج منـه صغير منهم ولا كبير ، فقال :

[يأمرون بالمنـكر] وهو : الـكفر ، والفسوق ، والعصيان .

[وينهون عن المعروف] وهو : الإيمان ، والأخلاق الفاضلة ، والأعمال الصالحة ، والآداب الحسنة .

[ويقبضون أيديهم] عن الصدقة ، وطرق الإحسان ، فوصفهم البخل

[نسوا الله] فلا يذكرونه إلا قليلا .

[فنسيهم] من رحمته ، فلا يوفقهم لخير ، ولا يدخلهم الجنة ، بل يتركهم فى الدرك الأسفل من النار ، خالدين فيها ، مخلدين .

[إن المنافقين هم الفاسقون] حصر الفسق فيهم ، لأن فسقهم ، أعظم من فسق غيرهم ، بدليل أن عذابهم ، أشد من عذاب غيرهم ، وأن المؤمنين قد ابتـلوا بهم ، إذ كانوا بين أظهرهم ، والاحتراز منهم شديد .

[وعد الله المنافقين والمنافقات والـكفار ، نار جهنم خالدين فيها ، هى

وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾

حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم] جمع المنافقين والكفار ، فى نار جهنم ، واللعنة والخلود فى ذلك ، لاجتماعهم فى الدنيا على الكفر ، والمعاداة لله ورسوله ، والكفر بآياته .

* يقول تعالى واصفاً حال المنافقين : إن حالكم — أيها المنافقون — كحال أمثالكم ممن سبقوكم إلى النفاق والكفر ، وقد كانوا أقوى منكم وأكثر أموالا وأولاداً ، استمتعوا بما قدر لهم ، من حظوظ الدنيا ، وأعرضوا عن ذكر الله وتقواه ، وقابلوا أنبياءهم بالاستخفاف ، وسخروا منهم فيما بينهم وبين أنفسهم .

وقد استمتعتم بما قدر لكم ، من ملاذ الدنيا كما استمتعوا ، وخضتم فيما خاضوا فيه ، من المنكر والباطل .

إنهم قد بطلت أعمالهم ، فلم تنفعهم فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وكانوا هم الخاسرين .

وأنتم مثلهم فى سوء الحال والمآل ، والعاقبة الوخيمة .

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا

---

* يقول تعالى ـ محذراً للمنافقين ، أن يصيبهم ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم المكذبة .

قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات] أى : قرى قوم لوط .

فكلهم [أتتهم رسلهم بالبينات] أى : بالحق الواضح الجلى ، المبين لحقائق الأشياء ، فكذبوا بها ، فجري عليهم ، ماقص الله علينا فأنتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم .

[استمتعتم بخلاقكم] أى : بنصيبكم من الدنيا ، فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة ، معرضين عن المراد منه .

واستعنتم به على معاصى الله ، ولم تتعد همتكم وإرادتكم ، ما خولتم من النعم ، كما فعل الذين من قبلكم [وخضتم كالذى خاضوا] أى : وخضتم بالباطل والزور ، وجادلتم بالباطل ، لتدحضوا به الحق .

فهذه أعمالهم وعلومهم ، استمتاع بالخلاق ، وخوض بالباطل .

فاستحقوا من العقوبة والإهلاك ، ما استحق من قبلهم ، ممن فعلوا كفعلهم .

وأما المؤمنون منهم — وإن استمتعوا بنصيبهم ، وما خولوا من الدنيا ـ فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله .

وأما علومهم فهى علوم الرسل ، وهى الوصول ، إلى اليقين فى جميع المطالب العالية ، والمجادلة بالحق ؛ لإدحاض الباطل .

كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ

قوله [فما كان الله ليظلمهم] إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع .

[ولكن كانوا أنفسهم يظلمون] حيث تجرأوا على معاصيه ، وعصوا رسلهم ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد .

* لما ذكر أن المنافقين ، بعضهم من بعض ، ذكر أن المؤمنين ، بعضهم أولياء بعض ، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين فقال :

[والمؤمنون والمؤمنات] أى : ذكورهم وإناثهم [بعضهم أولياء بعض] فى المحبة والموالاة ، والانتماء والنصرة .

[يأمرون بالمعروف] وهو اسم جامع ، لكل ما عرف حسنه ، من العقائد الحسنة ، والأعمال الصالحة ، والأخلاق الفاضلة ، وأول من يدخل فى أمرهم أنفسهم .

[وينهون عن المنكر] وهو : كل ما خالف المعروف وناقضه ، من العقائد الباطلة ، والأعمال الخبيثة ، والأخلاق الرذيلة .

[ويطيعون الله ورسوله] أى لايزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام .

[أولئك سيرحمهم الله] أى : يدخلهم فى رحمته ، ويشملهم بإحسانه .

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً

[إن الله عزيز حكيم] أى : قوى قاهر ، ومع قوته ، فهو حكيم ، يضع كل شىء موضعه اللائق به ، الذى يحمد على ماخلقه وأمر به .

ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال :

* [وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار] جامعة لكل نعيم وفرح ، خالية من كل أذى وترح ، تجرى من تحت قصورها ، ودورها ، وأشجارها — الأنهار الغزيرة ، المروية للبساتين الأنيقة ، التى لايعلم ما فيها من الخيرات ، إلا الله تعالى .

[خالدين فيها] لا يبغون عنها حِوَلاً [ومساكن طيبة فى جنات عدن] قد زخرفت ، وحسنت ، وأعدت لعباد الله المتقين .

قد طاب مرآها ، وطاب منزلها ومقيلها ، وجمعت من آلات المساكن العالية ، مالا يتمنى فوقه المتمنون ، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرفا فى غاية الصفاء والحسن ، يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها .

فهذه المساكن الأنيقة ، التى حقيق بأن تسكن إليها النفوس ، وتنزع إليها القلوب ، وتشتاق لها الأرواح ، لأنها فى جنات عدن ، أى : إقامة لايظعنون عنها ، ولا يتحولون منها .

فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ

[ورضوان من الله] يحله على أهل الجنة [أكبر] مما هم فيه من النعيم .

فإن نعيمهم لم يطب ، إلا برؤية ربهم ، ورضوانه عليهم .

ولأنه الغاية ، التي أمَّها العابدون ، والنهاية ، التي سعى نحوها المحبون .

فرضا رب الأرض والسموات ، أكبر من نعيم الجنات .

[ذلك هو الفوز العظيم] حيث حصلوا على كل مطلوب ، وانتفى عنهم كل محذور ، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور ، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده .

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم [يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين] أي : بالغ فى جهادهم [واغلظ عليهم] حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم .

وهذا الجهاد يدخل فيه ، الجهاد باليد ، والجهاد بالحجة واللسان .

فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد ، واللسان ، والسيف والسنان .

عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُواْ

ومن كان مذعنا للإسلام ، بذمة أو عهد ، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان ويبين له محاسن الإسلام ، ومساوى الشرك والكفران ، فهذا مالهم فى الدنيا .

[و] أما فى الآخرة ، فإن [مأواهم جهنم] أى : مقرهم الذى لا يخرجون منه [وبئس المصير[1]] .

* [يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر] أى : إذا قالوا قولا ، كقول من قال منهم « ليخرجن الأعز منها الأذل » والكلام الذى يتكلم به ، الواحد بعد الواحد ، فى الاستهزاء بالدين ، وبالرسول .

فإذا بلغهم أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قد بلغه شىء من ذلك ، جاءوا إليه يحلفون بالله ، ما قالوا .

قال تعالى مكذباً لهم [ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم] .

فإسلامهم السابق — وإن كان ظاهره ، أنه أخرجهم من دائرة الكفر — فكلامهم الأخير ، ينقض إسلامهم ، ويدخلهم بالكفر .

[وهموا بما لم ينالوا] وذلك حين هموا بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة تبوك .

فقص الله عليه نبأهم ، فأمر من يصدهم عن قصدهم .

---

(١) أى ما أسوأ هذه العاقبة ، وما أفظعها عذاباً وألماً ؟ ! !

يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

[و] الحال أنهم [ما نقموا] وعابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم [إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله] بعد أن كانوا فقراء معوزين .

وهذا من أعجب الأشياء ، أن يستهينوا بمن كان سببا لإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومغنياً لهم بعد الفقر .

وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه ، ويؤمنوا به ويجلوه ؟ ! !

ثم عرض عليهم التوبة فقال : [فإن يتوبوا يك خيرا لهم] لأن التوبة ، أصل لسعادة الدنيا والآخرة .

[وإن يتولوا] عن التوبة والإنابة [يعذبهم الله عذاباً أليماً فى الدنيا والآخرة] فى الدنيا ، بما ينالهم من الهم ، والغم ، والحزن على نصرة الله لدينه ، وإعزاز نبيه ، وعدم حصولهم على مطلوبهم ، وفى الآخرة ، فى عذاب السعير .

[وما لهم فى الأرض من ولى] يتولى أمورهم ، ويحصل لهم المطلوب .

[ولا نصير] يدفع عنهم المكروه .

وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى ، فثَمَّ أصناف الشر والخسران ، والشقاء والحرمان .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ

---

* أى : ومن هؤلاء المنافقين ، من أعطى الله عهده وميثاقه [لئن آتانا من فضله] من الدنيا فبسطها لنا ووسعها [لنصدقن ولنكونن من الصالحين] .

فنصل الرحم ، ونقرى الضيف ، ونعين على نوائب الحق ، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة .

[فلما آتاهم من فضله] لم يفوا بما قالوا ، بل [بخلوا به وتولوا] عن الطاعة والانقياد [وهم معرضون] أي : غير ملتفتين إلى الخير .

فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه ، عاقبهم و [أعقبهم نفاقا فى قلوبهم] مستمراً [إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون] .

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع ، أن يعاهد ربه ، إن حصل مقصوده الفلانى ، ليفعلن كذا وكذا ، ثم لا يفى بذلك ، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الثابت فى الصحيحين .

« آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف » .

فهذا المنافق الذى وعد الله وعاهده ، لئن أعطاه الله من فضله ، ليصدقن ، وليكونن من الصالحين ، حدث فكذب ، وعاهد فغدر ، ووعد فأخلف .

وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع ، بقوله :

[ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب] .

وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال ، التى يعلمها الله تعالى :

وهذه الآيات ، نزلت فى رجل من المنافقين يقال له « ثعلبة » .

جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وسأله أن يدعو الله له ، أن يعطيه من فضله ، وأنه إن أعطاه ، ليتصدقن ، ويصل الرحم ، ويعين على نوائب الحق ، فدعا النبى صلى الله عليه وسلم ، له .

فكان له غنم ، فلم تزل تتنامى ، حتى خرج بها عن المدينة ، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس .

ثم أبعد ، فكان لايحضر إلا صلاة الجمعة .

ثم كثرت فأبعدها ، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة .

ففقده النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبر بحاله ، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها . فمروا على ثعلبة ، فقال ماهذه إلا جزية ، ماهذه إلا أخت الجزية .

فلما لم يعطهم ، جاءوا ، فأخبروا بذلك ، النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال « يا ويح ثعلبة » ثلاثا .

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ

فلما نزلت هذه الآية فيه ، وفى أمثاله ، ذهب بها بعض أهله ، فبلغه إياها .

فجاء بزكاته ، فلم يقبلها النبى صلى الله عليه وسلم .

ثم جاء بها إلى أبى بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها .

ثم جاء بها بعد أبى بكر إلى عمر فلم يقبلها .

فيقال : إنه هلك فى زمن عثمان .

* وهذا أيضاً من مخازى المنافقين ، فكانوا — قبحهم الله — لا يدعون شيئا من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالا ، إلا قالوا وطعنوا ، بغيا وعدوانا .

فلما حثّ الله ورسوله على الصدقة ، بادر المسلمون إلى ذلك ، وبذلوا من أموالهم ، كل على حسب حاله ، منهم المكثر ، ومنهم المقل .

فيلمزون المكثر منهم ، بأن قصده بنفقته ، الرياء والسمعة .

وقالوا للمقل الفقير : إن الله غنى عن صدقة هذا .

فأنزل الله تعالى [الذين يلمزون] أى يعيبون ، ويطعنون [المطوعين من المؤمنين فى الصدقات] فيقولون : مراءون ، قصدهم الفخر والرياء .

[و] يلمزون [الذين لا يجدون إلا جهدهم] فيخرجون ما استطاعوا ويقولون : الله غنى عن صدقاتهم [فيسخرون منهم] .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

فقوبلوا على صنيعهم بأن [سخر الله منهم ولهم عذاب أليم] فإنهم جمعوا فى كلامهم هذا ، بين عدة محاذير .

منها : تتبعهم لأحوال المؤمنين ، وحرصهم على أن يجدوا مقالا يقولونه فيهم .

والله يقول [إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم] .

ومنها : طعنهم بالمؤمنين ، لأجل إيمانهم ، كفرا بالله تعالى ؛ وبغضاً للدين .

ومنها : أن اللمز محرم ، بل هو من كبائر الذنوب ، فى أمور الدنيا .

وأما اللمز فى أمر الطاعة ، فأقبح وأقبح .

ومنها : أن من أطاع الله ، وتطوع بخصلة من خصال الخير ، فإن الذى ينبغى ، هو إعانته ، وتنشيطه على عمله .

وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم ، وعابوهم عليه .

ومنها : أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مراء ، غلط فاحش ، وحكم على الغيب ، ورجم بالظن ، وأى شر أكبر من هذا ؟ ! !

. . . .

ومنها : أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة « الله غنى عن صدقة هذا » .

كلام مقصوده باطل ، فإن الله غنى عن صدقة المتصدق ، بالقليل ، والكثير ، بل وغنى عن أهل السموات والأرض .

ولكنه تعالى ، أمر العباد ، بما هم مفتقرون إليه .

فالله — وإن كان غنياً عنهم — فهم فقراء إليه « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » .

وفى هذا القول ، من التثبيط عن الخير ، ما هو ظاهر بين .

ولهذا كان جزاؤهم ، أن يسخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم .

* [استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة] على وجه المبالغة .

وإلا ، فلا مفهوم لها .

[فلن يغفر الله لهم] كما قال فى الآية الأخرى « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم » .

ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال : [ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله] .

والكافر ، لا ينفعه الاستغفار ، ولا العمل ، ما دام كافراً .

[والله لا يهدى القوم الفاسقين] أى : الذين صار الفسق لهم وصفاً ، بحيث لا يختارون عليه سواه ولا يبغون به بدلا ، يأتيهم الحق الواضح ، فيردونه .

فيعاقبهم الله تعالى ، بأن لا يوفقهم له بعد ذلك .

۞ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ

---

* يقول تعالى - مبينا تبجح المنافقين ، بتخلفهم ، وعدم مبالاتهم بذلك، الدال على عدم الإيمان ، واختيار الكفر على الإيمان .

[فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله] .

وهذا قدر زائد على مجرد التخلف ، فإن هذا تخلف محرم ، وزيادة رضا بفعل المعصية ، وتبجح به .

وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله] .

وهذا بخلاف المؤمنين ، الذين إذا تخلفوا — ولو لعذر — حزنوا على تخلفهم ، وتأسفوا غاية الأسف ، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، لما فى قلوبهم من الإيمان ، ويرجون من فضل الله وإحسانه ، وبره وامتنانه .

[وقالوا] أى : المنافقون لا تنفروا فى الحر] أى : قالوا إن النفير مشقة علينا ، بسبب الحر .

فقدموا راحة قصيرة منقضية ، على الراحة الأبدية التامة .

وحذروا من الحر الذى تقى منه الظلال ، وتذهبه البكور والآصال ، على الحر الشديد ، الذى لا يقادر قدره ، وهو النار الحامية .

ولهذا قال : « قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون] لما آثرو ، ما يفنى ، على ما يبقى ، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية ، إلى المشقة الشديدة الدائمة .

قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

---

* قال تعالى: [فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيراً] أى : فليتمتعوا فى هذه الدار المنقضية ، ويفرحوا بلذاتها ، ويلهوا بلعبها .

فسيبكون كثيراً فى عذاب أليم [جزاء بما كانوا يكسبون] من الكفر والنفاق ، وعدم الانقياد لأوامر ربهم .

* [فإن رجعك الله إلى طائفة منهم] وهم الذين تخلفوا من غير عذر ، ولم يحزنوا على تخلفهم .

[فاستأذنوك للخروج] لغير هذه الغزوة ، إذا رأوا السهولة .

[فقل] لهم عقوبة [لن تخرجوا معى أبداً ولن تقاتلوا معى عدوا] فسيغنى الله عنكم .

[إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين] وهذا كما قال تعالى « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » .

فإن المتثاقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة ، لن يوفق له بعد ذلك ، ويحال بينه وبينه .

وفيه أيضاً تعزير لهم ، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد ، لمعصيتهم ، كان ذلك توبيخاً لهم ، وعاراً عليهم ونكالا ، أن يفعل أحد كفعلهم .

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

---

* يقول تعالى [ولا تصل على أحد منهم مات] من المنافقين [ولا تقم على قبره] بعد الدفن ، لتدعو له ، فإن صلاته ، ووقوفه على قبورهم ، شفاعة منه لهم ، ولا تنفع فيهم الشفاعة .

[إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون] ومن كان كافراً ومات على ذلك ، فما تنفعه شفاعة الشافعين .

وفى ذلك عبرة لغيرهم ، وزجر ، ونكال لهم .

وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق ، فإنه لا يصلى عليه .

وفى هذه الآية ، دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين ، والوقوف عند قبورهم ، للدعاء لهم ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يفعل ذلك فى المؤمنين .

فإن تقييد الله بالمنافقين ، يدل على أنه قد كان متقرراً فى المؤمنين .

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

---

* أى : لا تغتر بما أعطاهم الله فى الدنيا ، من الأموال والأولاد .

فليس ذلك لكرامتهم عليه ، وإنما ذلك ، إهانة منه لهم .

[إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا] فيتعبون فى تحصيلها ، ويخافون من زوالها ، ولا يتهنئون بها .

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها ، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة ، حتى ينتقلوا من الدنيا [وتزهق أنفسهم وهم كافرون] قد سلبهم حبها كل شىء ، فماتوا ، وقلوبهم بها متعلقة ، وأفئدتهم عليها متحرقة .

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

---

* يقول تعالى — فى بيان استمرار المنافقين على التثاقل عن الطاعات ، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات .

[وإذا أنزلت سورة] يؤمرون فيها بالإيمان بالله، والجهاد فى سبيل الله . [استأذنك أولوا الطول منهم] يعنى: أولى الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم. وقد أمدهم الله بأموال وبنين ، أفلا يشكرون الله ويحمدونه ، ويقومون بما أوجبه عليهم ، وسهل عليهم أمره[1] . ولكن أبوا إلا التكاسل ، والاستئذان فى القعود [وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين] .

قال تعالى [رضوا بأن يكونوا مع الخوالف] كيف :رضوا لأنفسهم، أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد .

هل معهم فقه أو عقل ، دلهم على ذلك ؟ .

أم [طبع الله على قلوبهم] فلا تعى الخير ، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح ؟ .

---

(١) قوله (بما أوجب عليهم وسهل عليهم أمره) تعبير فيه ما فيه من ناحية السبك والصياغة الإنشائية .

ولو قال (ويقومون بما أوجب الله عليهم من الإنفاق فى مرضاته وبما سهل لهم من السبل الموصلة إلى الغنى والسعة ، فى الأرزاق) لكان أوضح .

﴿ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

فهم لا يفقهون مصالحهم .

فلو فقهوا حقيقة الفقه ، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال ، التى تحطهم عن منازل الرجال .

* يقول تعالى : إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد ، فالله سيغنى عنهم .

ولله عباد وخواص من خلقه ، اختصهم بفضله ، يقومون بهذا الأمر .

وهم [الرسول] محمد صلى الله عليه وسلم ، [والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم] غير متثاقلين ولا كسلين ، بل هم فرحون مستبشرون .

[وأولئك لهم الخيرات] الكثيرة فى الدنيا والآخرة .

[وأولئك هم المفلحون] الذين ظفروا بأعلى المطالب ، وأكمل الرغائب .

* [أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم] .

فتباً لمن لم يرغب بما رغبوا فيه ، وخسر دينه ، ودنياه ، وأخراه .

وهذا نظير قوله تعالى « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً » .

وقوله [فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين] .

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ

---

* يقول تعالى [وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم] .

أى : جاء الذين تهاونوا ، وقصروا منهم فى الخروج ، لأجل أن يؤذن لهم فى ترك الجهاد ، غير مبالين فى الاعتذار ، لجفائهم ، وعدم حيائهم ، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف .

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، فقعدوا وتركوا الاعتذار بالكلية.

ويحتمل أن معنى قوله [المعذرون] أى : الذين لهم عذر، أتوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليعذرهم ، ومن عادته ، أن يعذر من له عذر .

[وقعد الذين كذبوا الله ورسوله] فى دعواهم الإيمان، المقتضى للخروج، وعدم علمهم بذلك .

ثم توعدهم بقوله [سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم] فى الدنيا والآخرة .

لما ذكر المعتذرين ، وكانوا على قسمين ، قسم معذور فى الشرع ، وقسم غير معذور ، ذكر ذلك بقوله :

[ليس على الضعفاء] فى أبدانهم وأبصارهم ، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال .

[ولا على المرضى] وهذا شامل لجميع أنواع المرض ، الذى لا يقدر صاحبه على الخروج والجهاد ، من عرج ، وعمى ، وحمى ذات الجنب ، والفالج ، وغير ذلك .

لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا

[ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون] أى : لا يجدون زادا ، ولا راحلة يتبلغون بها فى سفرهم .

فهؤلاء ، ليس عليهم حرج ، بشرط أن ينصحوا لله ورسوله ، بأن يكونوا صادق الإيمان ، وأن يكون من نيتهم ، وعزمهم ، أنهم لو قدروا لجاهدوا ، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه ، من الحث ، والترغيب ، والتشجيع على الجهاد .

[ما على المحسنين من سبيل] أى : من سبيل يكون عليهم فيه تبعة ، فإنهم - بإحسانهم ، فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم .

وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه ، سقط عنه مالا يقدر عليه .

ويستدل بهذه الآية على قاعدة .

وهى : أن من أحسن على غيره ، فى نفسه ، أو فى ماله ، ونحو ذلك ، ثم ترتب على إحسانه ، نقص أو تلف ، أنه غير ضامن لأنه محسن ، ولا سبيل على المحسنين .

كما أنه يدل ، على أن غير المحسن - وهو المسىء - كالمفرط ؛ أن عليه الضمان .

[والله غفور رحيم] ومن مغفرته ورحمته ، عفا عن العاجزين ، وأثابهم بنيتهم الجازمة ، ثواب القادرين الفاعلين .

مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْاْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

[ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم] فلم يصادفوا عندك شيئا [قلت] لهم معتذراً [لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا أن لا يجدوا ما ينفقون] فإنهم عاجزون، باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والمشقة، ما ذكره الله عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله، وهو. أن من نوى الخير، واقترن بنيته الجازمة، سَعْيٌ فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

[إنما السبيل] يتوجه واللوم يتأكد [على الذين يستأذنونك وهم أغنياء] قادرون على الخروج، ولا عذر لهم.

فهؤلاء [رضوا] لأنفسهم ومن دينهم [أن يكونوا مع الخوالف] كالنساء والأطفال ونحوهم.

[و] إنما رضوا بهذه الحال لأن الله [طبع على قلوبهم] أى. ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية.

[فهم لا يعلمون] عقوبة لهم، على اقترفوا.

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

---

* لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء ، وأنهم لاعذر لهم ، أخبر أنهم سوف [يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم] من غزاتكم .

[قل] لهم [لاتعتذروا لن نؤمن لكم] أى : لن نصدقكم فى اعتذاركم الكاذب .

[قد نبأنا الله من أخباركم] وهو الصادق فى قيله ، فلم يبق للاعتذار فائدة ، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم ، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذى ، هو أعلى مراتب الصدق .

[وسيرى الله عملكم ورسوله] فى الدنيا ، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب .

وأما مجرد الأقوال ، فلا دلالة فيها على شىء من ذلك .

[ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة] الذى لا تخفى عليه خافية .

[فينبئكم بما كنتم تعملون] من خير وشر ، ويجازيكم بعدله أو بفضله ، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة .

واعلم أن المسىء المذنب له ثلاث حالات .

إما أن يقبل قوله وعذره ، ظاهراً وباطنا ، ويعفى عنه ، بحيث يبقى كأنه لم يذنب .

تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ

وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلى ، على ذنبهم .

وإما أن يعرض عنهم ، ولا يقابلوا بما فعلوا ، بالعقوبة الفعلية .

وهذه الحال الثالثة ، هى التى أمر الله بها فى حق المنافقين . ولهذا قال :

[سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ، فأعرضوا عنهم] .

أى : لا توبخوهم ، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم .

[إنهم رجس] أى : إنهم قذر خبثاء ، ليسوا بأهل لأن يبالى بهم ، وليس التوبيخ والعقوبة مفيدا فيهم .

[و] يكفيهم أن [مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون] .

* وقوله : [يحلفون لكم لترضوا عنهم] أى : ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم ، غير مجرد الإعراض ، بل يحبون أن ترضوا عنهم ، كأنهم ما فعلوا شيئاً .

[فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين] أى : فلا ينبغى لكم — أيها المؤمنون — أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه ، بل عليكم أن توافقوا ربكم ، فى رضاه وغضبه .

فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

وتأمل كيف قال : [فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين] ولم يقل « فإن الله لا يرضى عنهم » ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح ، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم ، فإن الله يتوب عليهم ، ويرضى عنهم .

وأما ما داموا فاسقين ، فإن الله لا يرضى عليهم ، لوجود المانع من رضاه .

وهو : خروجهم عن ما رضيه الله لهم ، من الإيمان والطاعة ، إلى ما يغضبه من الشرك ، والنفاق ، والمعاصى .

وحاصل ما ذكره الله ، أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد ، من غير عذر ، إذا اعتذروا للمؤمنين ، وزعموا أن لهم أعذارا فى تخلفهم ، فإن المنافقين يريدون بذلك ، أن تعرضوا عنهم ، وترضوا ، وتقبلوا عذرهم .

فأما قبول العذر منهم ، والرضا عنهم ، فلا حبا ، ولا كرامة لهم .

وأما الإعراض عنهم ، فيعرض المؤمنون عنهم ، إعراضهم عن الأمور الردية والرجس .

وفى هذه الآيات ، إثبات الكلام لله تعالى فى قوله [قد نبأنا الله من أخباركم] .

وإثبات الأفعال الاختيارية لله ، الواقعة بمشيئته تعالى وقدرته ، فى هذا ، وفى قوله :

[وسيرى الله عملكم ورسوله] أخبر أنه سيراه بعد وقوعه .

وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين ، والغضب والسخط ، على الفاسقين .

۞ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ

---

* يقول تعالى [الأعراب] وهم سكان البادية والبرارى [أشد كفراً ونفاقاً] من الحاضرة ، الذين فيهم كفر ونفاق ، وذلك لأسباب كثيرة .

منها : أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية ، والأعمال والأحكام .

فهم أحرى [وأجدر أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله] من أصول الإيمان ، وأحكام الأوامر والنواهى .

بخلاف الحاضرة ، فإنهم أقرب ، لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، فيحدث لهم — بسبب هذا العلم — تصورات حسنة ، وإرادات للخير ، الذى يعلمون منه ، مالا يكون فى البادية .

وفيهم من لطافة الطبع ، والانقياد للداعى ، ما ليس فى البادية .

ويجالسون أهل الإيمان ، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية .

فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية ، وإن كان فى البادية والحاضرة ، كفار ومنافقون ، ففى البادية أشد وأغلظ ، مما فى الحاضرة .

ومن ذلك ، أن الأعراب أحرص على الأموال ، وأشح فيها .

فمنهم [من يتخذ ماينفق] من الزكاة والنفقة فى سبيل الله وغير ذلك .

[مغرما] أى : يراها خسارة ونقصاً ، لا يحتسب فيها ، ولا يريد بها وجه الله ، ولا يكاد يؤديها إلا كرها .

دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ إِنَّ ٱللَّهَ

[ويتربص بكم الدوائر] أى : من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم ، أنهم يودون وينتظرون فيهم ، دوائر الدهر ، وفجائع الزمان .

وهذا سينعكس عليهم فتكون [عليهم دائرة السوء] .

وأما المؤمنون ، فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم ، ولهم العقبى الحسنة .

[والله عليم حكيم] يعلم نيات العباد ، وما صدرت عنه الأعمال ، من إخلاص وغيره وليس الأعراب كلهم مذمومين .

بل منهم [من يؤمن بالله واليوم الآخر] فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان .

[ويتخذ ما ينفق قربات عند الله] أى : يحتسب نفقته ، ويقصد بها وجه الله تعالى ، والقرب منه [و] يجعلها وسيلة إلى [صلوات الرسول] أى : دعائه لهم ، وتبريكه عليهم .

قال تعالى ــ مبينا لنفع صلوات الرسول :

[ألا إنها قربة لهم] تقربهم إلى الله ، وتنمى أموالهم ، وتحل فيها البركة .

[سيدخلهم الله فى رحمته] فى جملة عباده الصالحين [إنه غفور رحيم] .

فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه ، ويعم عباده برحمته ، التى وسعت كل شىء ، ويخص عباده المؤمنين ، برحمة يوفقهم فيها إلى الخيرات ، ويحميهم فيها من المخالفات ، ويجزل لهم فيها أنواع المثوبات .

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾

وفى هذه الآية ، دليل على أن الأعراب ، كأهل الحاضرة ، منهم الممدوح ومنهم المذموم .

فلم يذمهم الله ، على مجرد تعربهم وباديتهم ، إنما ذمهم ، على ترك أوامر الله ، وأنهم فى مظنة ذلك .

ومنها : أن الكفر والنفاق ، يزيد وينقص ، ويغلظ ويخف ، بحسب الاحوال .

ومنها : فضيلة العلم ، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه ، لأن الله ذم الأعراب ، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً ، وذكر السبب الموجب لذلك ، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

ومنها : أن العلم النافع ، الذى هو أنفع العلوم ، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله ، من أصول الدين وفروعه ، كمعرفة حدود الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ، والتقوى ، والفلاح ، والطاعة ، والبر ، والصلة ، والإحسان ، والكفر ، والنفاق ، والفسوق ، والعصيان ، والزنا ، والخمر ، والربا ، ونحو ذلك .

فإن فى معرفتها ، يتمكن العارف من فعلها ، إن كانت مأمورا بها ، أو تركها ، إن كانت محظورة ومن الأمر بها أو النهى عنها .

ومنها : أنه ينبغى للمؤمن ، أن يؤدى ما عليه من الحقوق ، منشرح الصدر ، مطمئن النفس ، ويحرص أن تكون مغنماً ، ولا تكون مغرماً .

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

---

* [السابقون الأولون] هم : الذين سبقوا هذه الأمة وبدورها للإيمان والهجرة ، والجهاد ، وإقامة دين الله .

[من المهاجرين] الذين ، أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون .

[و] من [الأنصار] الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم ، ولايجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة .

[والذين اتبعوهم بإحسان] بالاعتقادات ، والأقوال ، والأعمال .

فهؤلاء ، هم الذين سلموا من الذم ، وحصل لهم نهاية المدح ، وأفضل الكرامات من الله .

[رضى الله عنهم] ورضاه تعالى ، أكبر من نعيم الجنة .

[ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار] الجارية ، التى تساق إلى سَقْيِ الجنان ، والحدائق الزاهية الزاهرة ، والرياض الفاخرة .

[خالدين فيها أبداً] لا يبغون عنها حولا ، ولا يطلبون منها بدلا .

لأنهم مهما تمنوه ، أدركوه ، ومهما أرادوه ، وجدوه .

[ذلك الفوز العظيم] الذى حصل لهم فيه ، كل محبوب للنفوس ، ولذة

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

للأرواح ، ونعيم للقلوب ، وشهوة للأبدان ؛ واندفع عنهم كل محذور .

* يقول تعالى : [وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة] أيضا منافقون [مردوا على النفاق] أى : تمرنوا عليه ، وازدادوا فيه طغيانا .

[لا تعلمهم] بأعيانهم ، فتعاقبهم ، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم ، لما لله فى ذلك من الحكمة الباهرة .

[نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين] يحتمل أن التثنية على بابها ، وأن عذابهم عذاب فى الدنيا ، وعذاب فى الآخرة .

ففى الدنيا ، ما ينالهم من الهم والغم ، والكراهة ، لما يصيب المؤمنين ، من الفتح والنصر .

وفى الآخرة عذاب النار ، وبئس القرار .

ويحتمل أن المراد ، سنغلظ عليهم العذاب ، ونضاعفه عليهم ، ونكرره .

﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

---

* يقول تعالى: [وآخرون] ممن بالمدينة: ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية.

[اعترفوا بذنوبهم] أى: أقروا بها، وندموا عليها، وسعوا فى التوبة منها، والتطهر من أدرانها.

[خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا]، ولا يكون العمل صالحاً، إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذى هو شرط لكل عمل صالح.

فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرى على بعض المحرمات، والتقصير فى بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء، بأن يغفر الله لهم.

فهؤلاء [عسى الله أن يتوب عليهم] وتوبته على عبده نوعان.

الأول: التوفيق للتوبة والثانى: قبولها بعد وقوعها منهم.

[إن الله غفور رحيم] أى: وصفه المغفرة والرحمة، اللتان لايخلو مخلوق منهما.

بل لابقاء للعالم العلوى والسفلى إلا بهما.

فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم، ما ترك على ظهرها من دابة.

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا، إن أمسكهما من أحد من بعده، إنه كان حليما غفورا ».

خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

ومن مغفرته : أن المسرفين على أنفسهم ، الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة ، إذا تابوا إليه وأنابوا ، ولو قبيل موتهم بأقل القليل ، فإنه يعفو عنهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم.

فهذه الآية ، دالة على أن المخلط المعترف النادم ، الذى لم يتب توبة نصوحا ، أنه تحت الخوف والرجاء ، وهو إلى السلامة أقرب .

وأما المخلط الذى لم يعترف ، ولم يندم على ما مضى منه ، بل لا يزال مصراً على الذنوب ، فإنه يخاف عليه أشد الخوف .

قال تعالى لرسوله ، ومن قام مقامه ، آمرا له بما يطهر المؤمنين ، ويتمم إيمانهم :

[خذ من أموالهم صدقة] وهى الزكاة المفروضة .

[تطهرهم وتزكيهم بها] أى : تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة .

[وتزكيهم] أى : تنميهم ، وتزيد فى أخلاقهم الحسنة ، وأعمالهم الصالحة ، وتزيد فى ثوابهم الدنيوى والأخروى ، وتنمى أموالهم .

[وصل عليهم] أى : ادع لهم ، أى : للمؤمنين عموماً وخصوصاً ، عندما يدفعون إليك زكاة أموالهم .

[إن صلاتك سكن لهم] أى: طمأنينة لقلوبهم ، واستبشار لهم .

[والله سميع] لدعائك ، سمع إجابة وقبول .

. . . .

[عليم] بأحوال العباد ونياتهم ، فيجازى كل عامل بعمله ، وعلى قدر نيته .

فكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يمتثل لأمر الله ، ويأمرهم بالصدقة ، ويبعث عماله لجبايتها .

فإذا أتاه وأخذ صدقته ، دعا له ، وبرّك .

ففى هذه الآية ، دلالة على وجوب الزكاة ، فى جميع الأموال .

وهذا إذا كانت للتجارة ، ظاهرة ، فإنها أموال تنمى ويكتسب بها .

فمن العدل أن يواسى منها الفقراء ، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة .

وما عدا أموال التجارة ، فإن كان المال ينمى ، كالحبوب ، والثمار ، والماشية المتخذة للنماء ، والدر ، والنسل ، فإنها تجب فيها الزكاة ، وإلا ، لم تجب فيها ، لأنها إذا كانت للقنية ، لم تكن بمنزلة الأموال التى يتخذها الإنسان فى العادة ، مالا يتمول ، ويطلب منه المقاصد المالية ، وإنما صرف عن المالية بالقنية ونحوها .

وفيها أن العبد لايمكنه أن يتطهر ويتزكى ، حتى يخرج زكاة ماله ، وأنه لا يكفرها شىء سوى أدائها ، لأن الزكاة والتطهير ، متوقف على إخراجها .

وفيها : استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه ، لمن أدى زكاته ، بالبركة .

وأن ذلك ينبغى ، أن يكون جهراً ، بحيث يسمعه المتصدق ، فيسكن إليه .

ويؤخذ من المعنى ، أنه ينبغى إدخال السرور على المؤمن ، بالكلام اللين ، والدعاء له ، ونحو ذلك ، مما يكون فيه طمأنينة ، وسكون لقلبه .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾

أى : أما علموا سعة رحمة الله ، وعموم كرمه ، وأنه [يقبل التوبة عن عباده] التائبين ، من أى ذنب كان ، بل يفرح تعالى بتوبة عبده ، إذا تاب ، أعظم فرح يقدر .

[ويأخذ الصدقات] منهم أى يقبلها ، ويأخذها بيمينه ، فيربيها لأحدهم ، كما يربى الرجل فلوه[1] ، حتى تكون التمرة الواحدة ، كالجبل العظيم فكيف بما هو أكبر ، وأكثر من ذلك .

[وأن الله هو التواب الرحيم] أى : كثير التوبة على التائبين .

فمن تاب إليه ، تاب عليه ، ولو تكررت منه المعصية مراراً .

ولا يمل الله من التوبة على عباده ، حتى يملوا هم ، ويأبوا إلا النفار والشرود عن بابه ، وموالاتهم عدوهم .

[الرحيم] الذى وسعت رحمته كل شىء ، وكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، ويؤمنون بآياته ، ويتبعون رسوله .

---

(١) بوزن (عدو) وفيه لغة ثانية على وزن (حمل) بكسر الحاء وسكون الميم أى : المهر يفصل عن أمه والجمع أفلاء مثل عدو وأعداء والأنثي (فلوة) على وزن (عدوة) بفتح العين وضم الدال وتشديد الواو وعلى لغة فتح العين وضم الدال تكون الواو مشددة . اه من المصباح بزيادة إيضاح .

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [وقل] لهؤلاء المنافقين : [اعملوا] ما ترون من الأعمال ، واستمروا على باطلكم ، فلا تحسبوا أن ذلك ، سيخفى .

[فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون] أى : لا بد أن يتبين عملكم ويتضح .

[وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون] من خير وشر .

ففى هذا ، التهديد والوعيد الشديد ، على من استمر على باطله وطغيانه ، وغيه وعصيانه .

ويحتمل أن المعنى : أنكم مهما عملتم من خير وشر ، فإن الله مطلع عليكم ، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين ، على أعمالكم ، ولو كانت باطنة .

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

أي : [وآخرون] من المخلفين [مرجون] أى : مؤخرون [لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم] .

فنى هذا ، التخويف الشديد للمتخلفين ، والحث لهم على التوبة والنــدم .

[والله عليم حكيم] يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منازلها .

فإن اقتضت حكمته ، أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة ، فعل ذلك .

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ

---

* كان أناس من المنافقين من أهل قباء ، اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء ، يريدون به المضارة والمشاقة ، بين المؤمنين ، ويعدونه لمن يرجونه ، من المحاربين لله ورسوله ، يكون لهم حصنا عند الاحتياج إليه .

فبين تعالى خزيهم ، وأظهر سرهم فقال :

[والذين اتخذوا مسجدا ضراراً] أى : مضارة للمؤمنين ولمسجدهم ، الذى يجتمعون فيه [وكفراً] أى : مقصدهم فيه الكفر ، إذا قصد غيرهم الإيمان .

[وتفريقا بين المؤمنين] أى : ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا .

[وإرصاداً] أى : إعداداً [لمن حارب الله ورسوله من قبل] أى : إعانة للمحاربين لله ورسوله ، الذين تقدم حرابهم ، واشتدت عداوتهم .

وذلك كأبى عامر الراهب ، الذى كان من أهل المدينة .

فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم ، وهاجر إلى المدينة ، كفر به ، وكان متعبدا فى الجاهلية .

فذهب إلى المشركين ، يستعين بهم على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ، ذهب إلى قيصر ، بزعمه أنه ينصره .

فهلك اللعين فى الطريق ، وكان على وعد وممالئة ، هو والمنافقون .

فكان مما أعدوا له ، مسجد الضرار ، فنزل الوحى بذلك .

إِنْ أَرَدْنَآ إِلاَّ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

فبعث إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، من يهدمه ، ويحرقه ، فهدم وحرق ، وصار بعد ذلك مزبلة .

قال تعالى ـ بعد ما بين مقاصدهم الفاسدة فى ذلك ، المسجد ـ [وليحلفن إن أردنا] فى بنائنا إياه [إلا الحسنى] أى : الإحسان إلى الضعيف ، والعاجز والضرير .

[والله يشهد إنهم لكاذبون] فشهادة الله عليهم ، أصدق من حلفهم .

[لا تقم فيه أبدا] أى : لا تصل فى ذلك المسجد ، الذى بنى ضرارا أبدا. فالله يغنيك عنه ، ولست بمضطر إليه .

[لمسجد أسس على التقوى من أول يوم] ظهر فيه الإسلام فى «قباء» وهو مسجد « قباء » أسس على إخلاص الدين لله ، وإقامة ذكره ، وشعائر دينه ، وكان قديماً فى هذا ، عريقاً فيه .

فهذا المسجد الفاضل [أحق أن تقوم فيه] وتتعبد ، وتذكر الله تعالى، فهو فاضل ، وأهله فضلاء ، ولهذا مدحهم الله بقوله :

[فيه رجال يحبون أن يتطهروا] من الذنوب،ويتطهروا من الأوساخ ، والنجاسات ، والأحداث .

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً ، لا بد أن يسعى له ، ويجتهد فيما يحب .

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى

فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ ، والأحداث .

ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه . وكانوا مقيمين للصلاة ، محافظين على الجهاد ، مع رسول الله صلى عليه وسلم ، وإقامة شرائع الدين ، وممن كانوا يتحرزون من مخالفة الله ورسوله .

وسألهم النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد ما نزلت هذه الآية فى مدحهم عن طهارتهم .

فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء ، فحمدهم على صنيعهم .

[والله يحب المطهرين] الطهارة المعنوية ، كالتنزه من الشرك ، والأخلاق الرذيلة .

والطهارة الحسية ، كإزالة الأنجاس ، ورفع الأحداث .

ثم فاضل بين المساجد ، بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال :

* [أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله] أى : على نية صالحة ، وإخلاص.

[ورضوان] بأن كان موافقاً لأمره ، فجمع فى عمله ، بين الإخلاص والمتابعة .

[خير أم من أسس بنيانه على شفا] أى : على طرف [جرف هار] أى : بال ، قد تداعى للانهدام .

[فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين] لما فيه مصالح دينهم ودنياهم .

ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

[لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم] أى : شكا ، وريباً ما كثاً فى قلوبهم .

[إلا أن تقطع قلوبهم] بأن يندموا غاية الندم ، ويتوبوا إلى ربهم ، ويخافوه غاية الخوف ، فبذلك يعفو الله عنهم .

وإلا فبنيانهم ، لا يزيدهم إلا ريباً إلى ريبهم ، ونفاقاً إلى نفاقهم .

[والله عليم] بجميع الأشياء ، ظاهرها ، وباطنها ، خفيها ، وجليها ، وبما أسره العباد ، وأعلنوه .

[حكيم] لا يفعل ، ولا يخلق ، ولا يأمر ، ولا ينهى ، إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به . فلله الحمد .

وفى هذه الآيات ، عدة فوائد .

منها : أن اتخاذ المسجد ، الذى يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه ، أنه محرم ، وأنه يجب هدم مسجد الضرار ، الذى اطلع على مقصود أصحابه .

ومنها : أن العمل ، وإن كان فاضلا ، تغيره النية ، فينقلب منهياً عنه ، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم ، إلى ما ترى .

ومنها : أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين ، فإنها من المعاصى ، التى يتعين تركها وإزالتها .

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم ، يتعين اتباعها ، والأمر بها ، والحث عليها .

لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار ، بهذا المقصد الموجب للنهى عنه ، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله .

. . . .

ومنها : النهى عن الصلاة فى أماكن المعصية ، والبعد عنها ، وعن قربها

ومنها : أن المعصية تؤثر فى البقاع ، كما أثرت معصية المنافقين فى مسجد الضرار ، ونهى عن القيام فيه .

وكذلك الطاعة تؤثر فى الأماكن كما أثرت فى مسجد « قباء » حتى قال الله فيه :

[لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه] .

ولهذا كان لمسجد قباء ، من الفضل ، ما ليس لغيره ، حتى كان صلى الله عليه وسلم ، يزور قباء كل سبت ، يصلى فيه ، وحث على الصلاة فيه.

ومنها : أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة فى الآية ، أربع قواعد مهمة ، وهى :

كل عمل فيه مضارة لمسلم ، أو فيه معصية لله ، فإن المعاصى من فروع الكفر ، أو فيه تفريق بين المؤمنين ، أو فيه معاونة لمن عادى اللهورسوله، فإنه محرم ممنوع منه ، وعكسه بعكسه .

ومنها : أنه إذا كان مسجد قباء ، مسجداً أسس على التقوى ، فمسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، الذى أسسه بيده المباركة ، وعمل فيه ، واختاره الله له ، من باب أولى وأحرى .

ومنها : أن العمل المبنى على الإخلاص والمتابعة ، هو العمل المؤسس على التقوى ، الموصل لعامله إلى جنات النعيم .

والعمل المبنى على سوء القصد ، وعلى البدع والضلال ، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار ، فانهار به فى نار جهنم ، والله لا يهدى القوم الظالمين .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ

---

* يخبر تعالى خبراً صدقا ، ويعد وعداً حقاً ، بمبايعة عظيمة ، ومعاوضة جسيمة .

وهو : أنه [اشترى] بنفسه الكريمة [من المؤمنين أنفسهم وأموالهم] فهى الثمن والسلعة المبيعة .

[بأن لهم الجنة] التى فيها ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، من أنواع اللذات والأفراح ، والمسرات ، والحور ، الحسان ، والمنازل الأنيقات .

وصفة العقد والمبايعة ، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم ، فى جهاد أعدائه ، لإعلاء كلمته ، وإظهار دينه [يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون] .

فهذا العقد والمبايعة ، قد صدرت من الله ، مؤكدة بأنواع التأكيدات.

[وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن] التى هى أشرف الكتب ، التى طرقت العالم ، وأعلاها ، وأكملها ، وجاء بها أكمل الرسل ، أولو العزم ، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق .

[ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا] أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله .

مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

[ببيعكم الذى بايعتم به] أى : لتعزموا بذلك ، وليبشر بعضكم بعضاً ، ويحث بعضكم بعضاً .

[وذلك هو الفوز العظيم] الذى لا فوز أكبر منه ، ولا أجل ، لأنه يتضمن السعادة الأبدية ، والنعيم المقيم ، والرضا من الله ، الذى هو أكبر من نعيم الجنات .

وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفقة ، فانظر إلى المشترى من هو ؟ وهو الله جل جلاله .

وإلى العوض ، وهو أكبر الأعواض وأجلها ، جنات النعيم .

وإلى الثمن المبذول فيها ، وهو : النفس ، والمال ، الذى هو أحب الأشياء للإنسان .

وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبايع ، وهو أشرف الرسل .

وبأى الكتب رقم ، فى كتب الله الكبار المنزلة ، على أفضل الخلق .

﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ

---

* كأنه قيل : من هم المؤمنون ، الذين لهم البشارة من الله ، بدخول الجنات ، ونيل الكرامات ؟

فقال : هم [التائبون] أي : الملازمون للتوبة فى جميع الأوقات ، عن جميع السيئات .

[العابدون] أى : المتصفون بالعبودية لله ، والاستمرار على طاعته ، من أداء الواجبات والمستحبات ، فى كل وقت ، فبذلك يكون العبد من العابدين .

[الحامدون] لله فى السراء والضراء ، واليسر والعسر ، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة ، المثنون على الله بذكرها وبذكره ، فى آناء الليل ، وآناء النهار .

[السائحون] فسرت السياحة ، بالصيام ، أو السياحة فى طلب العلم .

وفسرت بسياحة القلب ، فى معرفة الله ومحبته ، والإنابة إليه على الدوام .

والصحيح أن المراد بالسياحة : السفر فى القربات ، كالحج ، والعمرة ، والجهاد ، وطلب العلم ، وصلة الأقارب ، ونحو ذلك .

[الراكعون الساجدون] أى : المكثرون من الصلاة ، المشتملة على الركوع والسجود .

[الآمرون بالمعروف] ويدخل فيه ، جميع الواجبات والمستحبات .

[والناهون عن المنكر] وهى جميع ما نهى الله ورسوله عنه .

لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ

[والحافظون لحدود الله] بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله ، وما يدخل فى الأوامر ، والنواهى ، والأحكام ، وما لا يدخل ، الملازمون لها فعلا وتركا .

[وبشر المؤمنين] لم يذكر ما يبشر لهم به ، ليعم جميع مارتب على الإيمان، من ثواب الدنيا ، والدين والآخرة .

فالبشارة متناولة لـكل مؤمن .

وأما مقدارها وصفتها ، فإنها ، بحسب حال المؤمنين ، وإيمانهم ،قوة ، وضعفاً ، وعملا بمقتضاه .

* يعنى: ما يليق ولايحسن بالنبي والمؤمنين به [أن يستغفروا للمشركين]. أى : لمن كفر به ، وعبد معه غيره [ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم] .

فإن الاستغفار لهم فى هذه الحال ، غلط غير مفيد ، فلا يليق بالنبى والمؤمنين .

لأنهم إذا ماتوا على الشرك ، أو علم أنهم يموتون عليه ، فقد حقت عليهم كلمة العذاب ، ووجب عليهم الخلود فى النار ، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين ، ولا استغفار المستغفرين .

ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

وأيضا فإن النبي ، والذين آمنوا معه ، عليهم أن يوافقوا ربهم ، فى رضاه ، وغضبه ، ويوالوا من والاه الله ، ويعادوا من عاداه الله .

والاستغفار منهم ، لمن تبين أنه من أصحاب النار ، مناف لذلك ، مناقض له .

ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن ، إبراهيم عليه السلام ، لأبيه فإنه [عن موعدة وعدها إياه] فى قوله « لأستغفرن لك ربى إنه كان بى حفيا » وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه .

فلما تبين لإبراهيم ، أن أباه عدو لله ، سيموت على الكفر ، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير [تبرأ منه] موافقة لربه وتأدباً معه .

[إن إبراهيم لأواه] أى : رجّاع إلى الله فى جميع الأمور ، كثير الذكر ، والدعاء ، والاستغفار ، والإنابة إلى ربه .

[حليم] أى : ذو رحمة بالخلق ، وصفح عما يصدر منهم إليه ، من الزلات ، لا يستفزه جهل الجاهلين ، ولا يقابل الجانى عليه بجرمه .

فأبوه قال له : « لأرجمنك » وهو يقول له « سلام عليك ، سأستغفر لك ربى » .

فعليكم أن تقتدوا به ، وتتبعوا ملة إبراهيم فى كل شىء « إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك » كما نبهكم الله عليها ، وعلى غيرها .

ولهذا قال : (وما كان الله ليضل قوما) إلى (ولا نصير) .

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

---

* يعنى أن الله تعالى ، إذا منّ على قوم بالهداية ، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم ، فإنه تعالى ، يتمم عليهم إحسانه ، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه ، وتدعو إليه ضرورتهم ، فلا يتركهم ضالين ، جاهلين بأمور دينهم .

فنى هذا ، دليل على كمال رحمته ، وأن شريعته وافية ، بجميع ما يحتاجه العباد ، فى أصول الدين وفروعه .

ويحتمل أن المراد بذلك [وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون] فإذا بين لهم ما يتقون ، فلم ينقادوا له ،عاقبهم بالإضلال . جزاء لهم ، على ردهم الحق المبين . والأول ، أولى .

[إن الله بكل شىء عليم] فلكمال علمه وعمومه ، علمكم ما لم تكونوا تعلمون ، وبين لكم ما به تنتفعون .

* [إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت] أى : هو المالك لذلك ، المدبر لعباده ، بالإحياء والإماتة ، وأنواع التدابير الإلهية .

فإذا كان لا يخل بتدبيره القدرى ، فكيف يخل بتدبيره الدينى ، المتعلق بإلهيته ، ويترك عباده سدى مهملين ، أو يدعهم ضالين جاهلين ، وهو أعظم توليه لعباده ؟ ! ! .

فلهذا قال : [وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير] أى : ولى يتولاكم ، بجلب المنافع لكم ، أو [نصير] يدفع عنكم المضار .

﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ

---

* يخبر تعالى ، أنه من لطفه وإحسانه [تاب على النبي] محمد صلى الله عليه وسلم ، [والمهاجرين والأنصار] فغفر لهم الزلات ، ووفر لهم الحسنات ، ورقاهم إلى أعلى الدرجات ، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات ، ولهذا قال :

[الذين اتبعوه فى ساعة العسرة] أى : خرجوا معه لقتال الأعداء ، فى غزوة « تبوك » وكانت فى حر شديد ، وضيق من الزاد والركوب ، وكثرة عدد مما يدعو إلى التخلف .

فاستعانوا الله تعالى ، وقاموا بذلك [من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم] أي : تنقلب قلوبهم ، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم، وأيدهم وقواهم .

وزَيْغُ القلب ، هو : انحرافه عن الصراط المستقيم .

فإن كان الانحراف فى أصل الدين ، كان كفراً .

وإن كان فى شرائعه ، كان بحسب تلك الشريعة ، التى زاغ عنها .

إما قصر عن فعلها ، أو فعلها على غير الوجه الشرعى .

وقوله [ثم تاب عليهم] أى : قبل توبتهم [إنه بهم رءوف رحيم] .

ومن رأفته ورحمته ، أن مَنَّ عليهم بالتوبة ، وقبلها منهم، وثبتهم عليها .

[و] كذلك لقد تاب [على الثلاثة الذين خلفوا] عن الخروج مع

خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

المسلمين ، فى تلك الغزوة ، وهم « كعب بن مالك » وصاحباه ، وقصتهم مشهورة معروفة ، فى الصحاح والسنن .

[حتى إذا] حزنوا حزناً عظيما ، و[ضاقت عليهم الأرض بما رحبت] أى : على سعتها ورحبها [وضاقت عليهم أنفسهم] التى هى أحب إليهم من كل شىء .

فضاق عليهم الفضاء الواسع ، والمحبوب الذى لم تجر العادة بالضيق منهم . وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج ، بلغ من الشدة والمشقة ، ما لا يمكن التعبير عنه .

وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شىء .

[وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه] أى : تيقنوا ، وعرفوا بحالهم ، أنه لا ينجى من الشدائد ، ويلجأ إليه ، إلا الله وحده لا شريك له .

فانقطع تعلقهم بالمخلوقين ، وتعلقوا بالله ربهم ، وفروا منه إليه .

فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة .

[ثم تاب عليهم] أى أذن فى توبتهم ، ووفقهم لها [ليتوبوا] لتقع منهم ، فيتوب الله عليهم .

[إن الله هو التواب] أى : كثير التوبة والعفو ، والغفران عن الزلات والنقصان .

. . . .

[الرحيم] وصفه الرحمة العظيمة ، التى لا تزال تنزل على العباد ، فى كل وقت وحين ، فى جميع اللحظات ، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية .

وفى هذه الآيات ، دليل على أن توبة الله على العبد ، أجل الغايات ، وأعلى النهايات ، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده ، وامْتَنَّ عليهم بها ، حين عملوا الأعمال التى يحبها ويرضاها :

ومنها : لطف الله بهم ، وتثبيتهم فى إيمانهم ، عند الشدائد ، والنوازل المزعجة .

ومنها : أن العبادة الشاقة على النفس ، لها فضل ومزية ، ليست لغيرها. وكلما عظمت المشقة ، عظم الأجر .

ومنها : أن توبة الله على عبده ، بحسب ندمه وأسفه الشديد .

وأن من لا يبالي بالذنب ، ولا يحرج إذا فعله ، فإن توبته مدخولة ، وإن زعم أنها مقبولة .

ومنها : أن علامة الخير وزوال الشدة ، إذا تعلق القلب بالله تعالى ، تعلقاً تاماً ، وانقطع عن المخلوقين .

ومنها : أن من لطف الله بالثلاثة ، أن وسمهم بوسم ، ليس بعار عليهم فقال :

[خلفوا] إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم ، أو خلفوا عن من بُثَّ فى قبول عذرهم ، أو فى رده ، وأنهم لم يكن تخلفهم ، رغبة عن الخير ، ولهذا لم يقل « تخلفوا » .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

ومنها : أن الله تعالى ، من عليهم بالصدق ، ولهذا أمر بالاقتداء بهم فقال : (يا أيها الذين آمنوا) الآية .

* أي : [يا أيها الذين آمنوا] بالله ، وبما أمر الله بالإيمان به ، قوموا بما يقتضيه الإيمان ، وهو القيام بتقوى الله ، باجتناب ما نهى الله عنه ، والبعد عنه .

[وكونوا مع الصادقين] فى أقوالهم ، وأفعالهم ، وأحوالهم ، الذين أقوالهم صدق .

وأعمالهم ، وأحوالهم ، لا تكون إلا صدقاً خالية من الكسل والفتور ، سالمة من المقاصد السيئة ، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة ، فإن الصدق ، يهدى إلى البر ، وإن البر ، يهدى إلى الجنة .

قال تعالى : « هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » الآية .

۞ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

* يقول تعالى — حاثا لأهل المدينة المنورة ، من المهاجرين ، والأنصار ، ومن حولها من الأعراب ، الذين أسلموا ، فحسن إسلامهم :

[ما كان لأهل المدينة ، ومن حولهم من الأعراب ، أن يتخلفوا عن رسول الله] .

أى : ما ينبغى لهم ذلك ، ولا يليق بأحوالهم .

[ولا يرغبوا بأنفسهم] فى بقائها وراحتها ، وسكونها [عن نفسه] الكريمة الزكية .

بل النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم .

فعلى كل مسلم ، أن يفدى النبي صلى الله عليه وسلم ، بنفسه ، ويقدمه عليها .

فعلامة تعظيم الرسول ، ومحبته ، والإيمان التام به ، أن لا يتخلفوا عنه .

ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال :

[ذلك بأنهم] أي : المجاهدين فى سبيل الله [لا يصيبهم ظمأ ولا نصب] أى : تعب ومشقة [ولا مخمصة فى سبيل الله] أى : مجاعة .

وَلَا يَطَؤُنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

[ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار] من الخوض لديارهم ، والاستيلاء على أوطانهم .

[ولا ينالون من عدو نيلا] كالظفر بجيش ، أو سرية ، أو الغنيمة لمال .

[إلا كتب لهم به عمل صالح] لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم .

[إن الله لا يضيع أجر المحسنين] الذين أحسنوا فى مبادرتهم إلى أمر الله ، وقيامهم بما عليهم من حقه ، وحق خلقه .

فهذه الأعمال ، آثار من آثار عملهم .

ثم قال : [ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا] فى ذهابهم إلى عدوهم [إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون] .

ومن ذلك ، هذه الأعمال ، إذا أخلصوا فيها لله ، ونصحوا فيها .

ففى هذه الآيات ، أشد ترغيب ، وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد فى سبيل الله ، والاحتساب لما يصيبهم فيه ، من المشقات ، وأن ذلك ، لهم رفعة درجات ، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له ، فيها أجر كبير .

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

---

* يقول تعالى — منها لعباده المؤمنين على ما ينبغى لهم : —

[وما كان المؤمنون لينفروا كافة] أى : جميعاً لقتال عدوهم .

فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك ، ويفوت به كثير ، من المصالح الأخرى .

[فلولا نفر كل فرقة منهم] أى : من البلدان ، والقبائل ، والأفخاذ [طائفة] تحصل بها الكفاية والمقصود ، لكان أولى .

ثم نبه على أن فى إقامة المقيمين منهم ، وعدم خروجهم ، مصالح ، لو خرجوا ، لفاتتهم .

فقال : [ليتفقهوا] أى : القاعدون [فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم] أى . ليتعلموا العلم الشرعى ، ويعلموا معانيه ، ويفقهوا أسراره ، وليعلموا غيرهم ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم .

فنى هذا فضيلة العلم ، وخصوصاً الفقه فى الدين ، وأنه أهم الأمور .

وأن من تعلم علماً ، فعليه نشره وبثه فى العباد ، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم ، من بركته وأجره ، الذى ينمى .

وأما اقتصار العالم على نفسه ، وعدم دعوته إلى سبيل الله ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وترك تعليم الجهال مالا يعلمون ، فأى منفعة حصلت للمسلمين منه ؟ وأى نتيجة ، نتجت من علمه ؟

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وغايته أن يموت ، فيموت علمه وثمرته .

وهذا غاية الحرمان ، لمن آتاه الله علما ، ومنحه فهما .

وفى هذه الآية أيضاً دليل ، وإرشاد ، وتنبيه لطيف ، لفائدة مهمة .

وهى : أن المسلمين ينبغى لهم ، أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة ، من يقوم بها ، ويوفر وقته عليها ، ويجتهد فيها ، ولا يلتفت إلى غيرها ، لتقوم مصالحهم ، وتتم منافعهم ، ولتكون وجهة جميعهم ، ونهاية ما يقصدون ، قصداً واحداً ، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم .

ولو تفرقت الطرق ، وتعددت المشارب ، فالأعمال متباينة ، والقصد واحد .

وهذه من الحكمة العامة النافعة ، فى جميع الأمور .

* وهذا أيضاً إرشاد آخر ، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال ، أرشدهم إلى أنهم يبدأون بالأقرب فالأقرب من الكفار ، والغلظة عليهم ، والشدة فى القتال ، والشجاعة والثبات .

[واعلموا أن الله مع المتقين] أى : وليكن لديكم علم ، أن المعونة من الله ، تنزل بحسب التقوى ، فلازموا على تقوى الله ، يُعِنْكُم وينصركم على عدوكم .

وهذا العموم فى قوله [قاتلوا الذين يلونكم من الكفار] مخصوص بما إذا كانت المصلحة فى قتال غير الذين يلوننا ، وأنواع المصالح كثيرة جداً .

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟

---

* يقول تعالى — مبينا حال المنافقين ، وحال المؤمنين عند نزول القرآن ، وتفاوت ما بين الفريقين ، فقال : [وإذا ما أنزلت سورة] فيها الأمر ، والنهى ، والخبر عن نفسه الكريمة ، وعن الأمور الغائبة ، والحث على الجهاد .

[فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا] أى : حصل الاستفهام ، لمن حصل له الإيمان بها ، من الطائفتين .

قال تعالى — مبينا الحال الواقعة — : [فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً] بالعلم بها ، وفهمها ، واعتقادها ، والعمل بها ، والرغبة فى فعل الخير ، والانكفاف عن فعل الشر .

[وهم يستبشرون] أى : يبشر بعضهم بعضاً ، بما منَّ الله عليهم من آياته ، والتوفيق لفهمها والعمل بها .

وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله ، وطمأنينة قلوبهم ، وسرعة انقيادهم ، لما تحثهم عليه .

[وأما الذين فى قلوبهم مرض] أي : شك ونفاق [فزادتهم رجسا إلى رجسهم] أى : مرضاً إلى مرضهم ، وشكا إلى شكهم ، من حيث إنهم كفروا بها ، وعاندوها ، وأعرضوا عنها ، فازداد لذلك مرضهم ، وترامى بهم إلى الهلاك [و] الطبع على قلوبهم ، حتى [ماتوا وهم كافرون] .

وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾

وهذا عقوبة لهم ، لأنهم كفروا بآيات الله ، وعصوا رسوله ، فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه

قال تعالى — موبخا لهم ، على إقامتهم على ماهم عليه ، من الكفر والنفاق .

[أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين] بما يصيبهم من البلايا والأمراض ، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية ، التى يراد بها اختبارهم .

[ثم لا يتوبون] عما هم عليه من الشر [ولاهم يذكرون] ما ينفعهم ، فيفعلونه ، وما يضرهم ، فيتركونه .

فالله تعالى ، يبتليهم — كما هى سنته فى سائر الأمم — بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهى ، ليرجعوا إليه ، ثم لا يتوبون ، ولا هم يذكرون .

وفى هذه الآيات ، دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ، وأنه ينبغى للمؤمن ، أن يتفقد إيمانه ويتعاهده ، فيجدده وينميه ، ليكون — دائما — فى صعود .

وقوله : [وإذا ما أنزلت سورة] إلى [لا يفقهون] .

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

---

* يعنى : أن المنافقين ، الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة ، تنبئهم بما فى قلوبهم .

[إذا ما أنزلت سورة] ليؤمنوا بها ، ويعملوا بمضمونها .

[نظر بعضهم إلى بعض] جازمين على ترك العمل بها ، ينتظرون الفرصة ، فى الاختفاء عن أعين المؤمنين ، ويقولون :

[هل يراكم من أحد ثم انصرفوا] متسللين ، وانقلبوا معرضين ، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم .

فكما انصرفوا عن العمل [صرف الله قلوبهم] أى : صدها عن الحق وخذلها .

[بأنهم قوم لا يفقهون] فقها ينفعهم ، فإنهم لو فقهوا ، لكانوا — إذا نزلت سورة ـ آمنوا بها ، وانقادوا لأمرها .

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره ، من شرائع الإيمان ، كما قال تعالى عنهم :

« فإذا أنزلت سورة محكمة ، وذكر فيها القتال ، رأيت الذين فى قلوبهم مرض ، ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » .

* لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ

---

* يمتن تعالى ، على عباده المؤمنين ، بما بعث فيهم النبي الأمى ، الذى من أنفسهم ، يعرفون حاله ، ويتمكنون من الأخذ عنه ، ولا يأنفون عن الانقياد له .

وهو صلى الله عليه وسلم فى غاية النصح لهم ، والسعى فى مصالحهم .

[عزيز عليه ما عنتم] أى : يشق عليه الأمر ، الذى يشق عليكم ويعنتكم .

[حريص عليكم] فيحب لكم الخير ، ويسعى جهده ، فى إيصاله إليكم ، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان ، ويكره لكم الشر ، ويسعى جهده ، فى تنفيركم عنه .

[بالمؤمنين رءوف رحيم] أى : شديد الرأفة والرحمة بهم ، أرحم بهم من والديهم .

ولهذا كن حقه مقدما على سائر حقوق الخلق ، وواجب على الأمة الإيمان به ، وتعظيمه ، وتوقيره ، ونعزيره .

[فإن] آمنوا ، فذلك حظهم وتوفيقهم ، وإن [تولوا] عن الإيمان والعمل ، فامض على سبيلك ، ولا تزل فى دعوتك ، وقل :

[حسبي الله] أى : الله يكفينى ، جميع ما أهمنى .

[لا إله إلا هو] أى : لا معبود بحق ، سواه .

ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

[عليه توكلت] أى : اعتمدت ، ووثقت به ، فى جلب ما ينفع ، ودفع ما يضر .

[وهو رب العرش العظيم] الذى هو أعظم المخلوقات .

وإذا كان رب العرش العظيم ، الذى وسع المخلوقات ، كان ربًّا لما دونه ، عن باب أولى ، وأحرى .

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه

فلله الحمد ، أولا وآخرا ، وظاهراً وباطناً

تفسير

سورة يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ

---

* يقول تعالى [الر ، تلك آيات الكتاب الحكيم] وهو هذا القرآن ، المشتمل على الحكمة والأحكام ، الدالة آياته على الحقائق الإيمانية ، والأوامر والنواهى الشرعية ، الذى على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد .

ومع هذا ، فأعرض أكثرهم ، فهم لايعلمون ، فتعجبوا [أن أوحينا إلى رجل منهم : أن أنذر الناس] عذاب الله ، وخوفهم نقم الله ، وذكرهم بآيات الله .

[وبشر الذين آمنوا] إيمانا صادقا [أن لهم قدم صدق عند ربهم] أى : لهم جزاء موفور ، وثواب مذخور عند ربهم ، بما قدموه ، وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة .

قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجبا ، حملهم على الكفر به .

[قال الكافرون] عنه : [إن هذا لساحر مبين] أي : بَيِّنُ السحر ، لايخفى — بزعمهم — على أحد ، وهذا من سفههم وعنادهم .

فإنهم تعجبوا من أمر ، ليس مما يتعجب منه ، ويستغرب .

وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم .

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم ، الذى بعثه الله من أنفسهم ، يعرفونه حق المعرفة ، فردوا دعوته ، وحرصوا على إبطال دينه ، والله متم نوره ، ولو كره الكافرون .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ

---

* يقول تعالى — مبينا لربوبيته ، وإلهيته ، وعظمته : —

[إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام] مع أنه قادر على خلقها فى لحظة واحدة .

ولكن لما له فى ذلك من الحكمة الإلهية ، ولأنه رفيق فى أفعاله .

ومن جملة حكمته فيها ، أنه خلقها بالحق وللحق ، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة .

[ثم] بعد خلق السموات والأرض [استوى على العرش] استواء يليق بعظمته .

[يدبر الأمر] فى العالم العلوى ، والسفلى ، من الإماتة والإحياء ، وإنزال الأرزاق ، ومداولة الأيام بين الناس ، وكشف الضر عن المضرورين ، وإجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير ، نازلة منه ، وصاعدة إليه ، وجميع الخلق ، مذعنون لعزته ، خاضعون لعظمته وسلطانه .

[ما من شفيع إلا من بعد إذنه] فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة ، ولو كان أفضل الخلق ، حتى يأذن الله .

ولا يأذن ، إلا لمن ارتضى ، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له .

إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ

[ذلكم] الذى هذا شأنه [الله ربكم] أى : هو الله الذى له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال ، ووصف الربوبية ، الجامع لصفات الأفعال .

[فاعبدوه] أى : أفردوه بجميع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية .

[أفلا تذكرون] الأدلة الدالة ، على أنه وحده ، المعبود المحمود ، ذو الجلال والإكرام .

فلما ذكر حكمه القدرى ، وهو التدبير العام ، وحكمه الدينى ، وهو شرعه ، الذى مضمونه ومقصوده ، عبادته وحده لا شريك له ، ذكر الحكم الجزئى ، وهو : مجازاته على الأعمال بعد الموت ، فقال :

[إليه مرجعكم جميعا] أى : سيجمعكم بعد موتكم ، لميقات يوم معلوم .

[وعد الله حقا] أى : وعده صادق ، لا بد من إتمامه [إنه يبدأ الخلق ثم يعيده] .

فالقادر على ابتداء الخلق ، قادر على إعادته .

والذى يرى ابتداءه بالخلق ، ثم ينكر إعادته للخلق ، فهو فاقد العقل ، منكر لأحد المثاين ، مع إثبات ما هو أولى منه ، فهذا دليل عقلى واضح ، على المعاد .

ثم ذكر الدليل النقلى فقال : [ليجزى الذين آمنوا] بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به .

لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

[وعملوا الصالحات] بجوارحهم ، من واجبات ، ومستحبات .

[بالقسط] أى : بإيمانهم وأعمالهم ، جزاء قد بينه لعباده ، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين .

[والذين كفروا] بآيات الله ، وكذبوا رسل الله .

[لهم شراب من حميم] أى : ماء حار ، يشوى الوجوه ، ويقطع الأمعاء .

[وعذاب أليم] من سائر أصناف العذاب [بما كانوا يكفرون] .

أى : بسبب كفرهم وظلمهم ، وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون .

۞ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا

---

* لما قرر ربوبيته وإلهيته ، ذكر الأدلة العقلية الأفقية ، الدالة على ذلك وعلى كماله ، فى أسمائه وصفاته ، من الشمس والقمر ، والسموات والأرض وجميع ما خلق فيهما ، من سائر أصناف المخلوقات ، وأخبر أنها آيات [لقوم يعلمون] و [لقوم يتقون] .

فإن العلم ، يهدى إلى معرفة الدلالة فيها ، وكيفية استنباط الدلائل ، على أقرب وجه .

والتقوى ، تحدث فى القلب ، الرغبة فى الخير ، والرهبة من الشر ، الناشئين عن الأدلة والبراهين ؛ وعن العلم واليقين .

وحاصل ذلك ، أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة ، دال على كمال قدرة الله تعالى ، وعلمه ، وحياته ، وقيوميته .

وما فيها من الأحكام ، والإتقان ، والإبداع والحسن ، دال على كمال حكمة الله ، وحسن خلقه ، وسعة علمه .

وما فيها ، من أنواع المنافع والمصالح — كجعل الشمس ضياء ، والقمر نوراً ، يحصل بهما من النفع الضرورى وغيره مما يحصل — يدل ذلك على رحمة الله تعالى ، واعتنائه بعباده ، وسعة بره ، وإحسانه .

وما فيها من التخصيصات ، دال على مشيئة الله ، وإرادته النافذة .

وذلك دال على أنه وحده ، المعبود ، والمحبوب المحمود ، ذو الجلال والإكرام ، والأوصاف العظام ، الذى لا تنبغى الرغبة والرهبة ، إلا إليه ،

بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

ولا يصرف خالص الدعاء، إلا له ، لا لغيره ، من المخلوقات المربوبات ، المفتقرات إلى الله ، فى جميع شئونها .

وفى هذه الآيات : الحث والترغيب ، على التفكير فى مخلوقات الله ، والنظر فيها ، بعين الاعتبار .

فإن بذلك تنفسح البصيرة ، ويزداد الإيمان والعقل ، وتقوى القريحة .

وفى إهمال ذلك ، تهاون بما أمر الله به ، وإغلاق لزيادة الإيمان ، وجمود للذهن والقريحة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ

---

* يقول تعالى [إن الذين لا يرجون لقاءنا] أى : لا يطمعون بلقاء الله ، الذى هو أكبر ما طمع فيه الطامعون ؛ وأعلى ما أمله المؤملون .

بل أعرضوا عن ذلك ، وربما كذبوا به [ورضوا بالحياة الدنيا] بدلا عن الآخرة .

[واطمأنوا بها] أى : ركنوا إليها ، وجعلوها غاية أمرهم ، ونهاية قصدهم .

فسعوا لها ، وأكبوا على لذاتها وشهواتها ، بأى طريق حصلت ، حصلوها ، ومن أى وجه لاحت ، ابتدروها .

قد صرفوا إرادتهم ونياتهم ، وأفكارهم ، وأعمالهم ، إليها .

فكأنهم خلقوا للبقاء فيها ، وكأنها ليست بدار ممر ، يتزود فيها المسافرون ، إلى الدار الباقية التى ، إليها ، يرحل الأولون والآخرون ، وإلى نعيمها ولذاتها ، شمر الموفقون .

[والذين هم عن آياتنا غافلون] فلا ينتفعون بالآيات القرآنية ، ولا بالآيات الأفقية والنفسية .

والإعراض عن الدليل ، مستلزم للإعراض والغفلة ، عن المدلول المقصود .

[أولئك] الذين هذا وصفهم [مأواهم النار] أى : مقرهم ومسكنهم ، التى لا يرحلون عنها .

ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ

[بما كانوا يكسبون] من الكفر والشرك ، وأنواع المعاصى .

فلما ذكر عقابهم ، ذكر ثواب المطيعين فقال : [إن الذين آمنوا] إلى [أن الحمد لله رب العالمين] .

* يقول تعالى [إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات] أى : جمعوا بين الإيمان ، والقيام بموجبه ومقتضاه ، من الأعمال الصالحة ، المشتملة على أعمال القلوب ، وأعمال الجوارح ، على وجه الإخلاص والمتابعة .

[يهديهم ربهم بإيمانهم] أى : بسبب ما معهم من الإيمان ، يثيبهم الله أعظم الثواب ، وهو : الهداية .

فيعلمهم ما ينفعهم ، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية ، ويهديهم للنظر فى آياته ، ويهديهم فى هذه الدار ، إلى الصراط المستقيم ، وفى دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم . ولهذا قال :

[تجرى من تحتهم الأنهار] الجارية على الدوام [فى جنات النعيم] .

أضافها الله إلى النعيم ، لاشتمالها على النعيم التام .

نعيم القلب بالفرح والسرور ، والبهجة والحبور ، ورؤية الرحمن ، وسماع كلامه ، والاغتباط برضاه وقربه ، ولقاء الأحبة والإخوان ، والتمتع

فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

بالاجتماع بهم ، وسماع الأصوات المطربات ، والنغمات المشجيات ، والمناظر المفرحات .

ونعيم البدن بأنواع المآكل ، والمشارب ، والمناكح ، ونحو ذلك ، مما لا تعلمه النفوس ، ولا خطر ببال أحد ، أو قدر أن يصفه الواصفون .

[دعواهم فيها سبحانك اللهم] أى عبادتهم فيها لله ، أولها تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص ، وآخرها ، تحميد لله ، فالتكاليف سقطت عنهم فى دار الجزاء .

وإنما بقى لهم ، أكمل اللذات ، الذى هو ألذ عليهم ، من المآكل اللذيذة .

ألا وهو : ذكر الله الذى تطمئن به القلوب ، وتفرح به الأرواح .

وهو لهم بمنزلة النَّفَس ، من دون كلفة ومشقة .

[و] أما [تحيتهم فيها] فيما بينهم عند التلاقى والتزاور ، فهو السلام ، أى : كلام سالم من اللغو والإثم ، موصوف بأنه [سلام] .

وقد قيل فى تفسير قوله [دعواهم فيها سبحانك] إلى آخر الآية .

أن أهل الجنة — إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما — قالوا سبحانك اللهم ، فأحضر لهم فى الحال .

[وآخر دعواهم] إذا فرغوا [أن الحمد لله رب العالمين] .

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾

---

* وهذا من لطفه وإحسانه بعباده ، أنه لو عجل لهم الشر ، إذا أتوا بأسبابه ، وبادرهم بالعقوبة على ذلك ، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه [لقضى إليهم أجلهم] أى لمحقتهم العقوبة .

ولكنه تعالى ، يمهلهم ، ولا يهملهم ، ويعفو عن كثير من حقوقه .

فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ، ماترك على ظهرها من دابة .

ويدخل فى هذا ، أن العبد إذا غضب على أولاده ، أو أهله ، أو ماله ، ربما دعا عليهم دعوة ، لو قبلت منه ، لهلكوا ، ولأضره ذلك غاية الضرر ، ولكنه تعالى ، حليم حكيم .

وقوله : [فنذر الذين لا يرجون لقاءنا] أى : لا يؤمنون بالآخرة ، فلذلك لايستعدون لها ، ولا يعلمون ما ينجيهم من عذاب الله .

[فى طغيانهم] أى : باطلهم ، الذى جاوزوا به الحق والحد .

[يعمهون] يترددون حائرين ، لايهتدون السبيل ، ولا يوفقون لأقوم دليل .

وذلك عقوبة لهم على ظلمهم ، وكفرهم بآيات الله .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

---

* وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان ، من حيث هو ، وأنه إذا مسه ضر ، من مرض ، أو مصيبة ، اجتهد فى الدعاء ، وسأل الله فى جميع أحواله ، قائما ، وقاعداً ، ومضطجعا ، وألح فى الدعاء ، ليكشف الله عنه ضره .

[فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه] أى : استمر فى غفلته ، معرضا عن ربه ، كأنه ما جاءه ضر ، فكشفه الله عنه .

فأى ظلم أعظم من هذا الظلم ؟ ! ! يطلب من الله قضاء غرضه .

فإذا أناله إياه ، لم ينظر إلى حق ربه ، وكأنه ليس عليه لله حق .

وهذا تزيين من الشيطان ، زين له ما كان مستهجنا مستقبحا فى العقول والفطر .

[كذلك زين للمسرفين] أى : المتجاوزين للحد [ما كانوا يعملون] .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية ، بظلمهم وكفرهم ، بعد ما جاءتهم البينات ، على أيدى الرسل ، وتبين الحق ، فلم ينقادوا لها ، ولم يؤمنوا .

فأحل بهم عقابه ، الذى لا يرد عن كل مجرم ، متجرىء على محارم الله .

وهذه سنته فى جميع الأمم .

[ثم جعلناكم] أى : المخاطبين [خلائف فى الأرض من بعدهم ، لننظر كيف تعملون] فإن أنتم اعتبرتم ، واتعظتم بمن قبلكم ، واتبعتم آيات الله ، وصدقتم رسله ، نجوتم فى الدنيا والآخرة .

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم ، أحل بكم ما أحل بهم ، ومن أنذر فقد أعذر .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ

---

* يذكر تعالى، تعنت المكذبين لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق، أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا، جراءة منهم وظلما :

[ائت بقرآن غير هذا أو بدله] فقبحهم الله، ما أجرأهم على الله، وأشدهم ظلما، ورداً لآياته .

فإذا كان الرسول العظيم، يأمره الله، أن يقول لهم :

[قل ما يكون لى] أى ما ينبغى، ولا يليق بى [أن أبدله من تلقاء نفسى] .

فإنى رسول محض، ليس لى من الأمر شىء .

[إن أتبع إلا ما يوحى إلى] أى : ليس لى غير ذلك، فإنى عبد مأمور .

[إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم] .

فهذا قول خير الخلق، وأدبه مع أوامر ربه ووحيه .

فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين، الذين جمعوا بين الجهل والضلال، والظلم والعناد، والتعنت والتعجيز لرب العالمين، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم ؟!! .

عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

فإن زعموا أن قصدهم ، أن يتبين لهم الحق بالآيات ، التى طلبوا ، فهم كَذَبَةٌ فى ذلك .

فإن الله قد بين من الآيات ، ما يؤمن على مثله ، البشر .

وهو الذى يصرفها كيف يشاء ، تبعا لحكمته الربانيـة ، ورحمته بعباده .

* [قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً] طويلا [من قبله] أى : قبل تلاوته ، وقبل درايتكم به ، وأنا ما خطر على بالى ، ولا وقع فى ظنى .

[أفلا تعقلون] أنى ، حيث لم أتله فى مدة عمرى ، ولا صدر منى ، ما يدل على ذلك .

فكيف أتَقَوَّله بعد ذلك ، وقد لبثت فيكم عمراً طويلا ، تعرفون حقيقة حالى ، بأنى أمى ، لا أقرأ ، ولا أكتب ، ولا أدرس ، ولا أتعلم من أحد ؟ ! !

فأتيتكم بكتاب عظيم ، أعجز الفصحاء ، وأعيا العلماء .

فهل يمكن ـ مع هذا ـ أن يكون من تلقاء نفسى ، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد ؟

فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم ، وتدبرتم حالى وحال هذا الكتاب ،

بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

لجزمتم جزماً لا يقبل الريب بصدقه ، وأنه الحق ، الذى ليس بعده ، إلا الضلال .

ولكن إذا أبيتم إلا التكذيب والعناد ، فأنتم لاشك أنكم ظالمون .

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو كذب بآياته » ؟ ! !

فلو كنت مُتَقَوِّلاً ، لكنت أظلم الناس ، وفاتنى الفلاح ، ولم تخف عليكم حالى .

ولكنى جئتكم بآيات الله ، فكذبتم بها ، فتعين فيكم الظلم .

ولابد أن أمركم سيضمحل ، ولن تنالوا الفلاح ، مادمتم كذلك .

ودل قوله [قال الذين لا يرجون لقاءنا] الآية ، أن الذى حملهم على هذا التعنت ، الذى صدر منهم ، هو عدم إيمانهم بلقاء الله ، وعدم رجائه ، وأن من آمن بلقاء الله ، فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب ، ويؤمن به ، لأنه حسن القصد .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ

---

* يقول تعالى : [ويعبدون] أى : المشركون المكذبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

[من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم] أى : إن معبوداتهم ، لاتملك لهم مثقال ذرة ، من النفع ، ولا تدفع عنهم شيئا .

[ويقولون] قولا خاليا من البرهان :

[هؤلاء شفعاؤنا عند الله] أى : يعبدونهم ، ليقربوهم إلى الله ، ويشفعوا لهم عنده .

وهذا قول من تلقاء أنفسهم ، وكلام ، ابتكروه ، هم .

ولهذا قال تعالى - مبطلا لهذا القول : -

[قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض] .

أى : الله تعالى هو العالم ، الذى أحاط علما بجميع ما فى السموات والأرض ، وقد أخبركم ، بأنه ليس له شريك ولا إله معه .

أفأنتم - يامعشر المشركين - تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء ؟ .

أفتخبرونه بأمر خفى عليه ، وعلمتوه ؟ أأنتم أعلم أم الله ؟

فهل يوجد قول أبطل من هذا القول ، المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء ، أعلم من رب العالمين ؟

سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول ، فإنه يجزم بفساده وبطلانه .

[سبحانه وتعالى عما يشركون] أى : تقدس وتنزه ، أن يكون له شريك أو نظير .

بل هو الله الأحد الفرد الصمد ، الذى لا إله ، فى السموات والأرض ، إلا هو .

وكل معبود فى العالم العلوى والسفلى سواه ، فإنه باطل عقلا ، وشرعا ، وفطرة .

« ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه ، هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير » .

* أى [وما كان الناس إلا أمة واحدة] متفقين على الدين الصحيح ، ولكنهم اختلفوا .

فبعث الله الرسل ، مبشرين ومنذرين ، وأنزل معهم الكتاب ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

[ولولا كلمة سبقت من ربك] بإمهال العاصين ، وعدم معاجلتهم بذنوبهم .

[لقضى بينهم] بأن ننجى المؤمنين ، ونهلك الكافرين المكذبين ، وصار هذا فارقا بينهم [فيما فيه يختلفون] .

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

ولكنه ، أراد امتحانهم ، وابتلاء بعضهم ببعض ، ليتبين الصادق من الكاذب .

* [ويقولون] أى : المكذبون المتعنتون ، [لولا أنزل عليه آية من ربه] .

يعنون : آيات الاقتراح ، التى يعينونها ، كقولهم « ولولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً » الآيات .

وكقولهم « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » الآيات (٩٠ إلى ٩٣) من سورة الإسراء .

[فقل] لهم إذا طلبوا منك آية [إنما الغيب لله] أى : هو المحيط علما بأحوال العباد ، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم ، وحكمته البديعة ، وليس لأحد تدبير فى حكم ولا دليل ، ولا غاية ، ولا تعليل .

[فانتظروا إنى معكم من المنتظرون] أى : كل ينتظر بصاحبه ، ما هو أهل له ، فانظروا لمن تكون العاقبة .

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

---

* يقول تعالى: [وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم] كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا فى طغيانهم ومكرهم.

ولهذا قال: [إذا لهم مكر فى آياتنا] أى يسعون بالباطل، ليبطلوا به الحق.

[قل الله أسرع مكراً] فإن المكر السيء، لايحيق إلا بأهله.

فقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم، ما يعملون، ويحصيه الله، ثم يجازيهم عليه أوفر الجزاء.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ

---

* لما ذكر تعالى، القاعدة العامة فى أحوال الناس، عند إصابة الرحمة لهم، بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ذكر حالة، تؤيد ذلك، وهى: حالهم فى البحر، عند اشتداده، والخوف من عواقبه.

فقال: [هو الذى يسيركم فى البر والبحر] بما يسر لكم من الأسباب الميسرة لكم فيها، وهداكم إليها.

[حتى إذا كنتم فى الفلك] أى: السفن البحرية [وجرين بهم بريح طيبة] موافقة لما يهوونه، من غير انزعاج ولا مشقة.

[وفرحوا بها] واطمأنوا إليها.

فبينما هم كذلك، [إذ جاءتها ريح عاصف] شديدة الهبوب [وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم] أى: عرفوا أنه الهلاك.

فانقطع حينئذ، تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده.

وحينئذ [دعوا الله مخلصين له الدين] ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام.

فقالوا: [لئن أنجيتنا من هذه، لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم

ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق] أى نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم ، فأشركوا بالله ، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد ، ولا يدفع عنهم المضايق .

فهلا أخلصوا لله العبادة فى الرخاء ، كما أخلصوها فى الشدة ؟!! .

ولـكن هذا البغى ، يعود وباله عليهم ، ولهذا قال :

[يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا] أى : غاية ما تؤملون ببغيكم ، وشرودكم عن الإخلاص لله ، أن تنالوا شيئاً من حطام الدنيا وجاهها ، النزر اليسير ، الذى سينقضى سريعاً ، ويمضى جميعاً ، ثم تنتقلون عنه بالرغم .

[ثم إلينا مرجعكم] فى يوم القيامة [فننبئكم بما كنتم تعملون] وفى هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ

---

* وهذا المثل من أحسن الأمثلة ، وهو مطابق لحالة الدنيا .

فإن لذاتها ، وشهواتها ، وجاهها ، ونحو ذلك ، يزهو لصاحبه ، إن زها وقتاً قصيراً .

فإذا استكمل وتم ، اضمحل ، وزال عن صاحبه ، أو زال صاحبه عنه .

فأصبح صفر اليدين منها ، ممتلىء القلب من همها وحزنها وحسرتها .

فذلك [كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض] أى : نبت فيها من كل صنف ، وزوج بهيج [مما يأكل الناس] كالحبوب والثمار [و] مما تأكل [الأنعام] كأنواع العشب ، والكلأ المختلف الأصناف .

[حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت] أى : تزخرفت فى منظرها ، واكتست فى زينتها ، فصارت بهجة للناظرين ، ونزهة للمتفرجين ، وآية للمتبصرين .

فصرت ترى لها منظراً عجيباً ما بين أخضر ، وأصفر ، وأبيض وغيره .

[وظن أهلها أنهم قادرون عليها] أى : حصل معهم طمع ، بأن ذلك سيستمر ويدوم ، لوقوف إرادتهم عنده ، وانتهاء مطالبهم فيه .

فبينما هم فى تلك الحالة [أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً ، كأن لم تغن بالأمس] أى : كأنها ما كانت . فهذه حالة الدنيا ، سواء بسواء .

عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ

[كذلك نفصل الآيات] أى : نبينها ونوضحها ، بتقريب المعانى إلى الأذهان ، وضرب الأمثال [لقوم يتفكرون] أى : يعملون أفكارهم فيما ينفعهم .

وأما الغافل المعرض ، فهذا لا تنفعه الآيات ، ولا يزيل عنه الشك البيان.

ولما ذكر الله حال الدنيا ، وحاصل نعيمها ، شوّق إلى الدار الباقية فقال :

[والله يدعو إلى دار السلام] إلى [وهم فيها خالدون] .

* عمم تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام ، والحث على ذلك ، والترغيب .

وخص بالهداية ، من شاء استخلاصه واصطفاءه .

فهذا فضله وإحسانه ، والله يختص برحمته من يشاء .

وذلك عدله وحكمته ، وليس لأحد عليه حجة ، بعد البيان والرسل .

وسمى الله الجنة « دار السلام » لسلامتها من جميع الآفات والنقائص .

وذلك ، لكمال نعيمها ، وتمامه ، وبقائه ، وحسنه من كل وجه .

ولما دعا إلى دار السلام ، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها ، الموصلة إليها ، أخبر عنها بقوله :

إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾

[للذين أحسنوا الحسنى وزيادة] أى : للذين أحسنوا فى عبادة الخالق، بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة ، فى عبوديته ، وقاموا بما قدروا عليه منها ، وأحسنوا إلى عباد الله ، بما يقدرون عليه من الإحسان القولى والفعلى ، من بذل الإحسان المالى ، والإحسان البدنى ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وتعليم الجاهلين ، ونصيحة المعرضين ، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان .

فهؤلاء الذين أحسنوا ، لهم « الحسنى » وهى: الجنة الكاملة فى حسنها و « زيادة » وهى : النظر إلى وجه الله الكريم ، وسماع كلامه ، والفوز برضاه والبهجة بقربه .

فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون ، ويسأله السائلون .

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: [ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة] .

أى : لا ينالهم مكروه ، بوجه من الوجوه ، لأن المكروه ، إذا وقع بالإنسان . تبين ذلك فى وجهه ، وتغير ، وتكدر .

وأما هؤلاء ـ فكما قال الله عنهم ـ « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ».

[أولئك أصحاب الجنة] الملازمون لها [هم فيها خالدون] لا يحولون ، ولا يزولون ، ولا يتغيرون .

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

* لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار .

فذكر أن بضاعتهم التى اكتسبوها فى الدنيا هى الأعمال السيئة المسخطة لله ، من أنواع الكفر والتكذيب ، و صناف المعاصى .

ف [جزاؤهم سيئة بمثلها] أى : جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم .

[وترهقهم] أى تغشاهم [ذلة] فى قلوبهم وخوف من عذاب الله .

لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم .

وتسرى تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم ، فتكون سواداً فى وجوههم .

[كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون] فكم بين الفريقين من الفرق ، ويابعد ما بينهما من التفاوت ؟!

« وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة * وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة » .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ

---

* يقول تعالى [ويوم نحشرهم جميعاً] أى : نجمع جميع الخلائق ، لميعاد يوم معلوم ، ونحضر المشركين ، وما كانوا يعبدون من دون الله .

[ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤهم] أى : الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم .

[فزيلنا بينهم] أى : فرقنا بينهم، بالبعد البدنى والقلبى .

فحصلت بينهم العداوة الشديدة ، بعد أن بذلوا لهم فى الدنيا ، خالص المحبة ، وصَفْوَ الوداد .

فانقلبت تلك المحبة والولاية ، بغضاً وعداوة .

[وقال شركاؤهم] متبرئين منهم : [ما كنتم إيانا تعبدون] فإننا ننزه الله أن يكون له شريك ، أو نديد .

[فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم أن كنا عن عبادتكم لغافلين] .

ما أمرناكم بها ، ولا دعوناكم لذلك ، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك ، وهو الشيطان كما قال تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » .

وقال : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون » .

إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

فالملائكة الكرام ، والأنبياء ، والأولياء ونحوهم : يتبرأون ممن عبدهم يوم القيامة ويتنصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون فى ذلك .

فحينئذ يتحسر المشركون حسرة ، لا يمكن وصفها .

ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال ، وما أسلفوا من ردىء الخصال .

ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين ، وأنهم مفترون على الله ، قد ضلت عبادتهم ، واضمحلت معبوداتهم ، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل .

ولهذا قال : [هنالك] أى : فى ذلك اليوم [تبلو كل نفس ما أسلفت] أى : تتفقد أعمالها وكسبها ، وتتبعه بالجزاء ، وتجازى بحسبه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

[وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون] من قولهم بصحة ما هم عليه من الشرك ، وأن ما يعبدون من دون الله ، تنفعهم ، وتدفع عنهم العذاب .

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٣١﴾

---

* أى : قل لهؤلاء الذين أشركوا بالله ، ما لم ينزل به سلطاناً — محتجا عليهم بما أقروا به ، من توحيد الربوبية ، على ما أنكروه من توحيد الألوهية — [قل من يرزقكم من السماء والأرض] بإنزال الأرزاق من السماء ، وإخراج أنواعها من الأرض ، وتيسير أسبابها فيها ؟

[أم من يملك السمع والأبصار] أى : من هو الذى خلقهما وهو مالكهما ؟ .

وخصهما بالذكر ، من باب التنبيه على المفضول بالفاضل ، ولكمال شرفهما ونفعهما .

[ومن يخرج الحى من الميت] كإخراج أنواع الأشجار والنبات ، من الحبوب والنوى ، وإخراج المؤمن من الكافر ، والطائر من البيضة ، ونحو ذلك .

[ويخرج الميت من الحى] عكس هذه المذكورات .

[ومن يدبر الأمر] فى العالم العلوى والسفلى ، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية .

فإنك إذا سألتهم عن ذلك [فسيقولون الله] لأنهم يعترفون بجميع ذلك ، وأن الله لا شريك له فى شىء من المذكورات .

[فقل] لهم إلزاما بالحجة [أفلا تتقون] الله فتخلصون له العبادة ، وحده لا شريك له ، وتخلعون ما تعبدونه من دونه ، من الأنداد والأوثان .

فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

[فذلكم] الذى وصف نفسه بما وصفها به [الله ربكم] أى : المألوه المعبود المحمود ، المربى جميع الخلق بالنعم وهو [الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال] .

فإنه تعالى ، المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء ، الذى ما بالعباد من نعمة ، إلا منه ، ولا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يدفع السيئات إلا هو ، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة ، والجلال والإكرام .

[فأنى تصرفون] عن عبادة مَنْ هذا وصفه ، إلى عبادة الذى ليس له من وجوده إلا العدم ، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًا ، ولا موتا ، ولا حياة ولا نشورا .

فليس له من الملك مثقال ذرة ، ولا شركة له بوجه من الوجوه ، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه .

فتبًا لمن أشرك به ، وويحاً لمن كفر به .

لقد عدموا عقولهم ، بعد أن عدموا أديانهم ، بل فقدوا دنياهم وأخراهم .

ولهذا قال تعالى عنهم : [كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون] بعد أن أراهم الله من الآيات البينات والبراهين النيرات ، ما فيه عبرة لأولى الألباب ، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين .

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا

---

* يقول تعالى — مبيناً عجز آلهة المشركين، وعدم اتصافها، بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله: [قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق] أى يبتديه [ثم يعيده].

وهذا استفهام، بمعنى النفى والتقرير أى: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهى أضعف من ذلك، وأعجز.

[قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده] من غير مشارك، ولا معاون له على ذلك.

[فأنى تؤفكون] أى: تصرفون، وتنحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء، والإعادة، إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون.

[قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق] ببيانه وإرشاده، أو بإلهامه وتوفيقه.

[قل الله] وحده [يهدى للحق] بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق.

[أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع، أم من لا يهدى] أى: لا يهتدى [إلا أن يهدى] لعدم علمه، ولضلاله، وهى شركاؤهم، التى لا تهدى ولا تهتدى إلا أن تُهْدَى [فما لكم كيف تحكمون] أى: أىّ

لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل ، بصحة عبادة أحد مع الله ، بعد ظهور الحجة والبرهان ، أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده .

فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التى يعبدون مع الله ، أوصافاً معنوية ، ولا أوصافاً فعلية ، تقتضى أن تعبد مع الله ، بل هى متصفة بالنقائص الموجبة لبطلان إلهيتها ، فلأى شيء جعلت مع الله آلهة ؟

فالجواب : أن هذا من تزيين الشيطان للإنسان ، أقبح البهتان،وأضل الضلال ، حتى اعتقد ذلك وألفه ، وظنه حقاً ، وهو لا شيء .

ولهذا قال : [وما يتبع أكثرهم] أى : أكثر الذين يدعون من دون الله شركاء .

[إلا ظناً] أى : ما يتبعون فى الحقيقة شركاء لله ، فإنه ليس لله شريك أصلاً ، عقلا ، ولا نقلا ، وإنما يتبعون الظن [وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً] .

فسموها آلهة ، وعبدوها مع الله ، « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان » .

[إن الله عليم بما يفعلون] وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة .

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ

---

* يقول تعالى : [وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله] أى : غير ممكن ولا متصور ، أن يفترى هذا القرآن على الله ، لأنه الكتاب العظيم ، الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » :

وهو الكتاب الذى « لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » .

وهو الكتاب الذى تكلم به رب العالمين .

فكيف يقدر أحد من الخلق ، أن يتكلم بمثله ، أو بما يقاربه ، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه ؟ ! ! .

فإن كان أحد يماثل الله فى عظمته ، وأوصاف كماله ، أمكن أن يأتى بمثل هذا القرآن .

ولو تنزلنا على الفرض والتقدير ، فتقوّله أحد على رب العالمين ، لعاجله بالعقوبة ، وبادره بالنكال .

[ولكن] الله أنزل هذا الكتاب ، رحمة للعالمين ، وحجة على العباد أجمعين .

أنزله [تصديق الذى بين يديه] من كتب الله السماوية ، بأن وافقها ، وصدقها بما شهدت به ، وبشرت بنزوله ، فوقع كما أخبرت .

وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن

[وتفصيل الكتاب] للحلال والحرام ، والأحكام الدينية والقدرية ، والإخبارات الصادقة .

[لا ريب فيه من رب العالمين] أى : لا شك ولا مرية فيه ، بوجه من الوجوه .

بل هو الحق اليقين « تنزيل من رب العالمين » الذى ربَّى جميع الخلق بنعمه .

ومن أعظم أنواع تربيته ، أن أنزل عليهم هذا الكتاب ، الذى فيه مصالحهم الدينيه والدنيوية ، المشتمل على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال.

* [أم يقولون] أى المكذبون به ، عناداً وبغياً : [افتراه] محمد على الله ، واختلقه .

[قل] لهم — ملزماً لهم بشىء — إن قدروا عليه ، أمكن ما ادّعوه ، وإلا كان قولهم باطلا .

[فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين] يعاونكم على الإتيان بسورة مثله ، وهذا محال .

ولو كان ممكناً ، لادعوا قدرتهم على ذلك ، ولأتوا بمثله .

ولكن لما بان عجزهم ، تبين أن ما قالوه باطل ، لا حظَّ له من الحجة .

يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

والذي حملهم على التكذيب بالقرآن ، المشتمل على الحق ، الذى لا حق فوقه ، أنهم لم يحيطوا به علماً .

فلو أحاطوا به علماً ، وفهموه حق فهمه ، لأذعنوا بالتصديق به .

وكذلك ، إلى الآن ، لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال .

وهذا التكذيب الصادر منهم ، من جنس تكذيب من قبلهم .

ولهذا قال : [كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين] وهو الهلاك ، الذى لم يبق منهم أحداً .

فليحذر هؤلاء ، أن يستمروا على تكذيبهم ، فيحل بهم ، ما أحل بالأمم المكذبين ، والقرون المهلكين .

وفى هذا دليل على وجوب التثبت فى الأمور ، وأنه لا ينبغى للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده ، قبل أن يحيط به علماً .

* [ومنهم من يؤمن به] أى : بالقرآن وما جاء به .

[ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين] وهم الذين لا يؤمنون به على وجه الظلم ، والعناد ، والفساد ، فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

* [وإن كذبوك] فاستمر على دعوتك ، وليس عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، لكل عمله .

[فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون].

كما قال تعالى « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها » .

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى

---

* يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ، ولما جاء به .

[و] أن [منهم من يستمعون] إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وقت قراءته للوحى ، لا على وجه الاسترشاد ، بل على وجه التفرج والتكذيب ، وتَطَلُّب العثرات ، وهذا استماع ، غير نافع ، ولا مُجْدٍ على أهله خيراً .

لا جرم ، انسد عليهم باب التوفيق ، وحرموا من فائدة الاستماع .

ولهذا قال [أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون] .

وهذا الاستفهام ، بمعنى النفى المتقرر .

أى : لا تسمع الصم ، الذين لا يستمعون القول ، ولو جهرت به ، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوما .

فإذا كان من المحال إسماع الأصم ، الذى لا يعقل ، للكلام ، فهؤلاء المكذبون ، كذلك ، ممتنع إسماعك إياهم ، إسماعاً ينتفعون به .

وأما سماع الحجة ، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة .

فهذا طريق عظيم ، من طرق العلم ، قد انسد عليهم ، وهو طريق المسموعات المتعلقة بالخبر .

ثم ذكر انسداد الطريق الثانى ، وهو : طريق النظر فقال :

* [ومنهم من ينظر إليك] فلا يفيدهم نظرهم إليك ، ولا استراحوا لك شيئاً .

ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

فكما أنك لا تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ، فكذلك لا تهدى هؤلاء .

فإذا فسدت عقولهم ، وأسماعهم ، وأبصارهم ، التى هى الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق ، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق ؟ .

ودل قوله [ومنهم من ينظر إليك] الآية ، أن النظر إلى حالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وهديه ، وأخلاقه ، وأعماله ، وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه ، وصحة ما جاء به ، وأنه يكفى البصير عن غيره من الأدلة .

* وقوله : [إن الله لا يظلم الناس شيئاً] فلا يزيد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم .

[ولكن الناس أنفسهم يظلمون] بمجيئهم الحق ، فلا يقبلونه ، فيعاقبهم الله بعد ذلك ، بالطبع على قلوبهم ، والختم على أسماعهم وأبصارهم .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

---

* يخبر تعالى ، عن سرعة انقضاء الدنيا ، وأن الله تعالى ، إذا حشر الناس ، وجمعهم ليوم لا ريب فيه ، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار ، وكأنه ، ما مر عليهم نعيم ولا بؤس .

وهم يتعارفون بينهم ، كحالهم فى الدنيا .

ففى هذا اليوم ، يربح المتقون ، ويخسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين ، إلى الصراط المستقيم ، والدين القويم ، حيث فاتهم النعيم ، واستحقوا دخول النار .

* أى : لا تحزن أيها الرسول ، على هؤلاء المكذبين ، ولا تستعجل لهم ، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذى نعدهم من العذاب .

إما فى الدنيا ، فتراه بعينك ، وتقرَّ به نفسك .

وإما فى الآخرة بعد الوفاة ، فإن مرجعهم إلى الله ، وسينبئهم بما كانوا يعملون ، أحصاه ونسوه ، والله على كل شىء شهيد .

ففيه الوعيد الشديد لهم ، والتسلية للرسول الذى كذبه قومه وعاندوه .

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [ولكل أمة] من الأمم الماضية [رسول يدعوهم] إلى توحيد الله ودينه .

[فإذا جاء] هم [رسولهم] بالآيات ، صدقه بعضهم ، وكذبه آخرون .

فيقضى الله بينهم بالقسط ، بنجاة المؤمنين ، وإهلاك المكذبين [وهم لا يظلمون] بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول ، وبيان الحجة ، أو يعذبوا بغير جرمهم .

فليحذر المكذبون لك ، من مشابهة الأمم المهلكين ، فيحل بهم ما حل بأولئك .

ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا : [متى هذا الوعد إن كنتم صادقين] فإن هذا ظلم منهم ، حيث طلبوه من النبى صلى الله عليه وسلم .

فإنه ليس له من الأمر شىء ، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس .

وأما حسابهم ، وإنزال العذاب عليهم ، فمن الله تعالى ، ينزل عليهم إذا جاء الأجل، الذى أجله فيه، والوقت الذى قدره فيه ، الموافق لحكمته الإلهية .

فإذا جاء ذلك الوقت ، لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

فليحذر المكذبون من الاستعجال ، فإنهم مستعجلون بعذاب الله ،

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ

الذى إذا نزل ، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، ولهذا قال :

« قل أرأيتم » إلى « تكسبون » .

* يقول تعالى [قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً] وقت نومكم بالليل [أو نهاراً] فى وقت غفلتكم [ماذا يستعجل منه المجرمون] أى : أى بشارة استعجلوا بها ، وأى عقاب ابتدروه ؟ .

* [أثم إذا ما وقع آمنتم به] فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم — توبيخاً وعتاباً فى تلك الحال ، التى زعموا أنهم يؤمنون .

[الآن] تؤمنون فى حال الشدة والمشقة ؟

[وقد كنتم به تستعجلون] فإن سنة الله فى عباده أنه يعتبهم إذا استعتبوه قبل وقوع العذاب .

فإذا وقع العذاب ، لا ينفع نفساً إيمانها ، كما قال تعالى عن فرعون ، لما أدركه الغرق « قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » وأنه يقال له « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » .

وقال تعالى : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده » .

وقال هنا [أثم إذا ما وقع آمنتم به ، آلآن] تدّعون الإيمان .

وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ

[وقد كنتم به تستعجلون] فهذا ما عملت أيديكم ، وهذا ما استعجلتم به .

* [ثم قيل للذين ظلموا] حين يوفون أعمالهم يوم القيامة : [ذوقوا عذاب الخلد] أي : العذاب الذى تخلدون فيه ، ولا يفتر عنكم ساعة .

[هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون] من الكفر والتكذيب والمعاصى .

* يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : [ويستنبئونك أحق هو] أى : يستخبرك المكذبون على وجه التعنت والعناد ، لا على وجه التبين والاسترشاد .

[أحق هو] أى : أصحيح حشر العباد ، وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد ، وجزاء العباد بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ؟

[قل] لهم مقسما على صحته ، مستدلا عليه بالدليل الواضح والبرهان :

[إى ، وربى إنه لحق] لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه .

[وما أنتم بمعجزين] لله أن يبعثكم .

فكما ابتدأ خلقكم ، ولم تكونوا شيئاً ، كذلك يعيدكم مرة أخرى ، ليجازيكم بأعمالكم .

* [و] إذا كانت القيامة [لو أن لكل نفس ظلمت] بالكفر والمعاصى .

جميع [ما فى الأرض] من ذهب وفضة وغيرها ، لتفتدى به من

لَٱفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

عذاب الله [لافتدت به] ولما نفعها ذلك ، وإنما النفع والضر ، والثواب والعقاب ، على الأعمال الصالحة ، والسيئة .

[وأسروا] أى : الذين ظلموا [الندامة لما رأوا العذاب] ندموا على ما قدموا ، ولات حين مناص .

[وقضى بينهم بالقسط] أى : العدل التام ، الذى لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه .

* [ألا إن لله ما فى السموات والأرض] يحكم فيهم بحكمه الدينى والقدرى ، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائى .

ولهذا قال : [ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون] فلذلك لا يستعدون للقاء الله ، بل ربما لم يؤمنوا به ، وقدتواترت عليه الأدلة القطعية ، والبراهين النقلية والعقلية .

* [هو يحيي ويميت] أى : هو المتصرف بالإحياء والإماتة ، وسائر أنواع التدابير ، لا شريك له فى ذلك .

[وإليه ترجعون] يوم القيامة ، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ

---

* يقول تعالى — مرغبا الخلق ، فى الإقبال على هذا الكتاب الكريم ، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال :

[ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم] أى : تعظكم ، وتنذركم عن الأعمال الموجبة لسخط الله ، المقتضية لعقابه ، وتحذركم عنها ببيان آثارها ومفاسدها .

[وشفاء لما فى الصدور] وهو : هذا القرآن ، شفاء لما فى الصدور ، من أمراض الشهوات الصادرة عن الانقياد للشرع ، وأمراض الشبهات ، القادحة فى العلم اليقينى .

فإن ما فيه من المواعظ ، والترغيب ، والترهيب ، والوعد والوعيد ، مما يوجب للعبد الرغبة والرهبة .

وإذا وجدت فيه الرغبة فى الخير ، والرهبة عن الشر ، ونمتا على تكرر ما يرد إليها ، من معانى القرآن ، أوجب ذلك ، تقديم مراد الله على مراد النفس ، وصار ما يرضى الله ، أحب إلى العبد من شهوة نفسه .

وكذلك ما فيه ، من البراهين ، والأدلة ، التى صرفها الله ، غاية التصريف ، وبينها أحسن بيان ، مما يزيل الشبه القادحة فى الحق ، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين .

وإذا صح القلب من مرضه ، ورفل بأثواب العافية ، تبعته الجوارح كلها ، فإنها تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده .

[وهدى ورحمة للمؤمنين] فالهدى هو ، العلم بالحق والعمل به .

وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

والرحمة هى : ما يحصل من الخير والإحسان ، والثواب العاجل والآجل ، لمن اهتدى به .

فالهدى ، أجل الوسائل ، والرحمة ، أكمل المقاصد والرغائب .

ولكن لا يهتدى به ، ولا يكون رحمة إلا فى حق المؤمنين .

وإذا حصل الهدى ، وحلت الرحمة الناشئة عنه ، حصلت السعادة والفلاح ، والربح والنجاح ، والفرح والسرور .

* ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال : [قل بفضل الله] الذى هو : القرآن ، الذى هو أعظم نعمة ومنة ، وفضل تفضل الله به على عباده [ورحمته] الدين والإيمان ، وعبادة الله ومحبته ومعرفته .

[فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون] من متاع الدنيا ولذاتها .

فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين ، لا نسبة بينها ، وبين جميع ما فى الدنيا ، مما هو مضمحل زائل عن قريب .

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته ، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها ، وشكرها لله تعالى وقوتها ، وشدة الرغبة فى العلم والإيمان ، الداعى للازدياد منهما ، وهذا فرح محمود .

بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها ، أو الفرح بالباطل ، فإن هذا مذموم .

كما قال تعالى عن قوم قارون له : « لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين » .

وكما قال تعالى ، فى الذين فرحوا بما عندهم من الباطل ، المناقض ، لما جاءت به الرسل :

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات ، فرحوا بما عندهم من العلم » .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

* يقول تعالى ــ منكراً على المشركين ، الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرمه :

[قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق] يعنى أنواع الحيوانات المحللة ، التى جعلها الله رزقاً لهم ورحمة فى حقهم .

[فجعلتم منه حراماً وحلالا] قل لهم ـ موبخاً على هذا القول الفاسد ـ : [آلله أذن لكم أم على الله تفترون] ؟

ومن المعلوم ، أن الله لم يأذن لهم ، فعلم أنهم مفترون .

* [وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة] أن يفعل الله بهم من النكال ، ويحل بهم من العقاب .

قال تعالى: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة» .

[إن الله لذو فضل على الناس] كثير ، وذو إحسان جزيل .

[ولكن أكثرهم لا يشكرون] إما أنهم ، لا يقومون بشكرها .

وإما أن يستعينوا بها على معاصيه .

وإما أن يحرموا منها ، ويردوا ما منَّ الله به على عباده .

وقليل منهم الشاكر ، الذى يعترف بالنعمة ، ويثنى بها على الله ، ويستعين بها على طاعته .

ويستدل بهذه الآية ، على أن الأصل فى جميع الأطعمة ، الحل ، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق، الذى أنزله لعباده .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى، عن عموم مشاهدته، واطلاعه على جميع أحوال العباد، فى حركاتهم، وسكناتهم، وفى ضمن هذا، الدعوة لمراقبته على الدوام فقال:

[وما تكون فى شأن] أى: حال من أحوالك الدينية والدنيوية.

[وما تتلو منه من قرآن] أى: وما تتلو من القرآن، الذى أوحاه الله إليك.

[ولا تعملون من عمل] صغير أو كبير [إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه] أى: وقت شروعكم فيه، واستمراركم على العمل به.

فراقبوا الله فى أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها.

وإياكم، وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم.

[وما يعزب عن ربك] أى: ما يغيب عن علمه، وسمعه، وبصره، ومشاهدته [من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين] أى: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه.

وهاتان المرتبتان، من مراتب القضاء والقدر، كثيراً ما يقرن الله بينهما، وهما: العلم المحيط بجميع الأشياء، وكتابته المحيطة بجميع الحوادث، كقوله تعالى:

« ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير ».

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ

---

* يخبر تعالى عن أوليائه وأحبائه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم.

فقال: [ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم] فيما يستقبلونه، مما أمامهم، من المخاوف والأهوال.

[ولا هم يحزنون] على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال.

وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير، الذى لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: [الذين آمنوا] بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر، خيره وشره، وصدقوا إيمانهم، باستعمال التقوى، بامتثال الأوامر، واجتناب النواهى.

فكل من كان مؤمناً تقياً، كان لله تعالى ولياً، لذلك كانت [لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة].

أما البشارة فى الدنيا، فهى: الثناء الحسن، والمودة فى قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوىء الأخلاق.

وأما فى الآخرة، فأولها. البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ».

وفى القبر، ما يبشر به من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم.

فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

وفى الآخرة ، تمام البشرى ، بدخول جنات النعيم ، والنجاة من العذاب الأليم .

[لا تبديل لكلمات الله] بل ما وعد الله ، فهو حق ، لا يمكن تغييره ولا تبديله ، لأنه الصادق فى قيله ، الذى لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه .

[ذلك هو الفوز العظيم] لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور ، والظفر بكل مطلوب محبوب .

وحصر الفوز فيه ، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى .

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب ، رتبه الله فى الدنيا والآخرة ، على الإيمان والتقوى ، ولهذا أطلق ذلك ، فلم يقيده .

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾ ﴾

---

* أى : ولا يحزنك قول المكذبين فيك ، من الأقوال ، التى يتوصلون بها إلى القدح فيك ، وفى دينك فإن أقوالهم ، لا تُعِزُّهُم . ولا تضرك شيئاً .

[إن العزة لله جميعاً] يؤتيها من يشاء ، ويمنعها ممن يشاء .

قال تعالى « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » أى : فليطلبها بطاعته ، بدليل قوله بعده « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » ،

ومن المعلوم ، أنك على طاعة الله ، وأن العزة لك ولأتباعك ، من الله .

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

وقوله : [هو السميع العليم] أى : سمعه قد أحاط بجميع الأصوات ، فلا يخفى عليه شىء منها .

وعلمه ، قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، فى السموات والأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

وهو — تعالى — يسمع قولك ، وقول أعدائك فيه ، ويعلم ذلك تفصيلا ، فاكتف بعلم الله وكفايته ، فمن يتق الله ، فهو حسبه .

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

---

* يخبر تعالى : أن له ما فى السموات والأرض ، خلقاً وملكا ، يتصرف فيهم بما يشاء من أحكامه .

فالجميع مماليك لله ، مسخرون ، مدبرون ، لا يستحقون شيئاً من العبادة.

وليسوا شركاء لله ، بوجه الوجوه ، ولهذا قال : [وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن] أى : الذى لا يغنى من الحق شيئاً [وإن هم إلا يخرصون] فى ذلك ، خرص إفك وبهتان .

فإن كانوا صادقين ، فى أن معبوداتهم شركاء لله ، فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة ، فلن يستطيعوا .

فهل منهم أحد يخلق شيئاً ، أو يرزق ، أو يملك شيئاً من المخلوقات ، أو يدبر الليل والنهار ، الذى جعله الله قياماً للناس ؟ .

و [هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه] فى النوم والراحة بسبب الظلمة ، التى تغشى وجه الأرض ، فلو استمر الضياء ، لما قرّوا ، ولما سكنوا.

[و] جعل الله [النهار مبصراً] أى : مضيئاً ، يبصر به الخلق ، فينصرفون فى معايشهم ، ومصالح دينهم ودنياهم .

لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنِۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ

[إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون] عن الله ، سمع فهم ، وقبول ، واسترشاد ، لا سمع تعنت وعناد .

فإن فى ذلك لآيات ، لقوم يسمعون ، ويستدلون بها ، على أنه ، وحده ، المعبود وأنه الإله الحق ، وأن إلهية ما سواه باطلة ، وأنه الرءوف الرحيم العليم الحكيم .

* يقول تعالى — مخبراً عن بهت المشركين لرب العالمين — [قالوا اتخذ الله ولدا] .

فنزه نفسه عن ذلك بقوله : [سبحانه] أى : تنزه عما يقول الظالمون ، فى نسبة النقائص ، إليه علوا كبيرا ، ثم برهن عن ذلك ، بعدة براهين .

أحدها : قوله [هو الغنى] أى : الغنى منحصر فيه ، وأنواع الغنى مستغرقة فيه .

فهو الغنى ، الذى له الغنى التام ، بكل وجه واعتبار ، من جميع الوجوه .

فإذا كان غنياً من كل وجه ، فلأى شىء يتخذ الولد ؟

أَلِحَاجَةٍ منه إلى الولد ، فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولدا إلا لنقص فى غناه .

لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

البرهان الثانى ، قوله : [له ما فى السموات وما فى الأرض] وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السموات والأرض ، الجميع مخلوقون عبيد مماليك .

ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ، ينافى أن يكون له ولد .

فإن الولد من جنس والده ، لا يكون مخلوقا ولا مملوكا .

فملكيته لما فى السموات والأرض عموما ، تنافى الولادة .

البرهان الثالث ، قوله : [إن[1] عندكم من سلطان بهذا] أى : هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن لله ولدا ، فلو كان لهم دليل ، لأبدوه .

فلما تحداهم وعجّزهم على إقامة الدليل ، علم بطلان ما قالوه ، وأن ذلك قول بلا علم .

ولهذا قال : [أتقولون على الله مالا تعلمون] فإن هذا من أعظم المحرمات .

* [قل : إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون] أى :لا ينالون مطلوبهم ، ولا يحصل لهم مقصودهم .

وإنما يتمتعون فى كفرهم وكذبهم ، فى الدنيا ، قليلا ، ثم ينتقلون إلى الله ، ويرجعون إليه ، فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ، « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » .

---

(١) « إن » حرف نفى ، أى : (ما عندكم حجة على ادعائكم أن لله ولداً] فحمل المؤلف حرف « إن » على الاستفهام خطأ ، غير وجيه .

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً

---

* يقول تعالى لنبيه [واتل عليهم] أي: على قومك [نبأ نوح] فى دعوته لقومه، حين دعاهم إلى الله مدة طويلة، فمكث فيهم، ألف سنة إلا خمسين عاما، فلم يزدهم دعاؤه إياهم، إلا طغيانا فتمللوا منه، وسئموا.

وهو، عليه الصلاة والسلام، غير متكاسل، ولا متوان فى دعوتهم، فقال لهم:

[ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله] أى: إن كان مقامى عندكم، وتذكيرى إياكم، ما ينفعكم [بآيات الله] الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم، وعظم لديكم، وأردتم أن تنالونى بسوء أو تردوا الحق.

[فعلى الله توكلت] أى: اعتمدت على الله، فى دفع كل شر يراد بى، وبما أدعو إليه، فهذا جندى، وعُدَّتى.

وأنتم، فأتوا بما قدرتم عليه، من أنواع العَدَدَ والعُددَ.

[فأجمعوا أمركم] كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تدخروا من مجهودكم شيئاً.

[و] أحضروا [شركاءكم] الذى كنتم تعبدونهم وتوالونهم، من دون الله، رب العالمين.

[ثم لا يكن أمركم عليه غمة] أى: مشتبها خفياً، بل ليكن ذلك ظاهرا علانية.

ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونَ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾

[ثم اقضوا إلىَّ أى] أى : اقضوا علىَّ بالعقوبة والسوء ، الذى فى إمكانكم .

[ولا تنظرون] أى : لا تمهلونى ساعة من نهار .

فهذا برهان قاطع ، وآية عظيمة ، على صحة رسالته ، وصدق ما جاء به . حيث كان وحده ، لا عشيرة تحميه ، ولا جنود تؤويه .

وقد بادأ قومه . بتسفيه آرائهم ، وفساد دينهم ، وعيب آلهتهم .

وقد حملوا من بغضه ، وعداوته ، ما هو أعظم من الجبال الرواسى ، وهم أهل القدرة والسطوة .

وهو يقول لهم: اجتمعوا ، أنتم وشركاؤكم ، ومن استطعتم ، وأبدوا كل ما تقدرون عليه ، من الكيد ، فأوقعوا بى ، إن قدرتم على ذلك ، فلم يقدروا على شىء من ذلك .

فعلم أنه الصادق حقاً ، وهم الكاذبون فيما يوعدون ، ولهذا قال :

[فإن توليتم] عن ما دعوتكم إليه ، فلا موجب لتوليكم ، لأنه تبين أنكم ، لا تولون عن باطل إلى حق ، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على فساده .

ومع هذا [فما سألتكم من أجر] على دعوتى ، وعلى إجابتكم ، فتقولوا : هذا جاءنا ، ليأخذ أموالنا ، فتمتنعون لأجل ذلك .

[إن أجرى إلا على الله] أى : لا أريد الثواب والجزاء ، إلا منه .

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

[و] أيضا فإنى ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده .

بل [أمرت أن أكون من المسلمين] فأنا أول داخل ، وأول فاعل، لما أمرتكم به .

[فكذبوه] بعد ما دعاهم ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا ، فلم يزدهم دعاؤه إلا فرارا .

[فنجيناه ومن معه فى الفلك] الذى أمرناه ، أن يصنعه بأعيننا ، وقلنا له — إذا فار التنور ، : « فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول ومن آمن » ففعل ذلك .

فأمر الله السماء أن تمطر بماء منهمر وفجر الأرض عيونا ، فالتقى الماء على أمر قد قدر « وحملناه على ذات ألواح ودسر » تجرى بأعيننا .

[وجعلناهم خلائف] فى الأرض ، بعد إهلاك المكذبين .

ثم بارك الله فى ذريته ، وجعل ذريته ، هم الباقين ، ونشرهم فى أقطار الأرض .

[وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا] بعد ذلك البيان ، وإقامة البرهان .

[فانظر كيف كان عاقبة المنذرين] وهو : الهلاك المخزى ، واللعنة المتتابعة عليهم فى كل قرن يأتى بعدهم ، لا تسمع فيهم إلا لوما ، ولا ترى إلا قدحاً وذماً .

فليحذر هؤلاء المكذبون ، أن يحل بهم ، ما حل بأولئك الأقوام المكذبين ، من الهلاك ، والخزى ، والنكال .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

---

* أى : [ثم بعثنا من بعده] أى : من بعد نوح عليه السلام [رسلا إلى قومهم] المكذبين ، يدعونهم إلى الهدى ، ويحذرونهم من أسباب الردى .

[فجاءوهم بالبينات] أى : كل نبى أُيّد دعوته ، بالآيات الدالة على صحة ما جاء به .

[فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل] يعنى: أن الله تعالى عاقبهم ، حيث جاءهم الرسول ، فبادروا بتكذيبه ، فطبع الله على قلوبهم،وحال بينهم وبين الإيمان ، بعد أن كانوا متمكنين منه ، كما قال تعالى : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » .

ولهذا قال هنا [كذلك نطبع على قلوب المعتدين] أى : نختم عليها ، فلا يدخلها خير .

وما ظلمهم الله ، ولكنهم ظلموا أنفسهم ، بردهم الحق ، لما جاءهم ، وتكذيبهم الأول .

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ

---

* أى : [ثم بعثنا من بعدهم] أى : من بعد هؤلاء الرسل ، الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين .

[موسى] بن عمران ، كليم الرحمن ، أحد أولى العزم من المرسلين ، وأحد الكبار المقتدى بهم ، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة .

[و] جعلنا معه أخاه [هرون] وزيرا وبعثناهما [إلى فرعون وملإِهِ] أى : كبار دولته ورؤسائهم ، لأن عامتهم ، تبع للرؤساء .

[بآياتنا] الدالة على صدق ما جاءا به ، من توحيد الله ، والنهى عن عبادة ماسوى الله تعالى .

[فاستكبروا] عنها ، ظلما وعلوا ، بعد ما استيقنوها .

[وكانوا قوما مجرمين] أى : وصفهم الإجرام والتكذيب .

[فلما جاءهم الحق من عندنا] الذى هو أكبر أنواع الحق وأعظمها ، وهو من عند الله ، الذى خضعت لعظمته الرقاب ، وهو رب العالمين ، المربى جميع خلقه بالنعم .

☆ فلما جاءهم الحق من عند الله ، على يد موسى ، ردوه فلم يقبلوه .

و [قالوا : إن هذا لسحر مبين] لم يكفهم — قبحهم الله — إعراضهم ولا ردهم إياه ، حتى جعلوه أبطل الباطل ، وهو السحر : الذى حقيقته : التمويه ، بل جعلوه سحراً مبينا ، ظاهراً ، وهو الحق المبين .

أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ

ولهذا [قال] لهم [موسى] - موبخا لهم عن ردهم الحق ، الذى لا يرده إلا أظلم الناس : -

[أتقولون للحق لما جاءكم] أى : أتقولون إنه سحر مبين .

[أسحر هذا] أى : فانظروا وصفه ، وما اشتمل عليه .

فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق .

[ولا يفلح الساحرون] لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة .

فانظروا لمن تكون العاقبة ، ومن له الفلاح ، وعلى يديه النجاح .

وقد علموا بعد ذلك ، وظهر لكل أحد ، أن موسى عليه السلام ، هو الذى أفلح ، وفاز بظفر الدنيا والآخرة .

* [قالوا] لموسى ، رادين لقوله بما لا يرد به : [أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا] أى : أجئتنا لتصدنا عما وجدنا عليه آباءنا ، من الشرك ، وعبادة غير الله ، وتأمرنا بأن نعبد الله وحده لاشريك له ؟ فجعلوا قول آبائهم الضالين ، حجة ، يردون بها الحق ، الذى جاءهم به موسى عليه السلام .

وقوله : [وتكون لكما الكبرياء فى الأرض] أى : وجئتمونا لتكونوا أنتم الرؤساء ، ولتخرجونا من أراضينا .

ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ

وهذا تمويه منهم ، وترويج على جهالهم ، وتهييج لعوامهم ، على معاداة موسى ، وعدم الإيمان به .

وهذا لايحتج به ، من عرف الحقائق ، وميز بين الأمور ، فإن الحجج لاتدفع ، إلا بالحجج والبراهين .

وأما من جاء بالحق ، فرد قوله بأمثال هذه الأمور ، فإنها تدل على عجز موردها ، عن الإتيان بما يرد القول الذى جاء خصمه ، لأنه لو كان له حجة ، لأوردها ، ولم يلجأ إلى قوله : قصدك كذا ، أومرادك كذا ، سواء كان صادقا فى قوله وإخباره عن قصد خصمه ، أم كاذبا .

مع أن موسى عليه الصلاة والسلام ، كل من عرف حاله ، وما يدعو إليه ، عرف أنه ليس له قصد فى العلو فى الأرض .

وإنما قصده ، كقصد إخوانه المرسلين ، هداية الخلق ، وإرشادهم لما فيه نفعهم .

ولكن حقيقة الأمر ، كما نطقوا به بقولهم : [وما نحن لكما بمؤمنين] أى : تكبراً وعناداً ، لا لبطلان ما جاء به موسى وهرون ، ولا لاشتباه فيه ، ولا لغير ذلك من المعانى ، سوى الظلم والعدوان ، وإرادة العلو ، الذى رموا به موسى وهرون .

* [وقال فرعون] معارضاً للحق ، الذى جاء به موسى ، ومغالبا للملإ وقومه : [ائتونى بكل ساحر عليم] أى : ماهر بالسحر ، متقن له .

فأرسل فى مدائن مصر ، من أتاه بأنواع السحرة ، على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم .

* [فلما جاء السحرة] للمغالبة لموسى [قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون] .

أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ

أى : أى شيء أردتم ، لا أعين لكم شيئا .

وذلك لأنه جازم بغلبته ، غير مبال بهم ، وبما جاءوا به .

* [فلما ألقوا] حبالهم وعصيهم ، إذا هى كأنها حيات تسعى .

[قال موسى ما جئتم به السحر] أى : هذا السحر الحقيق العظيم .

ولكن مع عظمته [إن الله سيبطله ، إن الله لايصلح عمل المفسدين] .

فإنهم يريدون بذلك ، نصر الباطل على الحق ، وأى فساد أعظم من هذا ؟ ! ! .

وهكذا كل مفسد ، عمل عملا ، واحتال كيدا ، أو أتى بمكر ، فإن عمله سيبطل ويضمحل .

وإن حصل لعمله رواج فى وقت ما ، فإن مآله ، الاضمحلال والمحق .

وأما المصلحون ، الذين قصدهم بأعمالهم ، وجه الله تعالى ، وهى أعمال ووسائل نافعة ، مأمور بها ، فإن الله يصلح أعمالهم ويرقيها ، وينميها على الدوام .

فألقى موسى عصاه ، فتلقفت جميع ماصنعوا ، فبطل سحرهم ، واضمحل باطلهم .

* [ويحق الله الحق بكلماته ، ولو كره المجرمون] فأذعن السحرة ، حين تبين لهم الحق .

لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم

فتوعدهم فرعون بالصلب ، وتقطيع الأيدى والأرجل فلم يبالوا بذلك وثبتوا على إيمانهم .

وأما فرعون وملأه ، وأتباعهم ، فلم يؤمن منهم أحد ، بل استمروا فى طغيانهم يعمهون .

* ولهذا قال : [فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه] أى : شباب من بنى إسرائيل ، صبروا على الخوف ، لما ثبت فى قلوبهم الإيمان .

[على خوف من فرعون وملإهم أن يفتنهم] عن دينهم [وإن فرعون لعال فى الأرض] أى : له القهر والغلبة فيها ، فحقيق بهم أن يخافوا من بطشته .

[و] خصوصا [إنه كان من المسرفين] أى : المتجاوزين للحد ، فى البغى والعدوان .

والحكمة ـ والله أعلم ـ بكونه ، ما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، أن الذرية والشباب ، أقبل للحق ، وأسرع له انقيادا .

بخلاف الشيوخ ونحوهم ، ممن تربى على الكفر فإنهم ـ بسبب ما مكث فى قلوبهم من العقائد الفاسدة ـ أبعد عن الحق من غيرهم .

* [وقال موسى] موصيا لقومه بالصبر ، ومذكرا لهم مايستعينون به على ذلك فقال : ـ

مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

[ياقوم إن كنتم آمنتم بالله] فقوموا بوظيفة الإيمان بالله .

[فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين] أى : اعتمدوا عليه ، والجأوا إليه واستنصروه .

* [فقالوا] ممتثلين لذلك [على الله توكلنا ربنا لاتجعلنا فتنة للقوم الظالمين] أى : تسلطهم علينا ، فيفتنونا ، أو يغلبونا ، فيفتنونا بذلك ، ويقولون : لو كانوا على حق لما غلبوا .

* [ونجنا برحمتك من القوم الكافرين] لنسلم من شرهم ، ولنقيم على ديننا ، على وجه نتمكن به ، من إقامة شرائعه ، وإظهاره ، من غير معارض ، ولا منازع .

* [وأوحينا إلى موسى وأخيه] حين اشتد الأمر على قومهما ، من فرعون وقومه ، وحرصوا على فتنتهم عن دينهم .

[أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا] أى : مروهم أن يجعلوا لهم بيوتا ، يتمكنون بها من الاستخفاء فيها .

[واجعلوا بيوتكم قبلة] أى : اجعلوها محلا ، تصلون فيها ، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة فى الكنائس ، والْبِيَعِ العامة .

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

[وأقيموا الصلاة] فإنها معونة على جميع الأمور .

[وبشر المؤمنين] بالنصر والتأييد ، وإظهار دينهم ، فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا .

وإذا اشتد الكرب ، وضاق الأمر ، فرّجه الله ، ووسعه .

فلما رأى موسى ، القسوة والإعراض من فرعون وملاٍه ، دعا عليهم ، وأمّن هرون على دعائه ، فقال :

[ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة] يتزينون بها من أنواع الحلى والثياب ، والبيوت المزخرفة ، والمراكب الفاخرة ، والخدام .

[وأموالا] عظيمة [فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك] .

أى : إن أموالهم ، يستعينون بها على الإضلال فى سبيلك ، فَيَضِلُّون وَيُضِلُّون .

[ربنا اطمس على أموالهم] أى : أتلفها عليهم : إما بالهلاك ، وإما بجعلها حجارة ، غير منتفع بها .

[واشدد على قلوبهم] أى : قَسِّها[1] [فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم] .

---

(١) قسها . أى : اجعلها قاسية .

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ

قال ذلك ، غضبا عليهم ، حيث تجرأوا على محارم الله ، وأفسدوا عباد الله ، وصدوا عن سبيله .

ولكمال معرفته بربه ، بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا ، بإغلاق باب الإيمان عليهم .

* [قال] الله تعالى [قد أجيبت دعوتكما] .

هذا دليل على أن موسى ، كان يدعو ، وهرون يُؤَمِّنُ على دعائه ، وأن الذى يؤمن ، يكون شريكا للداعى فى ذلك الدعاء .

[فاستقيما] على دينكما ، واستمرا على دعوتكما .

[ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون] أى : لا تتبعان سبيل الجهال الضلال ، المنحرفين عن الصراط المستقيم ، المتبعين لطرق الجحيم .

فأمر الله موسى أن يسرى ببنى إسرائيل ليلا ، وأخبره أنهم سيتبعونه .

وأرسل فرعون فى المدائن حاشرين .

يقولون « إن هؤلاء » أى : موسى وقومه « لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون » .

فجمع جنوده ، قاصيهم ودانيهم ، فأتبعهم بجنوده ، بغيا وعدوا أى : أخرجهم باغين على موسى وقومه ، ومعتدين فى الأرض .

وإذا اشتد البغى ، واستحكم الذنب ، فانتظر العقوبة .

* [وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر] وذلك أن الله أوحى إلى موسى ،

وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ

لما وصل البحر ، أن يضرب به بعصاه ، فضربه ، فانفلق اثنى عشر طريقا ، وسلكه بنو إسرائيل .

وساق فرعون وجنوده خلفه داخلين .

فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر ، وفرعون وجنوده داخلين فيه ، أمر الله البحر ، فالتطم على فرعون وجنوده ، فأغرقهم ، وبنو إسرائيل ينظرون .

حتى إذا أدرك فرعون الغرق ، وجزم بهلاكه [قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل] وهو الله الإله الحق الذى لا إله إلا هو [وأنا من المسلمين] أى : المنقادين لدين الله ، ولما جاء به موسى .

قال الله تعالى — مبينا أن هذا الإيمان فى هذه الحالة غير نافع له — :

[آلآن] تؤمن ، وتقر برسول الله [وقد عصيت قبل] أى : بارزت بالمعاصى ، والكفر والتكذيب [وكنت من المفسدين] فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله ، أن الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية ، أنه لا ينفعهم إيمانهم ، لأن إيمانهم ، صار إيمانا مشاهدا كإيمان من ورد القيامة ، والذى ينفع ، إنما هو الإيمان بالغيب .

[فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية] .

قال المفسرون : إن بنى إسرائيل لما فى قلوبهم من الرعب العظيم ، من فرعون ، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه ، وشكوا فى ذلك .

بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه ، ليكون لهم عبرة وآية .

[وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون] فلذلك تمر عليهم وتتكرر فلا ينتفعون بها ، لعدم إقبالهم عليها .

وأما من له عقل وقلب حاضر ، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل .

* [ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق] أى : أنزلهم الله وأسكنهم فى مساكن آل فرعون ، وأورثهم أرضهم وديارهم .

[ورزقناهم من الطيبات] من المطاعم والمشارب وغيرها [فما اختلفوا] فى الحق [حتى جاءهم العلم] الموجب لاجتماعهم وائتلافهم .

ولكن بغى بعضهم على بعض ، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق ، فحصل بينهم من الاختلاف شىء كثير .

[إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون] بحكمة العدل الناشىء على علمه التام ، وقدرته الشاملة .

وهذا هو الداء ، الذى يعرض لأهل الدين الصحيح .

. . . .

وهو : أن الشيطان إذا أعجزه أن يطيعوه فى ترك الدين بالكلية ، سعى فى التحريش بينهم ، وإلقاء العداوة والبغضاء ، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك .

ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض ، وعداوة بعضهم لبعض ، ما هو قرة عين اللعين .

وإلا فإذا كان ربهم واحدا ، ورسولهم واحدا ، ودينهم واحدا ، ومصالحهم العامة متفقة ، فلأى شيء يختلفون اختلافا ، يفرق شملهم ، ويشتت أمرهم ، ويحل رابطتهم ونظامهم ، فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية مايفوت ، ويموت من دينهم ، بسبب ذلك ما يموت ؟ .

فنسألك اللهم ، لطفا بعبادك المؤمنين ، يجمع شملهم ويرأب صدعهم ، ويرد قاصيهم على دانيهم ، ياذا الجلال والإكرام .

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْئَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ

---

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك] هل هو صحيح ، أم غير صحيح ؟ .

[فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك] أى : اسأل أهل الكتب المنصفين ، والعلماء الراسخين ، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به ، وموافقته لما معهم .

فإن قيل : إن كثيرا من أهل الكتاب ، من اليهود والنصارى ، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم ، كذبوا رسول الله ، وعاندوه ، وردوا عليه دعوته .

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم ، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به ، وبرهانا على صدقه ، فكيف يكون ذلك ؟

فالجواب عن هذا ، من عدة أوجه .

منها : أن الشهادة ، إذا أضيفت إلى طائفة ، أو أهل مذهب ، أو بلد ونحوهم ، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم .

وأما من عداهم ، فلو كانوا أكثر من غيرهم ، فلا عبرة فيهم ، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق ، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين ، كـ « عبد الله بن سلام » وأصحابه ، وكثير ممن أسلم في وقت النبي صلى الله عليه وسلم ، وخلفائه ، ومن بعدهم .

ومنها : أن شهادة أهل الكتاب للرسول ، مبنية على كتابهم التوراة الذى ينتسبون إليه .

. . . .

فإذا كان موجوداً فى التوراة ، ما يوافق القرآن ويصدقه ، ويشهد له بالصحة ، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم ، على إنكار ذلك ، لم يقدح بما جاء به الرسول .

ومنها : أن الله تعالى أمر رسوله ، أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه ، وظهر ذلك ، وأعلنه على رءوس الأشهاد .

ومن المعلوم أن كثيراً منهم ، من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول ، محمد صلى الله عليه وسلم .

فلو كان عندهم مايرد ما ذكره الله ، لأبدوه ، وأظهروه وبينوه .

فلما لم يكن شىء من ذلك ، كان عدم رد المعادى ، وإقرار المستجيب ، من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه .

ومنها : أنه ليس أكثر أهل الكتاب ، رد دعوة الرسول ، بل أكثرهم استجاب لها ، وانقاد طوعا واختياراً ، فإن الرسول بعث ، وأكثر أهل الأرض المتدينين ، أهل الكتاب .

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة ، حتى انقاد للإسلام ، أكثر أهل الشام ، ومصر ، والعراق ، وما جاورها من البلدان ، التى هى مقر دين أهل الكتاب .

فلم يبق إلا أهل الرياسات ، الذين آثروا رياساتهم على الحق ، ومن تبعهم من العوام الجهلة ، ومن تدين بدينهم اسما لامعنى ، كالإفرنج ، الذين حقيقة أمرهم ، أنهم دهرية ، منحلون عن جميع أديان الرسل .

وإنما انتسبوا للدين المسيحى ، ترويجا لملكهم ، وتمويها لباطلهم ، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البينة الظاهرة .

فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾

وقوله : [لقد جاءك الحق] أى : الذى لاشك فيه بوجه من الوجوه [من ربك فلا تكونن من الممترين] كقوله تعالى « كتاب أنزلناه إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه » .

* [ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ، فتكون من الخاسرين] .

وحاصل هذا : أن الله نهى عن شيئين : الشك فى هذا القرآن والامتراء منه .

وأشد من ذلك ، التكذيب به ، وهو آيات الله البينات ، التى لاتقبل التكذيب بوجه ، ورتب على هذا الخسار وهو : عدم الربح أصلا ، وذلك بفوات الثواب ، فى الدنيا والآخرة ، وحصول العقاب ، فى الدنيا والآخرة .

والنهى عن الشىء أمر بضده ، فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن ، وطمأنينة القلب إليه ، والإقبال عليه ، علما وعملا .

فبذلك يكون العبد من الرابحين ، الذين أدركوا أجل المطالب ، وأفضل الرغائب ، وأتم المناقب ، وانتفى عنهم الخسار .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾

---

* يقول تعالى : [إن الذين حقت عليهم كلمة ربك] .

أى : إنهم من الضالين الغاوين أهل النار ، لابد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه ، فلا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية ، فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانا ، وغيًّا إلى غيهم .

وما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم ، بردهم للحق ، لما جاءهم أول مرة ، فعاقبهم الله ، بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم ، وأبصارهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، الذى وعدوا به .

فحينئذ يعلمون حق اليقين ، أن ما هم عليه هو الضلال ، وأن ماجاءتهم به الرسل هو الحق .

ولكن فى وقت لا يجدى عليهم إيمانهم شيئا .

فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ، ولاهم يستعتبون .

وأما الآيات ، فإنها تنفع من له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [فلولا كانت قرية] من القرى المكذبين [آمنت] حين رأيت العذاب [فنفعها إيمانها] أى : لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه ، حين رأى العذاب ، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريبا ، لما قال :

« آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » فقيل له « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » .

وكما قال تعالى « فلما جاءهم بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى خلت فى عباده » .

وقال تعالى « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا » .

والحكمة فى هذا ظاهرة ، فإن الإيمان الاضطرارى ، ليس بإيمان حقيقة ، ولو صرف عنه العذاب ، والأمر الذى اضطره إلى الإيمان ، لرجع إلى الكفران .

وقوله [إلا قوم يونس لما آمنوا بعد ما رأوا العذاب ، كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين] فهم مستثنون من العموم السابق .

ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة ، لم تصل إلينا ، ولم تدركها أفهامنا .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

قال الله تعالى « وإن يونس لمن المرسلين » إلى قوله « فأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين » .

ولعل الحكمة فى ذلك ، أن غيرهم من المهلكين ، لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .

وأما قوم يونس ، فإن الله أعلم أن إيمانهم سيستمر ، بل قد استمر فعلا وثبتوا عليه ، والله أعلم .

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : [ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً] بأن يلهمهم الإيمان ، ويوزع قلوبهم للتقوى ، فقدرته صالحة لذلك .

ولكنه اقتضت حكمته ، أن كان بعضهم مؤمنين ، وبعضهم كافرين .

[أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين] أى : لاتقدر على ذلك ، وليس فى إمكانك ، ولا قدرة لغير الله على شىء من ذلك .

* [وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله] بإرادته ومشيئته ، وإذنه القدرى الشرعى .

فمن كان من الخلق قابلا لذلك ، ويزكو عنده الإيمان ، وفقه وهداه .

[ويجعل الرجس] أى : الشر والضلال [على الذين لا يعقلون] عن الله أوامره ونواهيه ، ولا يلقوا بالاً لنصائحه ومواعظه :

* قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا

---

* يدعو تعالى عباده ، إلى النظر لما فى السموات والأرض .

والمراد بذلك : نظر الفكر والاعتبار والتأمل ، لما فيها ، وما تحتوى عليه ، والاستبصار .

فإن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ، وَعِبَرًا لقوم يوقنون ، تدل على أن الله وحده ، المعبود المحمود ، ذو الجلال والإكرام ، والأسماء والصفات العظام .

[وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون] فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم .

[فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم] أى : فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله ، بعد وضوحها ، [إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم] أى: من الهلاك والعقاب ، فإنهم صنعوا كصنيعهم وسنة الله جارية فى الأولين والآخرين .

[قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين] فستعلمون من تكون له العاقبة الحسنة ، والنجاة فى الدنيا والآخرة ، وليست إلا للرسل وأتباعهم .

* ولهذا قال : [ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا] من مكاره الدنيا والآخرة ، وشدائدهما .

عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّـٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ

[كذلك حقا علينا] أوجبناه على أنفسنا [ننجى المؤمنين] فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، فإنه — بحسب ما مع العبد من الإيمان — تحصل له النجاة من المكاره .

* يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، سيد المرسلين ، وإمام المتقين وخير الموقنين :

[قل يا أيها الناس إن كنتم فى شك من دينى] أى: فى ريب واشتباه فإنى لست فى شك منه ، بل لدىَّ العلم اليقين أنه الحق ، وأن ماتدعون من دون الله باطل ، ولى على ذلك ، الأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة .

ولهذا قال : [فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله] من الأنداد ، والأصنام وغيرها ، لأنها لاتخلق ولا ترزق ، ولاتدبر شيئا من الأمور ، وإنما هى مخلوقة مسخرة ، ليس فيها ما يقتضى عبادتها .

[ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم] أى : هو الله الذى خلقكم ، وهو الذى يميتكم ، ثم يبعثكم ، ليجازيكم بأعمالكم .

فهو الذى يستحق أن يعبد ، ويصلى له ويسجد .

[وأمرت أن أكون من المؤمنين * وأن أقم وجهك للدين حنيفا]

وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

أى : أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله ، وأقم جميع شرائع الدين حنيفا، أى : مقبلا على الله ، معرضاً عما سواه .

[ولا تكونن من المشركين] لا فى حالهم ، ولا تكن معهم .

[ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك] وهذا وصف لكل مخلوق ، أنه لا ينفع ولا يضر ، وإنما النافع الضار ، هو الله تعالى .

[فإن فعلت] أى : دعوت من دون الله ، مالا ينفعك ولا يضرك [فإنك إذا لمن الظالمين] أى : الضارين أنفسهم بإهلاكها .

وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى « إن الشرك لظلم عظيم » .

فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره ، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره ؟ ! !

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾

---

* هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده ، المستحق للعبادة ، فإنه : النافع الضار ، المعطى ، المانع ، الذى إذا مس بضر ، كفقر ومرض ، ونحوها [فلا كاشف له إلا هو] لأن الخلق ، لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشىء ، لم ينفعوا إلا بما كتبه الله ، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحداً ، لم يقدروا على شىء من ضرره ، إذا لم يرده .

ولهذا قال : [وإن يردك بخير فلا راد لفضله] أى : لايقدر أحد من الخلق ، أن يرد فضله وإحسانه

كما قال تعالى « ما يفتح الله للناس من رحمة ، فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده » .

[يصيب به من يشاء من عباده] أى : يختص برحمته من شاء من خلقه ، والله ذو الفضل العظيم .

[وهو الغفور] لجميع الزلات ، الذى يوفق عبده ، لأسباب مغفرته .

ثم إذا فعلها العبد ، غفر الله ذنوبه ، كبارها ، وصغارها .

[الرحيم] الذى وسعت رحمته كل شىء ، ووصل جوده إلى جميع الموجودات ، بحيث لا تستغنى عن إحسانه ، طرفة عين .

فإذا عرف العبد بالدليل القاطع ، أن الله ، هو المنفرد بالنعم ، وكشف.

﴿قُل يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا

النقم ، وإعطاء الحسنات ، وكشف السيئات والكربات ، وأن أحداً من الخلق ، ليس بيده من هذا شيء ، إلا ما أجراه الله على يده ، جزم بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه ، هو الباطل .

ولهذا — لما بين الدليل الواضح قال بعده : ـ

* أى : [قل] يا أيها الرسول ، لما تبين البرهان [يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم] أى : الخبر الصادق المؤيد بالبراهين ، الذى لاشك فيه ، بوجه من الوجوه ، وهو واصل إليكم من ربكم ، الذى من أعظم تربيته لكم ، أن أنزل إليكم هذا القرآن ، الذى فيه تبيان لكل شيء ، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية ، والأخلاق المرضية ، ما فيه أعظم تربية لكم ، وإحسان منه إليكم ، فقد تبين الرشد من الغى ، ولم يبق لأحد شبهة .

[فمن اهتدى] بهدى الله بأن علم الحق وتفهمه ، وآثره على غيره [فإنما يهتدى لنفسه] والله تعالى غنى عن عباده ، وإنما ثمرة أعمالهم ، راجعة إليهم .

[ومن ضل] عن الهدي بأن أعرض عن العلم بالحق ، أو عن العمل به .

[فإنما يضل عليها] ولا يضر الله شيئا ، فلا يضر إلا لنفسه .

وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

[وما أنا عليكم بوكيل] فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها ، وإنما أنا لكم نذير مبين ، والله عليكم وكيل .

فانظروا لأنفسكم ، مادمتم فى مدة الإمهال .

* [واتبع] أيها الرسول [ما يوحى إليك] علما ، وعملا ، وحالا ، ودعوة إليه .

[واصبر] على ذلك ، فإن هذا ، أعلى أنواع الصبر ، وأن عاقبته حميدة ، فلا تكسل ، ولا تضجر ، بل دم على ذلك ، واثبت .

[حتى يحكم الله] بينك وبين من كذبك [وهو خير الحاكمين] فإن حكمه ، مشتمل على العدل التام ، والقسط الذى يحمد عليه .

وقد امتثل صلى الله عليه وسلم أمر ربه ، وثبت على الصراط المستقيم ، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان ، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان بعد ما نصره الله عليهم ، بالحجة والبرهان .

فلله الحمد ، والثناء الحسن ، كما ينبغى لجلاله ، وعظمته ، وكماله ، وسعة إحسانه .

تم تفسير سورة يونس ـ والحمد لله رب العالمين

تفسير

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ

---

* يقول تعالى : هذا [كتاب] عظيم ، ونزل كريم .

[أحكمت آياته] أى : أتقنت وأحسنت ، صادقة أخبارها ، عادلة أوامرها ونواهيها ، فصيحة ألفاظه بهية معانيه .

[ثم فصلت] أى : ميزت ، وبينت بيانا ، فى أعلى أنواع البيان .

[من لدن حكيم] يضع الأشياء مواضعها ، وينزلها منالها .

لا يأمر ، ولا ينهى ، إلا بما تقتضيه حكمته .

[خبير] مطلع على الظواهر والبواطن .

فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير ، فلا تسأل بعد هذا ، عن عظمته وجلالته ، واشتماله على كمال الحكمة ، وسعة الرحمة .

وإنما أنزل الله كتابه لأجل [أن لاتعبدوا إلا الله] أى : لأجل إخلاص الدين كله لله ، وأن لا يشرك به أحد من خلقه .

[إننى لكم] أيها الناس [منه] أى : من الله ربكم [نذير] لمن تجرأ على المعاصى ، بعقاب الدنيا والآخرة .

وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

[وبشير] للمطيعين لله ، بثواب الدنيا والآخرة .

* [وأن استغفروا ربكم] عن ما صدر منكم من الذنوب [ثم توبوا إليه] فيما تستقبلون من أعماركم ، بالرجوع إليه ، بالإنابة والرجوع ، عما يكرهه الله إلى مايحبه ويرضاه .

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال : [يمتعكم متاعا حسنا] أى : يعطيكم من رزقه ، ما تتمتعون به ، وتنتفعون .

[إلى أجل مسمى] أى : إلى وقت وفاتكم [ويؤت] منكم [كل ذى فضل فضله] أى : يعطى أهل الإحسان والبر ، من فضله وبره ، ما هو جزاء لإحسانهم ، من حصول ما يحبون ، ودفع ما يكرهون .

[وإن تولوا] عن ما دعوتكم إليه ، بل أعرضتم عنه ، وربما كذبتم به [فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير] وهو يوم القيامة ، الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين .

* [إلى الله مرجعكم] ليجازيهم بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر .

وفى قوله : [وهو على كل شىء قدير] كالدليل على إحياء الله الموتى ، فإنه على كل شىء قدير ، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى ، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين ، فيجب وقوع ذلك عقلا ونقلا .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾

☆ يخبر تعالى عن جهل المشركين ، وشدة ضلالهم أنهم [يثنون صدورهم] أى : يميلونها [ليستخفوا منه] أى : من الله ، فتقع صدورهم حاجبة لعلم الله، بأحوالهم ، وبصره لهيئاتهم .

قال تعالى — مبيناً خطأهم فى هذا الظن —[ألا حين يستغشون ثيابهم] أى يتغطون بها ، يعلمهم فى تلك الحال ، التى هى من أخفى الأشياء .

بل [يعلم ما يسرون] من الأقوال والأفعال [وما يعلنون] منها .

بل ما هو أبلغ من ذلك وهو [أنه عليم بذات الصدور] أى: بما فيها من الإرادات، والوساوس ، والأفكار ، التى لم ينطقوا بها ، سراً ولا جهراً .

فكيف تخفى عليه حالكم ، إذا ثنيتم صدوركم لتستخفوا منه .

ويحتمل أن المعنى فى هذا ، أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول ، الغافلين عن دعوته ، أنهم — من شدة إعراضهم — يثنون صدورهم ، أى : يحدودبون ، حين يرون الرسول ، لئلا يراهم ، ويسمعهم دعوته ، ويعظهم بما ينفعهم .

فهل فوق هذا الإعراض شىء ؟!!

ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم ، وأنهم لا يخفون عليه ، وسيجازيهم بصنيعهم .

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ ﴾

☆ أى : جميع ما دب على وجه الأرض ، من آدمى ، وحيوان ، برى ، أو بحرى ، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم ، فرزقهم على الله .

[ويعلم مستقرها ومستودعها] أى : يعلم مستقر هذه الدواب ، وهو : المكان الذى تقيم فيه ، وتستقر فيه ، وتأوى إليه ، ومستودعها : المكان الذي تنتقل إليه فى ذهابها ومجيئها ، وعوارض أحوالها .

[كل] من تفاصيل أحوالها [فى كتاب مبين] أى : فى اللوح المحفوظ المحتوى على جميع الحوادث الواقعة ، والتى تقع فى السموات والأرض .

الجميع قد أحاط بها علم الله ، وجرى بها قلمه ، ونفذت فيها مشيئته ، ووسعها رزقه .

فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها ،وأحاط علماً بذواتها ، وصفاتها

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ

---

* يخبر تعالى ، أنه [خلق السموات والأرض فى ستة أيام] أولها : يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة .

[و] حين خلق السموات والأرض [كان عرشه على الماء] فوق السماء السابعة .

فبعد أن خلق السموات والأرض ، استوى على عرشه ، يدبر الأمور ، ويصرفها كيف شاء ، من الأحكام القدرية ، والأحكام الشرعية .

ولهذا قال [ليبلوكم أيكم أحسن عملا] أى : ليمتحنكم ، إذ خلق لكم ما فى السموات والأرض ، بأمره ونهيه ، فينظر أيكم أحسن عملا .

قال الفضيل بن عياض رحمه الله « دين الله أخلصه وأصوبه » .

قيل ، يا أبا على « ما أخلصه وأصوبه » ؟ .

فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صوابا ، لم يقبل .

وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً .

والخالص : أن يكون لوجه الله ، والصواب : أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة[١] .

---

(١) قوله : متبعاً فيه الشرع والسنة . أى : تكون العبادات جارية على الصورة الواردة بالكتاب والسنة، غير مخالفة لها ، لا بزيادة ولا نقصان ، =

وهذا كما قال تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » .

وقال تعالى : « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً » .

فالله تعالى خلق الخلق لعبادته ، ومعرفته بأسمائه وصفاته ، وأمرهم بذلك .

فمن انقاد ، وأدى ما أمر به ، فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون .

ولا بد أن يجمعهم فى دار ، يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم .

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء ، فقال : [ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ، ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين] .

=ولا وضع شىء من الأذكار فى غير مواضعها ، التى لم يرد بها كتاب ولا سنة، فلا يزاد فى الأذان ، الصلاة على النبى ، ولا يقرأ قرآن فى سجود ولا ركوع ، لأن ابتداع شىء فى العبادات وفى صورها استدراك على الشارع الحكيم ، وتجهيل له ، حيث لم يعرف الشارع الأكمل والأحسن ، وهذا معنى قبيح جداً ، لا يرضى به مؤمن ، ولا يقبله مسلم على نفسه .

إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

أي : ولئن قلت لهؤلاء ، وأخبرتهم بالبعث بعد الموت ، لم يصدقوك ، بل كذبوك أشد التكذيب ، وقدحوا فيما جئت به ، وقالوا : [إن هذا إلا سحر مبين] ألا وهو الحق المبين .

* [ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة] أى : إلى وقت مقدر فاستبطأوه ، لقالوا من جهلهم وظلمهم [ما يحبسه] .

ومضمون هذا ، تكذيبهم به ، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلا ، على كذب الرسول ، المخبر بوقوع العذاب ، فما أبعد هذا الاستدلال ! ! .

[ألا يوم يأتيهم العذاب ليس مصروفا عنهم] فيتمكنون من النظر فى أمرهم .

[وحاق بهم] أى : أحاط بهم ونزل [ما كانوا به يستهزئون] من العذاب ، حيث تهاونوا به ، حتى جزموا بكذب من جاء به .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

☆ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان ، أنه جاهل ظالم ، بأن الله إذا أذاقه منه رحمة ، كالصحة ، والرزق ، والأولاد ، ونحو ذلك ، ثم نزعها منه ، فإنه يستسلم لليأس ، وينقاد للقنوط ، فلا يرجو ثواب الله ، ولا يخطر بباله أن الله سيردها ، أو مثلها ، أو خيرا منها . عليه .

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته ، أنه يفرح ويبطر ، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير ويقول : [ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور] أى : يفرح بما أوتى مما يوافق هوى نفسه ، فخور بنعم الله على عباد الله .

وذلك يحمله على الأشر والبطر والإعجاب بالنفس ، والتكبر على الخلق ، واحتقارهم ، وازدرائهم . وأى عيب أشد من هذا ؟ ! !

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو ، إلا من وفقه الله ، وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده ، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء ، فلم ييأسوا ، وعند السراء ، فلم يبطروا ، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات .

[أولئك لهم مغفرة] لذنوبهم ، يزول بها عنهم كل محذور .

[وأجر كبير] وهو : الفوز بجنات النعيم ، التى فيها ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين .

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ

---

* يقول تعالى — مسلياً لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، عن تكذيب المكذبين: [فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك، وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز] .

أى: لا ينبغى هذا لمثلك ، أن قولهم يؤثر فيك ، ويصدك عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك ، ويضيق صدرك ، لتعنتهم بقولهم : [لولا انزل عليه كنز أو جاء معه ملك] .

فإن هذا القول ، ناشىء من تعنت ، وظلم ، وعناد ، وضلال ، وجهل بمواقع الحجج والأدلة .

فامض على أمرك ، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة ، التى لا تصدر إلا من سفيه ولا يضق لذلك صدرك .

فهل أوردوا عليك حجة ، لا تستطيع حلها ؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً ، يؤثر فيه ، وينقص قدره ، فيضيق صدرك لذلك ؟ ! .

أم عليك حسابهم ، ومطالب بهدايتهم جبرا ؟ .

و [إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل] فهو الوكيل عليهم ، يحفظ أعمالهم ، ويجازيهم بها أتم الجزاء .

* [أم يقولون افتراه] أى : افترى محمد هذا القرآن ؟ .

ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ

فأجابهم بقوله : [قل] لهم [فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين] .

أى : إن كان قد افتراه ، فإنه لا فرق بينكم وبينه فى الفصاحة والبلاغة ، وأنتم الأعداء حقاً ، الحريصون بغاية ما يمكنكم ، على إبطال دعوته .

فإن كنتم صادقين ، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات .

[فإن لم يستجيبوا لكم] على شىء من ذلكم [فاعلموا أنما أنزل بعلم الله] من عند الله ، لقيام الدليل والمقتضى ، وانتفاء المعارض .

[وأن لا إله إلا هو] أى : واعلموا [أنه لا إله إلا هو] أى : هو المستحق للألوهية والعبادة .

[فهل أنتم مسلمون] أى : منقادون لألوهيته ، مستسلمون لعبوديته .

وفى هذه الآيات ، إرشاد إلى أنه لا ينبغى للداعى إلى الله ، أن يصده اعتراض المعترضين ، ولا قدح القادحين .

خصوصاً ، إذا كان القدح لا مستند له ، ولا يقدح فيما دعا إليه ، وأنه لا يضيق صدره ، بل يطمئن بذلك ، ماضيا على أمره ، مقبلا على شأنه .

وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين ، للأدلة التى يختارونها .

بل يكفى إقامة الدليل ، السالم عن المعارض ،على جميع المسائل والمطالب .

فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ

وفيها أن هذا القرآن ، معجز بنفسه ، لا يقدر أحد من البشر ، أن يأتى بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، بل ولا سورة من مثله .

لأن الأعداء البلغاء الفصحاء ، تحداهم الله بذلك ، فلم يعارضوه ، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك .

وفيها : أن مما يطلب فيه العلم ، ولا يكفى غلبة الظن ، علم القرآن ، وعلم التوحيد .

لقوله تعالى : [فاعلمو أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو] .

* يقول تعالى [من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها] .

أى: كل إرادته ، مقصورة على الحياة الدنيا ، وعلى زينتها ، من النساء ، والبنين ، والقناطير المقنطرة ، من الذهب ، والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام والحرث .

قد صرف رغبته ، وسعيه ، وعمله ، فى هذه الأشياء ، ولم يجعل لدار القرار من إرادته ، شيئاً .

فهذا لا يكون إلا كافراً ، لأنه لو كان مؤمنا ، لكان ما معه من الإيمان ، ما يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا .

بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال ، أثر من آثار إرادته الدار الآخرة .

أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ

ولـكن هذا الشقى ، الذى كأنه خلق للدنيا وحدها [نوف إليهم أعمالهم فيها] أى : نعطيهم ما قسم لهم ، فى أم الـكتاب من ثواب الدنيا .

[وهم فيها لا يبخسون] أى : لا ينقصون شيئا ، ممـا قدر لهم ، ولـكن هذا منتهى نعيمهم .

* [أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار] خالدين فيها أبداً ، لا يُفَتَّر عنهم العذاب ، وقد حرموا جزيل الثواب .

[وحبط ما صنعوا فيها] أى : فى الدنيا ، أى ، بطل واضمحل ماعملوه مما يكيدون به الحق وأهله ، وما عملوه من أعمال الخير ، التى لا أساس لها ، ولا وجود لشرطها ، وهو الإيمان .

* يذكر تعالى ، حال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن قام مقامه ، من ورثته القائمين بدينه ، وحججه الموقنين بذلك ، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد مثلهم فقال :

[أفمن كان على بينة من ربه] بالوحى الذى أنزل الله فيه المسائل المهمة ، ودلائلها الظاهرة ، فتيقن تلك البينة .

[ويتلوه] أى : يتلو هذه البينة والبرهان ، برهان آخر [شاهد منه]

وَمِن قَبْلِهِ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

وهو شاهد الفطرة المستقيمة ، والعقل الصحيح حين شهد حقيقة، ما أوحاه الله وشرعه ، وعلم بعقله حسنه ، فازداد بذلك ، إيمانا إلى إيمانه .

[و] ثمّ شاهد ثالث [من قبله] وهو [كتاب موسى] التوراة ، التى جعلها الله [إماما] للناس [ورحمة] لهم ، يشهد لهذا القرآن بالصدق ، ويوافقه فيما جاء به من الحق .

أى : أفمن كان بهذا الوصف ، قد تواردت عليه شواهد الإيمان ، وقامت لديه ، أدلة اليقين ، كمن هو فى الظلمات والجهالات ، ليس بخارج منها ؟! .

لا يستوون عندالله ، ولا عند عبادالله .

[أولئك] أى : الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم .

[يؤمنون به] أى : بالقرآن حقيقة ، فيثمر لهم إيمانهم ، كل خير فى الدنيا والآخرة .

[ومن يكفر به من الأحزاب] أى : سائر طوائف أهل الأرض ، لمتحزبة على رد الحق .

[فالنار موعده] لا بد ، من وروده إليها [فلا تك فى مرية] .

أى : فى أدنى شك [منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون] .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

إما جهلا منهم ، وضلالا . وإما ظلماً وعناداً ، وبغياً .

وإلا ، فمن كان قصده حسناً ، وفهمه مستقيما ، فلا بد أن يؤمن به ، لأنه يرى ، ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه .

* يخبر تعالى ، أنه لا أحد [أظلم ممن افترى على الله كذبا] ويدخل فى هذا ، كل من كذب على الله ، بنسبة شريك له ، أو وصفه بما لا يليق بجلاله ، أو الإخبار عنه ، بما لم يقل ، أو ادعاء النبوة ، أو غير ذلك ، من الكذب على الله .

فهؤلاء أعظم الناس ظلما [أولئك يعرضون على ربهم] ليجازيهم بظلمهم .

فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد [يقول الأشهاد] أى: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم :

[هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين] .

أى : لعنة لا تنقطع ، لأن ظلمهم صار وصفا لهم ملازما ، لا يقبل التخفيف .

ثم وصف ظلمهم فقال [الذين يصدون عن سبيل الله] فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله ، وهى سبيل الرسل ، التى دعوا الناس إليها ، وصدوا غيرهم عنها ، فصاروا أئمة يدعون إلى النار .

وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ

[ويبغونها] أى : سبيل الله [عوجا] أى : يجتهدون فى ميلها ، وتشيينها ، وتهجينها ، لتصير عند الناس ، غير مستقيمة ، فيحسنون الباطل ويقبحون الحق ، قبحهم الله [وهم بالآخرة هم كافرون] .

[أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض] أى : ليسوا فائتين الله ، لأنهم تحت قبضته ، وفى سلطانه .

[وما كان لهم من دون الله من أولياء] فيدفعوا عنهم المكروه ، أو يحصلوا لهم ما ينفعهم ، بل تقطعت بهم الأسباب .

[يضاعف لهم العذاب] أى : يغلظ ويزداد ، لأنهم ضلوا بأنفسهم ، وأضلوا غيرهم .

[ما كانوا يستطيعون السمع] أى : من بغضهم للحق ، ونفورهم عنه ، ما كانوا يستطيعون ، أن يسمعوا آيات الله ، سماعا ينتفعون به « فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة » .

[وما كانوا يبصرون] أى : ينظرون نظر عبرة وتفكر ، فيما ينفعهم . وإنما هم كالصم البكم ، الذين لا يعقلون .

يُبْصِرونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ هُمُ ٱلأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

---

* [أولئك الذين خسروا أنفسهم] حيث فوتوها ، أعظم الثواب ، واستحقوا أشد العذاب .

[وضل عنهم ما كانوا يفترون] أي : اضمحل دينهم ، الذى يدعون إليه ويحسنونه ، ولم تغن عنهم آلهتهم ، التى يعبدون من دون الله ، لما جاء أمر ربك .

[لا جرم] أى : حقا وصدقا [أنهم فى الآخرة هم الأخسرون] .

حصر الخسار فيهم ، بل جعل لهم منه أشده ، لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة والعذاب . فنستجير بالله من حالهم .

ولما ذكر حال الأشقياء ، ذكر أوصاف السعداء ، وما لهم عند الله من الثواب .

فقال : (إن الذين آمنوا) إلى قوله (أفلا تذكرون) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [إن الذين آمنوا] بقلوبهم ، أى : صدقوا واعترفوا ، لما أمر الله بالإيمان به ، من أصول الدين وقواعده .

[وعملوا الصالحات] المشتملة على أعمال القلوب والجوارح ، وأقوال اللسان .

[وأخبتوا إلى ربهم] أى : خضعوا له ، واستكانوا لعظمته ، وذلوا لسلطانه ، وأنابوا إليه بمحبته ، وخوفه ، ورجائه ، والتضرع إليه .

[أولئك] الذين جمعوا تلك الصفات [أصحاب الجنة هم فيها خالدون] . لأنهم لم يتركوا من الخير مطلبا ، إلا أدركوه ، ولا خيراً ، إلا سبقوا إليه .

[مثل الفريقين] أى : فريق الأشقياء ، وفريق السعداء .

[كالأعمى والأصم] هؤلاء الأشقياء .

[والبصير والسميع] مثل السعداء .

[هل يستويان مثلا] لا يستوون مثلا ، بل بينهما من الفرق ، ما لا يأتى عليه الوصف .

[أفلا تذكرون] الأعمال ، التى تنفعكم ، فتفعلونها ، والأعمال التى تضركم ، فتتركونها .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ

أى : [ولقد أرسلنا نوحاً] أول المرسلين [إلى قومه] يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال : [إنى لكم نذير مبين] أى : بينت لكم ما أنذرتكم به ، بيانا زال به الإشكال .

[أن لا تعبدوا إلا الله] أى : أخلصوا العبادة لله وحده ، واتركوا كل ما يعبد من دون الله .

[إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم] إن لم تقوموا بتوحيد الله ، وتطيعونى .

[فقال الملأ الذين كفروا من قومه] أى: الأشراف والرؤساء ، رادين لدعوة نوح عليه السلام ، كما جرت العادة لأمثالهم ، أنهم أول من رد دعوة المرسلين :

[ما نراك إلا بشراً مثلنا] وهذا مانع — بزعمهم — عن اتباعه ، مع أنه — فى نفس الأمر — هو الصواب ، الذى لا ينبغى غيره، لأن البشر، يتمكن البشر ، أن يتلقوا عنه ، ويراجعوه فى كل أمر ، بخلاف الملائكة .

[وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا] أى : ما نرى اتبعك منا ، إلا الأراذل والسفلة ، بزعمهم .

وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً

وهم — فى الحقيقة ــ الأشراف ، وأهل العقول ، الذين انقادوا للحق ، ولم يكونوا كالأراذل ، الذين يقال لهم الملأ ، الذين اتبعوا كل شيطان مريد ، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر ، يتقربون إليها ويسجدون .

فهل ترى أرذل من هؤلاء وأخس ؟ .

وقولهم : [بادى الرأى] أى . إنما اتبعوك من غير تفكر وروية ، بل بمجرد ما دعوتهم ، اتبعوك .

يعنون بذلك ، أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم ، ولم يعلموا أن الحق المبين ، تدعو إليه بداهة العقول ، وبمجرد ما يصل إلى أولى الألباب ، يعرفونه ويتحققونه .

لا كالأمور الخفية ، التى تحتاج إلى تأمل ، وفكر طويل .

[وما نرى لكم علينا من فضل] أى : لستم أفضل منا فننقاد لكم .

[بل نظنكم كاذبين] وكذبوا فى قولهم هذا ، فإنهم رأوا من الآيات ، التى جعلها الله مؤيدة لنوح ، ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه .

ولهذا [قال] لهم نوح مجاوبا [يا قوم إن كنت على بينة من ربى] أى : على يقين وجزم ، يعنى ، وهو الرسول الكامل القدوة ، الذى ينقاد له أولو الألباب ، وتضمحل فى جنب عقله ، عقول الفحول من الرجال ، وهو الصادق حقاً .

فإذا قال : إنى على بينة من ربى ، فحسبك بهذا القول ، شهادة له وتصديقا .

مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا

[وآتانى رحمة من عنده] أى: أوحى إلى وأرسلنى، ومنّ على بالهداية.

[فعميت عليكم] أى: خفيت عليكم، وبها تثاقلتم.

[أنلزمكموها] أى: أنكرهكم على ما تحققناه، وشككتم أنتم فيه؟

[وأنتم لها كارهون] حتى حرصتم على رد ما جئت به، ليس ذلك ضارنا، وليس بقادح من يقيننا فيه، ولا قولكم وافتراؤكم علينا، صادًا لنا عما كنا عليه.

وإنما غايته، أن يكون صادًا لكم أنتم، وموجباً لعدم انقيادكم للحق، تزعمون أنه باطل.

فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية، فلا نقدر على إكراهكم، على ما أمر الله، ولا إلزامكم، ما نفرتم عنه، ولهذا قال:

[أنلزمكموها وأنتم لها كارهون].

[وياقوم لا أسألكم عليه] أى: على دعوتى إياكم [مالا] فتستثقلون المغرم.

[إن أجرى إلا على الله] وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء.

فقال لهم [وما أنا بطارد الذين آمنوا] أى: ما ينبغى لى، ولا يليق

تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ

ذلك ، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام ، والإعزاز والإعظام [إنهم ملاقون ربهم] فمثيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم .

[ولكنى أراكم قوما تجهلون] حيث تأمروننى ، بطرد أولياء الله ، وإبعادهم عنى .

وحيث رددتم الحق ، لأنهم أتباعه ، وحيث استدللتم على بطلان الحق بقولكم « إنى على بشر مثلكم » وإنه ليس لنا عليكم من فضل .

[وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم] أى : من يمنعنى من عذابه ، فإن طردهم ، موجب للعذاب والنكال ، الذى لا يمنعه من دون الله مانع .

[أفلا تذكرون] ما هو الأنفع لكم والأصلح ، وتدبرون الأمور .

[ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إنى ملك] أى : غايتى أنى رسول الله إليكم ، أبشركم ، وأنذركم ، وما عدا ذلك ، فليس بيدى من الأمر شىء .

فليست خزائن الله عندى ، أدبرها أنا ، وأعطى من أشاء ، وأحرم من أشاء .

[ولا أعلم الغيب] فأخبركم بسرائركم وبواطنكم [ولا أقول إنى ملك] .

والمعنى : أنى لا أدعى رتبة فوق رتبتى ، ولا منزلة سوى المنزلة ، التى أنزلنى الله بها ، ولا أحكم على الناس ، بظنى .

لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ

[ولا أقول للذين تزدرى أعينكم] أى : الضعفاء المؤمنين ، الذى يحتقرهم الملأ الذين كفروا [لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما فى أنفسهم] .

فإن كانوا صادقين فى إيمانهم ، فلهم الخير الكثير ، وإن كانوا غير ذلك ، فحسابهم على الله .

[إنى إذاً] أى : إن قلت لكم شيئا مما تقدم [لمن الظالمين] .

وهذا تأييس منه ، عليه الصلاة والسلام لقومه ، أن ينبذ فقراء المؤمنين ، أو يمقتهم ، وإقناع لقومه ، بالطرق المقنعة للمنصف .

فلما رأوه ، لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم ، ولم يدركوا منه مطلوبهم [قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين] .

فما أجهلهم وأضلهم ، حيث قالوا هذه المقالة ، لنبيهم الناصح .

فهلا قالوا : إن كانوا صادقين : يانوح قد نصحتنا ، وأشفقت علينا ، ودعوتنا إلى أمر ، لم يتبين لنا ، فنريد منك أن تبينه لنا . لننقاد لك ، وإلا فأنت مشكور فى نصحك .

لكان هذا الجواب المنصف ، للذى قد دعا إلى أمر خفى عليه .

ولكنهم فى قولهم ، كاذبون ، وعلى نبيهم متجرئون .

ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة ، فضلا عن أن يردوه بحجة .

إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى

ولهذا عدلوا — من جهلهم وظلمهم — إلى الاستعجال بالعذاب ، وتعجيز الله .

ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله [إنما يأتيكم به الله إن شاء] أى : إن اقتضت مشيئته وحكمته ، أن ينزله بكم ، فعل ذلك .

[وما أنتم بمعجزين] لله ، وأنا ليس بيدى من الأمر شىء .

[ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم] .

أى : إن إرادة الله غالبة ، فإنه إذا أراد أن يغويكم ، لردكم الحق .

فلو حرصت غاية مجهودى ، ونصحت لكم أتم النصح — وهو قدفعل عليه السلام — فليس ذلك بنافع لكم شيئاً .

[وهو ربكم] يفعل بكم ما يشاء ، ويحكم فيكم ، بما يريد [وإليه ترجعون] فيجازيكم بأعمالكم .

[أم يقولون افتراه] هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح ، كما كان السياق فى قصته مع قومه ، وأن المعنى : أن قومه يقولون : افترى على الله كذبا ، وكذب بالوحى الذى يزعم أنه من الله ، وأن الله أمره أن يقول [قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون] أى: كلٌّ عليه وزره « ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

وَأَنَا بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وتكون هذه الآية معترضة ، فى أثناء قصة نوح وقومه ، لأنها من الأمور التى لا يعلمها إلا الأنبياء .

فلما شرع الله فى قصها على رسوله ، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته ، ذكر تكذيب قومه مع البيان التام فقال :

[أم يقولون افتراه] أى . هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه .

أى : فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها ، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتاب ، فجاء بهذا الكتاب، الذى تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله .

فإذا زعموا — مع هذا — أنه افتراه ، علم أنهم معاندون ، ولم يبق فائدة فى حجاجهم .

بل اللائق فى هذه الحال ، الإعراض عنهم ، ولهذا قال :

[قل إن افتريته فعلى إجرامى] أى ذنبى وكذبى .

[وأنا برىء مما تجرمون] أى : فلم تستلجون فى تكذيبى .

وقوله : [وأوحى إلى نوح ، أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن] أى : قد قسوا .

[فلا تبتئس بما كانوا يفعلون] أى : فلا تحزن ، ولا تبال بهم ، وبأفعالهم .

وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ

فإن الله ، قد مقتهم ، وأحق عليهم عذابه الذى لا يرد .

[واصنع الفلك بأعيننا ووحينا] أى : بحفظنا ، ومرأى منا ، وعلى مرضاتنا .

[ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا] أى : لا تراجعنى فى إهلاكهم .

[إنهم مغرقون] أى : قد حق القول ، ونفذ فيهم القدر .

فامتثل أمر ربه ، وجعل يصنع الفلك [وكلما مر عليه ملأ من قومه] ورأوا ما يصنع [سخروا منه ، قال إن تسخروا منا] الآن [فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم] نحن ، أم أنتم . وقد علموا ذلك ، حين حل بهم العقاب .

[حتى إذا جاء أمرنا] أى قدرنا بوقت نزول العذاب بهم [وفار التنور] أى : أنزل الله السماء بالماء المنهمر ، وفجر الأرض كلها عيونا حتى التنانير ، التى هى محل النار فى العادة ، وأبعد ما يكون عن الماء ، تفجرت فالتقى الماء على أمر ، قد قدر .

[وقلنا] لنوح : [احمل فيها من كل زوجين اثنين] أى : من كل صنف من أصناف المخلوقات ، ذكر وأنثى ، لتبقى مادة سائر الأجناس

زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا

وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين ، فإن السفينة لا تطيق حملها [وأهلك إلا من سبق عليه القول] ممن كان كافراً ، كابنه الذى غرق .

[ومن آمن ، و] الحال أنه [ما آمن معه إلا قليل] .

[وقال] نوح لمن أمره الله أن يحملهم : [اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها] أى . تجرى على اسم الله ، وترسى بتسخيره وأمره .

[إن ربى لغفور رحيم] حيث غفر لنا ، ورحمنا ، ونجانا من القوم الظالمين .

ثم وصف جريانها كأنا نشاهدها فقال :

[وهى تجرى بهم] أى : بنوح ، ومن ركب معه [فى موج كالجبال] و الله حافظها وحافظ أهلها .

[ونادى نوح ابنه] لما ركب ، ليركب معه [وكان] ابنه [فى معزل] عنهم ، حين ركبوا ، أى : مبتعداً وأراد منه ، أن يقرب ليركب .

فقال له : [يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين] فيصيبك ما يصيبهم .

[وقال] ابنه ، مكذبا لأبيه ، أنه لا ينجو إلا من ركب السفينة .

وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ

[سآوى إلى جبل يعصمني من الماء] أى : سأرتقى جبلا ، أمتنع به من الماء .

[قال] نوح : [لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم] فلا يعصم أحداً ، جبل ولا غيره ، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب ، لما نجا إن لم ينجه الله .

[وحال بينهما الموج فكان] الابن [من المغرقين] .

[و] لما أغرقهم الله ، ونجى نوحا ومن معه [قيل ياأرض ابلعى ماءك] الذى خرج منك ، والذى نزل إليك ، ابلعى الماء ، الذى على وجهك [وياسماء أقلعى] فامتثلتا لأمر الله ، فابتلعت الأرض ماءها ، وأقلعت السماء .

[وغيض الماء] أى : نضب من الأرض .

[وقضى الأمر] بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين .

[واستوت] السفينة [على الجودى] أى : أرست على ذلك الجبل المعروف فى أرض الموصل .

[وقيل بعداً للقوم الظالمين] أى : أتبعوا بهلاكهم لعنة وبعداً ، وسحقاً ، لا يزال معهم .

إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾

[ونادى نوح ربه فقال رب : إن ابني من أهلى ، وإن وعدك الحق] .
وقد قلت لى « فاحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك » ولن تخلف ما وعدتنى به .

لعله عليه الصلاة والسلام ، لما حملته الشفقة ، وأن الله وعده بنجاة أهله ، ظن أن الوعد لعمومهم ، من آمن ، ومن لم يؤمن ، فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء .

ومع هذا ، ففوض الأمر لحكمة الله البالغة ، حيث قال :[وأنت أحكم الحاكمين] .

[قال] الله له : [إنه ليس من أهلك] الذين وعدتك بإنجائهم [إنه عمل غير صالح] أى : هذا الدعاء الذى دعوت به ، لنجاة كافر ، لا يؤمن بالله ولا رسوله .

[فلا تسألن ما ليس لك به علم] أى : مالا تعلم عاقبته ، ومآله ، وهل يكون خيراً ، أو غير خير .

[إنى أعظك أن تكون من الجاهلين] أى : أنى أعظك وعظاً ، تكون به من الكاملين ، وتنجو به من صفات الجاهلين .

فحينئذ ندم نوح ، عليه السلام ، ندامة شديدة ، على ما صدر منه ،

قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم

و [قال ربى إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين] .

فبالمغفرة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين .

ودل هذا ، على أن نوحاً ، عليه السلام ، لم يكن عنده علم ، بأن سؤاله لربه ، فى نجاة ابنه ، محرم .

داخل فى قوله [ولا تخاطبنى في الذين ظلموا إنهم مغرقون] بل ، تعارض عنده الأمران ، وظن دخوله فى قوله : [وأهلك] .

وبعد هذا ، تبين له أنه داخل فى المنهى عن الدعاء لهم ، والمراجعة فيهم.

[قيل : يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك] من الآدميين وغيرهم من الأزواج التى حملها معه .

فبارك الله فى الجميع ، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها .

[وأمم سنمتعهم] في الدنيا [ثم يمسهم منا عذاب أليم] أى : هذا الإنجاء ، ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك ، أحللنا به العقاب ، وإن متعوا قليلا ، فسيؤخذون بعد ذلك .

قال الله لنبيه ، محمد صلى الله عليه وسلم . بعد ما قص عليه هذه القصة المبسوطة ، التى لا يعلمها إلا منّ عليه برسالته .

مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ

[تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا] فيقولوا : إنه كان يعلمها .

فاحمد الله ، واشكره ، واصبر على ما أنت عليه ، من الدين القويم ، والصراط المستقيم ، والدعوة إلى الله .

[إن العاقبة للمتقين] الذين يتقون الشرك وسائر المعاصى .

فستكون لك العاقبة على قومك ، كما كانت لنوح على قومه .

* أى [و] أرسلنا [إلى عاد] وهم القبيلة المعروفة فى الأحقاف ، من أرض اليمن .

[أخاهم] فى النسب [هوداً] ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه .

[قال] لهم [ياقوم اعبدوا الله ، مالكم . من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون] أى : أمرهم بعبادة الله وحده ، ونهاهم عما هم عليه ، من عبادة غير الله ، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب فى عبادتهم لغيره ، وتجويزهم لذلك ، وأوضح لهم وجوب عبادة الله ، وفساد عبادة ما سواه .

عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال [ياقوم لا أسألكم عليه أجراً] .

أى: غرامة من أموالكم ، على ما دعوتكم إليه ، فتقولوا : هذا يريد أن يأخذ أموالنا ، وإنما أدعوكم وأعلمكم مجانا .

[إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون] ما أدعوكم إليه ، وأنه موجب لقبوله ، منتفى المانع عن رده .

[وياقوم استغفروا ربكم] عما مضى منكم [ثم توبوا إليه] فيما تستقبلونه ، بالتوبة النصوح ، والإنابة إلى الله تعالى .

فإنكم إذا فعلتم ذلك [يرسل السماء عليكم مدراراً] بكثرة الأمطار ، التى تخصب بها الأرض ، ويكثر خيرها .

[ويزدكم قوة إلى قوتكم] فإنهم كانوا من أقوى الناس ، ولهذا قالوا : « من أشد منا قوة » ؟ .

فوعدهم أنهم إن آمنوا ، زادهم قوة إلى قوتهم .

[ولا تتولوا] عنه ، أى : عن ربكم [مجرمين] أى : مستكبرين عن عبادته ، متجرئين على محارمه .

قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا

[قالوا] رادين لقوله : [يا هود ما جئتنا ببينة] إن كان قصدهم بالبينة البينة التى يقترحونها ، فهذه غير لازمة للحق ، بل اللازم أن يأتى النبى بآية ، تدل على صحة ماجاء به .

وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببينة ، تشهد لما قاله بالصحة ، فقد كذبوا فى ذلك .

فإنه ما جاء نبى لقومه ، إلا وبعث الله على يديه ، من الآيات ، مايؤمن على مثله البشر .

ولو لم تكن له آية ، إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله، وحده لاشريك له ، والأمر بكل عمل صالح ، وخلق جميل ، والنهى عن كل خلق ذميم ، من الشرك بالله ، والفواحش ، والظلم ، وأنواع المنكرات ، مع ما هو مشتمل عليه هود ، عليه السلام ، من الصفات ، التى لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم ، لكفى بها آيات وأدلة ، على صدقه .

بل أهل العقول ، وأولو الألباب ، يرون أن هذه الآية ، أكبر من مجرد الخوارق ، التى يراها بعض الناس ، هى المعجزات فقط .

ومن آياته ، وبيناته الدالة على صدقه ، أنه شخص واحد ، ليس له أنصار ولا أعوان .

وهو يصرخ فى قومه ، ويناديهم ، ويعجزهم ، ويقول لهم :
« إنى توكلت على الله ربى وربكم » .

بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ

[إنى أشهد الله واشهدوا ، أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون] .

وهم الأعداء ، الذين لهم السطوة والغلبة ، ويريدون إطفاء ما معه من النور ، بأى طريق كان ، وهو غير مكترث ، ولا مبال بهم ، وهم عاجزون لا يقدرون أن ينالوه بشىء من السوء ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وقولهم [وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك] أى : لانترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك ، الذى ما أقمت عليه بينة بزعمهم .

[وما نحن لك بمؤمنين] وهذا تأييس منهم لنبيهم ، هود عليه السلام ، فى إيمانهم ، وأنهم لا يزالون فى كفرهم يعمهون .

[إن نقول] فيك [إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء] أى : أصابتك بخبال وجنون ، فصرت تهذى بما لا يعقل .

فسبحان من طبع على قلوب الظالمين ، كيف جعلوا أصدق الخلق ، الذى جاء بأحق الحق ، بهذه المرتبة ، التى يستحى العاقل من حكايتها عنهم لولا أن الله حكاها عنهم .

ولهذا بين هود ، عليه الصلاة والسلام ، أنه واثق غاية الوثوق ، أنه لايصيبه منهم ، ولا من آلهتهم أذى ، فقال :

[إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا] .

عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى

أى : اطلبوا إلىّ الضرر كلكم ، بكل طريق تتمكنون بها منى [ثم لاتنظرون] أى : لا تمهلون .

[إنى توكلت على الله] أى : اعتمدت فى أمرى كله على الله [ربى وربكم] أى : هو خالق الجميع ، ومدبرنا وإياكم ، وهو الذى ربانا .

[ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها] فلا تتحرك ولا تسكن إلا بإذنه .

فلو اجتمعتم جميعا على الإيقاع بى ، والله لم يسلطكم علىّ ، لم تقدروا على ذلك ، فإن سلطكم ، فالحكمة أرادها .

[إن ربى على صراط مستقيم] أى : على عدل ، وقسط ، وحكمة ، وحمد فى قضائه وقدره ، وشرعه وأمره ، وفى جزائه وثوابه ، وعقابه .

لاتخرج أفعاله عن الصراط المستقيم ، التى يحمد ، ويثنى عليه بها .

[فإن تولوا] عما دعوتكم إليه [فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم] فلم يبق علىّ تبعة من شأنكم .

[ويستخلف ربى قوماً غيركم] يقومون بعبادته ، ولا يشركون به شيئاً .

[ولاتضرونه شيئاً] فإن ضرركم ، إنما يعود إليكم ، فالله لاتضره

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ

معصية العاصين . ولا تنفعه طاعة الطائعين « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » .

[إن ربى على كل شيء حفيظ] .

* [ولما جاء أمرنا] أي : عذابنا بإرسال الريح العقيم ، التي « ما تذر من شيء أتت عليه ، إلا جعلته كالرميم » .

[نجينا هودا ، والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ] أي : عظيم شديد ، أحله الله بـ « عاد » ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم .

* [وتلك عاد] الذين أوقع الله بهم ما أوقع ، بظلم منهم لأنهم [جحدوا بآيات ربهم] ولهذا قالوا : « ماجئتنا ببينة » .

فتبين بهذا ، أنهم متيقنون لدعوته ، وإنما عاندوا وجحدوا [وعصوا رسله] .

لأن من عصى رسولا ، فقد عصى جميع المرسلين ، لأن دعوتهم واحدة .

[واتبعوا أمر كل جبار] أي : متسلط على عباد الله بالجبروت .

عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

[عنيد] أى : معاند لآيات الله .

فعصوا كل ناصح ومشفق عليهم ، واتبعوا كل غاش لهم ، يريد إهلاكهم لاجرم أهلكهم الله .

[وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة] فما من وقت وجيل ، إلا ولأنبائهم القبيحة ، وأخبارهم الشنيعة، ذكر يذكرون به،وذم يلحقهم [ويوم القيامة] لهم أيضاً لعنة .

[ألا إن عادا كفروا ربهم] أى : جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم .

[ألا بعدا لعاد قوم هود] أى : أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ

---

* أى [و] أرسلنا [إلى ثمود] وهم : عاد الثانية ، المعروفون ، الذين يسكنون الحجر ، ووادى القرى .

[أخاهم] فى النسب [صالحا] عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده .

[قال ياقوم اعبدوا الله] أى : وحدوه ، وأخلصوا له الدين [ما لكم من إله غيره] لا من أهل السماء ، ولا من أهل الأرض .

[هو أنشأكم من الأرض] أى : خلقكم منها [واستعمركم فيها] أى : استخلفكم فيها ، وأنعم عليكم بالنعم ، الظاهرة والباطنة ، ومكنكم فى الأرض ، تبنون ، وتغرسون ، وتزرعون ، وتحرثون ماشئتم ، وتنتفعون بمنافعها ، وتستغلون مصالحها .

فكما أنه لاشريك له فى جميع ذلك ، فلا تشركوا به فى عبادته .

[فاستغفروه] مما صدر منكم ، من الكفر ، والشرك ، والمعاصي ، وأقلعوا عنها .

[ثم توبوا إليه] أى : ارجعوا إليه بالتوبة النصوح ، والإنابة .

[إن ربى قريب مجيب] أى : قريب ممن دعاه دعاء مسألة ، أو دعاء عبادة .

يجيبه بإعطائه سؤاله ، وقبول عبادته ، وإثابته عليها ، أجل الثواب .

واعلم أن قربه تعالى نوعان : عام ، وخاص .

فالقرب العام ، قربه بعلمه ، من جميع الخلق ، وهو المذكور فى قوله تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

والقرب الخاص ، قربه من عابديه ، وسائليه ، ومحبيه ، وهو المذكور فى قوله تعالى « فاسجد واقترب » .

وفى هذه الآية ، وفى قوله : « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى » .

وهذا النوع ، قرب يقتضى إلطافه تعالى ، وإجابته لدعواتهم ، وتحقيقه لمرادتهم ، ولهذا يقرن ، باسمه « القريب » اسمه « المجيب » .

فلما أمرهم نبيهم صالح عليه السلام ، ورغبهم فى الإخلاص لله وحده ، ردوا عليه دعوته ، وقابلوه أشنع المقابلة .

[قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا] أى : قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع .

وهذا شهادة منهم ، لنبيهم صالح ، أنه مازال معروفا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ، وأنه من خيار قومه .

ولكنه ، لما جاءهم بهذا الأمر ، الذى لايوافق أهواءهم الفاسدة ، قالوا هذه المقالة ، التى مضمونها ، أنك قد كنت كاملا ، والآن أخلفت ظننا فيك ، وصرت بحالة لايرجى منك خير .

وذنبه ، ما قالوه عنه : [أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا] وبزعمهم أن

وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَـٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ

هذا ، من أعظم القدح فى صالح ، كيف قـدح فى عقولهم ، وعقول آبائهم الضالين ، وكيف ينهاهم عن عبادة ، من لا ينفع ولا يضر ، ولا يغنى شيئا من الأحجار ، والأشجار ونحوها .

وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم ، الذى لم تزل نعمه عليهم تترى ، وإحسانه عليهم دائماً ينزل ، الذى ، ما بهم من نعمة ، إلا منه ، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو .

[وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب] أى : ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه ، شكا مؤثراً فى قلوبنا الريب .

وبزعمهم أنهم لو علموا ، صحة ما دعاهم إليه ، لاتبعوه ، وهم كذبة فى ذلك ، ولهذا بين كذبهم فى قوله :

[قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى] أى : برهان ويقين منى [وآتانى منه رحمة] أى : منَّ علىَّ برسالته ووحيه .

أى : أفأتابعكم على ما أنتم عليه ، وما تدعوننى إليه ؟ .

[فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير] أى : غير خسار وتباب ، وضرر .

[وياقوم هذه ناقة الله لكم آية] لها شرب من البئر يوماً ، ثم يشربون كلهم من ضرعها ، ولهم شرب يوم معلوم .

لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟

[فذروها تأكل فى أرض الله] أى : ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شىء .

[ولا تمسوها بسوء] أى : بعقر [فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال] لهم صالح : [تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب] بل لابد من وقوعه .

[فلما جاء أمرنا] بوقوع العذاب [نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ] أى : نجيناهم من العذاب والخزى والفضيحة .

[إن ربك هو القوى العزيز] ومن قوته وعزته ، أن أهلك الأمم الطاغية ، ونجّى الرسل وأتباعهم .

[وأخذ الذين ظلموا الصيحة] فقطعت قلوبهم .

[فأصبحوا فى ديارهم جاثمين] أى : خامدين لاحراك لهم .

[كأن لم يغنوا فيها] أى : كأنهم — لما جاءهم العذاب — ما تمتعوا

رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ

فى ديارهم ، ولا أنسوا فيها ، ولاتنعموا بها يوماً من الدهر

قد فارقهم النعيم ، وتناولهم العذاب السرمدى ، الذى ينقطع ، والذى كأنه لم يزل .

[ألا إن ثمودا كفروا ربهم] أى : جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المبصرة .

[ألا بعدا لثمود] فما أشقاهم وأذلهم ، نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها .

* أى : [ولقد جاءت رسلنا] من الملائكة الكرام ، رسولنا [إبراهيم] الخليل [بالبشرى] أى : بالبشارة بالولد ، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم ، فيبشروه بإسحق .

فلما دخلوا عليه [قالوا سلاما ، قال سلام] أى : سلموا عليه ، ورد عليهم السلام .

ففى هذا مشروعية السلام ، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام وأن السلام قبل الكلام ، وأنه ينبغى أن يكون الرد ، أبلغ من الابتداء ، لأن سلامهم بالجملة الفعلية ، الدالة على التجدد ، ورده بالجملة الاسمية ، الدالة على الثبوت والاستمرار ، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم فى علم العربية .

[فما لبث] إبراهيم لما دخلوا عليه [أن جاء بعجل حنيذ] أى : بادر

لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ

لبيته ، فاستحضر لأضيافه عجلا مستويا[1] على الرضف سمينا ، فقربه إليهم فقال : ألا تأكلون ؟ .

[فلما رأى أيديهم لاتصل إليه] أى : إلى تلك الضيافة[2] [نكرهم وأوجس منهم خيفة] وظن أنهم أتوه بشر ومكروه ، وذلك قبل أن يعرف أمرهم .

[قالوا : لاتخف ، إنا أرسلنا إلى قوم لوط] أى : إنا رسل الله ، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط .

---

(١) مستويا أى : مشويا على الحجارة المحماة بالنار كالفرن فى عصرنا.

(٢) قوله (إلى تلك الضيافة) الأوضح أن يقال (إلى العجل الحنيذ) لأن الضمير لايرجع إلا إلى مذكور . وكلمة (الضيافة) غير مذكورة : ولايصح أيضاً حمل (الضيافة) على الطعام الذى يقدم للضيف لمخالفته لنصوص اللغة .

قال فى القاموس وضفته أضيفه ضيفا وضيافة نزلت عليه ضيفا . ا هـ

وفى « المختار من الصحاح » أضاف الرجل وضيفه تضييفاً أنزله به ضيفا وضافه ضيافة ، إذا نزل عليه ضيفا وكذا تضيفه . ا هـ .

ومما ذكرنا يعلم أن (الضيافة) مصدر لفعل (ضيافة) .

فلا يصح إطلاق المصدر على طعام الضيف بوجه من الوجوه ، لا حقيقة ولامجازاً .

أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ

[وامرأته] أى : وامرأة إبراهيم [قائمة] تخدم أضيافه [فضحكت] حين سمعت بحالهم ، وما أرسلوا به ، تعجباً .

[فبشرناها بإسحق ، ومن وراء إسحاق يعقوب] فتعجبت من ذلك و [قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا] فهذان ما نعان من وجود الولد [إن هذا لشيء عجيب] .

[قالوا أتعجبين من أمر الله] فإن أمره لاعجب فيه ، لنفوذ مشيئته التامة فى كل شيء ، فلا يستغرب على قدرته شيء ، وخصوصاً فيما يدبره ويمضيه ، لأهل هذا البيت المبارك .

[رحمة الله وبركاته] أى : لاتزال رحمته ، وإحسانه ، وبركاته ، وهى : الزيادة من خيره وإحسانه ، وحلول الخير الإلهى [عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد] .

أى : حميد الصفات ، لأن صفاته ، صفات كمال .

حميد الأفعال ، لأن أفعاله ، إحسان ، وجود ، وبر ، وحكمة ، وعدل ، وقسط .

مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ

مجيد ، والمجد : هو عظمة الصفات وسعتها ، فله صفات الكمال ؛ وله من كل صفة كمال ، أكملها ، وأتمها ، وأعمها .

[فلما ذهب عن إبراهيم الروع] الذى أصابه من خيفة أضيافه [وجاءته البشرى] بالولد ، التفت حينئذ ، إلى مجادلة الرسل فى إهلاك قوم لوط .

وقال لهم : « إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله ، إلا امرأته » .

[إن إبراهيم لحليم] أى : ذو خلق وسعة صدر ، وعدم غضب ، عند جهل الجاهلين .

[أواه] أى : متضرع إلى الله فى جميع الأوقات .

[منيب] أى : رجَّاع إلى الله ، بمعرفته ومحبته ، والإقبال عليه ، والإعراض عمن سواه ، فلذلك كان يجادل عن من حتَّم الله بهلاكهم .

فقيل له: [يا إبراهيم أعرض عن هذا] الجدال [إنه قد جاء أمر ربك] بهلاكهم [وإنهم آتيهم عذاب غير مردود] فلا فائدة فى جدالك .

[ولما جاءت رسلنا] أى : الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا .

بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ

[لوطا سيء بهم] أي : شق عليه مجيئهم .

[وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب] أي : شديد حرج .

لأنه علم أن قومه لا يتركونهم ، لأنهم فى صور شباب ، جرد ، مرد ، فى غاية الكمال والجمال ، ولهذا وقع ما خطر بباله .

[وجاءه قومه يهرعون إليه] أى : يسرعون ويبادرون ، يريدون أضيافه بالفاحشة ، التى ما سبقهم إليها أحد من العالمين .

[قال : ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم] من أضيافى ، وهذا كما عرض سليمان صلى الله عليه وسلم ، على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه ، لاستخراج الحق .

ولعله أن بناته ممتنع منالهن ، ولا حق لهم فيهن .

والمقصود الأعظم ، دفع هذه الفاحشة الكبرى .

[فاتقوا الله ولاتخزون فى ضيفى] أى : إما أن تراعوا تقوى الله ، وإما أن تراعونى فى ضيفى ، ولاتخزونى عندهم .

[أليس منكم رجل رشيد] فينهاكم ، ويزجركم .

وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم ، من الخير والمروءة .

[قالوا] له : [لقد علمت مالنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم

مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا

ما نريد] أى : لا نريد إلا الرجال ، ولا لنا رغبة فى النساء .

فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام ، و [قال : لو أن لى بكم قوة ، أو آوى إلى ركن شديد] كقبيلة ما نعة ، لمنعتكم .

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة ، وإلا ، فإنه يأوى إلى أقوى الأركان وهو الله ، الذى لا يقوم لقوته أحد ، ولهـذا لما بلغ الأمر منتهاه ، واشتد الكرب .

[قالوا] له : [يالوط إنا رسل ربك] أى : أخبروه بحالهم ، ليطمئن قلبه .

[لن يصلوا إليك] بسوء .

ثم قال جبريل بجناحه ، فطمس أعينهم ، فانطلقوا يتوعدون لوطا بمجىء الصبح .

وأمر الملائكة لوطا ، أن يسرى بأهله [بقطع من الليل] أى : بجانب منه قبل الفجر بكثير ، ليتمكنوا من البعد عن قريتهم .

[ولا يلتفت منكم أحد] أى : بادروا بالخروج ، وليكن همكم النجاة ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم .

[إلا امرأتك إنه مصيبها] من العذاب [ما أصابهم] لأنها تشارك قومها فى الإثم ، فتدلهم على أضياف لوط ، إذا نزل به أضياف .

مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

[إن موعدهم الصبح] فكأن لوطا ، استعجل ذلك ، فقيل له : [أليس الصبح بقريب] .

[فلما جاء أمرنا] بنزول العذاب ، وإحلاله فيهم [جعلنا] ديارهم [عاليها سافلها] أى . قلبناها عليهم [وأمطرنا عليها حجارة من سجيل] أى : من حجارة النار الشديدة الحرارة [منضود] أى . متتابعة ، تتبع من شذ عن القرية .

[مسومة عند ربك] أى : معلمة ، عليها علامة العذاب والغضب .

[وما هى من الظالمين] الذين يشابهون لفعل قوم لوط [ببعيد] .

فليحذر العباد ، أن يفعلوا كفعلهم ، لئلا يصيبهم ما أصابهم .

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟

☆ أى (و) أرسلنا [إلى مدين] القبيلة المعروفة ، الذين يسكنون مدين ، فى أدنى فلسطين .

[أخاهم] فى النسب [شعيبا] لأنهم يعرفونه ، ويتمكنون من الأخذ عنه .

[قال] لهم : [ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره] أى : أخلصوا له العبادة .

فإنهم كانوا يشركون .

وكانوا — مع شركهم — يبخسون المكيال والميزان ، ولهذا نهاهم عن ذلك فقال :

[ولا تنقصوا المكيال والميزان] بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط .

[إنى أراكم بخير] أى بنعمة كثيرة ، وصحة ، وكثرة أموال وبنين ، فاشكروا الله على ما أعطاكم ، ولا تكفروا بنعمة الله ، فيزيلها عنكم .

[وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط] أى : عذاباً يحيط بكم ، ولا يبقى منكم باقية .

[ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط] أى : بالعدل الذى ترضون أن تعطوه .

ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ

[ولاتبخسوا الناس أشياءهم] أي : لاتنقصوا من أشياء الناس ، فتسرقوها بأخذها ، بنقص المكيال والميزان .

[ولا تعثوا فى الأرض مفسدين] فإن الاستمرار على المعاصى ، يفسد الأديان ، والعقائد ، والدين ، والدنيا ، ويهلك الحرث ، والنسل .

[بقية الله خير لكم] أى : يكفيكم ما أبقى الله لكم من الخير ، وما هو لكم .

فلا تطمعوا فى أمر لكم عنه غنية ، وهو ضار لكم جداً .

[إن كنتم مؤمنين] فاعملوا بمقتضى الإيمان .

[وما أنا عليكم بحفيظ] أى : لست بحافظ لأعمالكم ، ووكيل عليها.

وإنما الذى يحفظها ، الله تعالى ، وأما أنا ، فأبلغكم ما أرسلت به .

[قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا] أى : قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم ، والاستبعاد لإجابتهم له .

ومعنى كلامهم : أنه لا موجب لنهيك لنا ، إلا أنك تصلى لله ، وتتعبد له .

فإن كنت كذلك ، أفيوجب لنا أن نترك ما يعبد آباؤنا ، لقول ليس عليه دليل ، إلا أنه موافق لك ، فكيف نتبعك ، ونترك آباءنا الأقدمين، أولى العقول والألباب ؟ !

أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ

وكذلك لايوجب قولك لنا : «أن نفعل فى أموالنا» ماقلت لنا ، من وفاء الكيل ، والميزان ، وأداء الحقوق الواجبة فيها ، بل لانزال نفعل فيها ما شئنا ، لأنها أموالنا ، فليس لك فيها تصرف .

ولهذا قالوا فى تهكمهم : [إنك لأنت الحليم الرشيد] أى : إنك أنت الذى ، الحلم والوقار ، لك خلق ، والرشد لك سجية ، فلا يصدر عنك إلا رشد ، ولا تأمر إلا برشد ، ولا تنهى إلا عن غى ، أى : ليس الأمر كذلك .

وقصدهم ، أنه موصوف بعكس هذين الوصفين : بالسفه والغواية .

أى : أن المعنى : كيف تكون أنت الحليم الرشيد ، وآباؤنا هم السفهاء الغاوين ؟ ! !

وهذا القول الذى أخرجوه بصيغة التهكم ، وأن الأمر بعكسه ، ليس كما ظنوه .

بل الأمر كما قالوه . إن صلاته تأمره أن ينهاهم ، عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا فى أموالهم ما يشاءون ، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وأى فحشاء ومنكر، أكبر من عبادة غير الله ، ومن منع حقوق عباد الله ، أوسرقتها ، بالمكاييل ، والموازين ، وهو ،عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد .

مَآ أَنْهَـٰكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ

[قال] لهم شعيب : [ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى] أي : يقين وطمأنينة ، فى صحة ما جئت به .

[ورزقنى منه رزقاً حسناً] أى . أعطانى الله من أصناف المال ، ما أعطانى .

[و] أنا [ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه] فلست أريد أن أنهاكم عن البخس ، فى المكيال ، والميزان ، وأفعله أنا ، حتى تتطرق إلىّ التهمة فى ذلك .

بل ما أنهاكم عن أمر ، إلا وأنا ، أول مبتدر[1] لتركه .

[إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت] أى : ليس لى من المقاصد ، إلا أن تصلح أحوالكم ، وتستقيم منافعكم ، وليس لى من المقاصد الخاصة لى وحدى ، شيء بحسب استطاعتى .

ولما كان هذا ، فيه نوع تزكية للنفس ، دفع هذا بقوله : [وما توفيقى إلا بالله] أى : ما يحصل لى من التوفيق لفعل الخير ، والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى ، لابحولى ، ولا بقوتى .

[عليه توكلت] أى : اعتمدت فى أمورى ، ووثقت فى كفايته .

[وإليه أنيب] فى أداء ما أمرنى به ، من أنواع العبادات .

وفى هذا التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات .

---

(١) مبتدر . أى : مسارع إليه .

شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا

وبهذين الأمرين، تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه، والإنابة إليه، كما قال تعالى « فاعبدوه وتوكل عليه » وقال: « إياك نعبد وإياك نستعين ».

[ويا قوم لا يجرمنكم شقاق] أي: لاتحملنكم مخالفتي ومشاقتي [أن يصيبكم] من العقوبات [مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وما قوم لوط منكم ببعيد] لا في الدار، ولا في الزمان

[واستغفروا ربكم] عما اقترفتم من الذنوب [ثم توبوا إليه] فيما يستقبل من أعماركم، بالتوبة النصوح، والإنابة إليه بطاعته، وترك مخالفته.

[إن ربي رحيم ودود] لمن تاب وأناب، يرحمه، فيغفر له، ويتقبل توبته، ويحبه.

ومعنى الودود، من أسمائه تعالى، أنه يحب عباده المؤمنين، ويحبونه، فهو « فعول » بمعنى « فاعل » ومعنى « مفعول ».

[قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول] أي: تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم، فقالوا: « ما نفقه كثيراً مما تقول » وذلك لبغضهم لما يقول، ونفرتهم عنه.

مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ

[وإنا لنراك فينا ضعيفا] أي : في نفسك ، لست من الكبار والرؤساء بل من المستضعفين .

[ولولا رهطك] أي : جماعتك وقبيلتك [لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز] .

أي : ليس لك قدر فى صدورنا ، ولا احترام فى أنفسنا ، وإنما احترمنا قبيلتك ، بتركنا إياك .

[قال] لهم مترفقا لهم ، [ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله] .

أي : كيف تراعوننى لأجل رهطى ، ولا تراعوننى لله ، فصار رهطى أعز عليكم من الله .

[واتخذتموه وراءكم ظهريا] أي : نبذتم أمر الله ، وراء ظهوركم ، ولم تبالوا به ، ولا خفتم منه .

[إن ربى بما تعملون محيط] لا يخفى عليه من أعمالكم ، مثقال ذرة ، فى الأرض ، ولا فى السماء ، فسيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء .

[و] لما أعيوه وعجز عنهم قال : [ياقوم اعملوا على مكانتكم] أي . على حالتكم ودينكم .

عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

[إنى عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه] ويحل عليه عذاب مقيم [ومن هو كاذب] أنا أم أنتم ، وقد علموا بذلك ذلك حين وقع عليهم العذاب .

[وارتقبوا] ما يحل بى [إنى معكم رقيب] مايحل بكم .

[ولما جاء أمرنا] بإهلاك قوم شعيب [نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين] لا تسمع لهم صوتا ، ولا ترى منهم حركة [كأن لم يغنوا فيها] أى: كأنهم ما أقاموا فى ديارهم ، ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب .

[ألا بعداً لمدين] إذ أهلكها الله وأخزاها [كما بعدت ثمود] أى : قد اشتركت هاتان القبيلتان ، فى السحق ، والبعد ، والهلاك .

وشعيب عليه السلام ، كان يسمى خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته لقومه .

وفى قصته من الفوائد والعبر ، شيء كثير .

منها : أن الكفار ، كما يعاقبون ، ويخاطبون ، بأصل الإسلام ، فكذلك بشرائعه وفروعه ، لأن شعيبا دعا قومه إلى التوحيد ، وإلى إيفاء المكيال والميزان ، وجعل الوعيد ، مرتبا على مجموع ذلك .

. . . .

ومنهـا : أن نقص المكاييل والموازين ، من كبائر الذنوب ، وتخشى العقوبة العاجلة ، على من تعاطى ذلك ، وأن ذلك ، من سرقة أموال الناس .

وإذا كان سرقتهم فى المكاييل والموازين ، موجبة للوعيد ، فسرقتهم — على وجه القهر والغلبة — من باب أولى ، وأحرى .

ومنها : أن الجزاء عن جنس العمل .

فمن بخس أموال الناس ، يريد زيادة ماله ، عوقب بنقيض ذلك ، وكان سببا لزوال الخير ، الذى عنده ، من الرزق لقوله :

[إنى أراكم بخير] أى : فلا تتسببوا إلى زواله بفعلكم .

ومنها : أن على العبد ، أن يقنع بما آتاه الله ، ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة ، عن المكاسب المحرمة ، وأن ذلك خير له لقوله : [بقية الله خير لكم] .

ففى ذلك ، من البركة ، وزيادة الرزق ، ما ليس فى التكالب على الأسباب المحرمة ، من المحق ، وضد البركة .

ومنها : أن ذلك ، من لوازم الإيمان ، وآثاره ، فإنه رتب العمل به ، على وجود الإيمان .

فدل ، على أنه إذا لم يوجد العمل ، فالإيمان ناقص ، أومعدوم .

ومنها : أن الصلاة ، لم تزل مشروعة للأنبياء للتقدمين ، وأنها من أفضل الأعمال .

. . . .

حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها ، وتقديمها على سائر الأعمال ، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى ميزان للإيمان وشرائعه .

فبإقامتها على وجهها ، تكمل أحوال العبد ، وبعدم إقامتها ، تختل أحواله الدينية .

ومنها : أن المال الذى يرزقه الله الإنسان — وإن كان الله قد خوله إياه — فليس له أن يصنع فيه ما يشاء ، فإنه أمانة عنده ، عليه أن يقيم حق الله فيه ، بأداء ما فيه ، من الحقوق ، والامتناع من المكاسب ، التى حرمها الله ورسوله .

لا كما يزعمه الكفار ، ومن أشبههم ، أن أموالهم ، لهم أن يصنعوا فيها ما يشاءون ويختارون ، ، سواء وافق حكم الله ، أو خالفه .

ومنها : أن من تكملة دعوة الداعى وتمامها ، أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به .

وأول منتهٍ ، عما ينهى غيره عنه ، كما قال شعيب عليه السلام :

[وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه] ولقوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون » .

ومنها : أن وظيفة الرسل ، وسنتهم ، وملتهم ، إرادة الإصلاح ، بحسب القدرة والإمكان ، بتحصيل المصالح وتكميلها ، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها ، وبدفع المفاسد وتقليلها ، ويراعون المصالح الخاصة .

وحقيقة المصلحة ، هى التى تصلح بها أحوال العباد ، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية .

. . . .

ومنها : أن من قام بما يقـدر عليه من الإصلاح ، لم يكن ملوماً ولا مذموماً ، فى عدم فعله ، مالا يقدر عليه .

فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح فى نفسه ، وفى غيره ، مايقدر عليه .

ومنها : أن العبد ، ينبغى له أن لا يتـكل على نفسه طرفة عين .

بل لايزال مستعينا بربه ، متوكلا عليه ، سائلا له التوفيق .

وإذا حصل له شيء من التوفيق ، فلينسبه لموليه ومسديه ، ولا يعجب بنفسه لقوله : [وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب] .

ومنها : الترهيب بأخذات الأمم ، وما جرى عليهم ، وأنه ينبغى أن تذكر القصص ، التى فيها إيقاع العقـوبات بالمجرمين ، فى سياق الوعظ والزجر .

كما أنه ينبغى ذكر ما أكرم الله به أهل التقوي ، عنـد الترغيب ، والحث على التقوى .

ومنها : أن التائب من الذنب كما يسمح له[1] عن ذنبه ، ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه و يوده .

ولا عيرة بقول من يقول « إن التائب إذا تاب ، فحسبه أن يغفر له ، ويعود عليه بالعفو ، وأما عود الود الحب فإنه لا يعود .

فإن الله قال: « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ».

---

(١) قوله (كما يسمح) الأولى أن يقال: (كما يتجاوز له عن ذنبه)

. . . .

ومنها : أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة ، قد يعلمون بعضها ، وقد لا يعلمون شيئاً منها .

وربما دفع عنهم ، بسبب قبيلتهم ، وأهل وطنهم الكفار ، كما دفع الله عن شعيب ، رجم قومه ، بسبب رهطه . وأن هذه الروابط ، التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين ، لا بأس بالسعي فيها ، بل ربما تعين ذلك . لأن الإصلاح مطلوب ، على حسب القدرة والإمكان .

فعلى هذا ، لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار ، وعملوا على جعل الولاية جمهورية ، يتمكن فيها الأفراد والشعوب ، من حقوقهم الدينية والدنيوية ، لكان أولى ، من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم ، الدينية والدنيوية ، وتحرص على إبادتها ، وجعلهم عَمَلَةً وَخَدَمًا لهم .

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين ، وهم الحكام ، فهو المتعين .

ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة ، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا ، مقدمة . والله أعلم .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾

---

* يقول تعالى : [ولقد أرسلنا موسى] بن عمران [بآياتنا] الدالة على صدق ما جاء به ، كالعصا ، واليد ونحوهما ، من الآيات التي أجراها الله على يدى موسى عليه السلام .

[وسلطان مبين] أى : حجة ظاهرة بينة ، ظهرت ظهور الشمس .

[إلى فرعون وملإه] أى : أشراف قومه ، لأنهم المتبوعون، وغيرهم تبع لهم ، فلم ينقادوا لما مع موسى من الآيات ، التي أراهم إياها ، كما تقدم بسطها فى سورة الأعراف

[فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد] بل هو ضال غاوٍ ، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض .

لا جرم — لما اتبعه قومه — أرداهم وأهلكهم .

[يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * وأتبعوا فى هذه] أى : فى الدنيا [لعنة ويوم القيامة] أى : يلعنهم الله وملائكته ، والناس أجمعون فى الدنيا والآخرة .

[بئس الرفد المرفود] أى : بئس ما اجتمع لهم ، وترادف عليهم ، من عذاب الله ، ولعنة الدنيا والآخرة .

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم ، قال الله تعالى لرسوله :

وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

[ذلك من أنباء القرى نقصه عليك] لتنذر به ، ويكون آية على رسالتك ، وموعظة وذكرى للمؤمنين .

[منها قائم] لم يتلف ، بل بقى من آثار ديارهم ، ما يدل عليهم .

[و] منها [حصيد] قد تهدمت مساكنهم ، واضمحلت منازلهم ، فلم يبق لها أثر .

[وما ظلمناهم] بأخذهم بأنواع العقوبات [ولكن ظلموا أنفسهم] بالشرك والكفر ، والعناد .

[فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك] وهكذا كل من التجأ إلى غير الله ، لم ينفعه ذلك ، عند نزول الشدائد .

[وما زادوهم غير تتبيب] أى . خسار ودمار ، بالضد مما خطر ببالهم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ

---

* أى : يقصمهم بالعذاب ويبيدهم ، ولا ينفعهم ، ما كانوا يدعون ، من دون الله من شىء .

* [إن فى ذلك] المذكور ، من أخذه للظالمين ، بأنواع العقوبات .

[لآية لمن خاف عذاب الآخرة] أى : لعبرة ودليلا ، على أن أهل الظلم والإجرام ، لهم العقوبة الدنيوية ، والعقوبة الأخروية .

ثم انتقل من هذا ، إلى وصف الآخرة فقال : [ذلك يوم مجموع له الناس] .

أى : جمعوا لأجل ذلك اليوم ، للمجازاة ، وليظهر لهم ، من عظمة الله وعدله العظيم ، ما به يعرفونه حق المعرفة .

[وذلك يوم مشهود] أى : يشهده الله وملائكته ، وجميع المخلوقين.

[وما نؤخره] أى : إتيان يوم القيامة [إلا لأجل معدود] إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق ، فحينئذ ينقلهم إلى الدار الأخرى ، ويجرى عليهم أحكامه الجزائية ، كما أجرى عليهم فى الدنيا ، أحكامه الشرعية .

إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَوَاتُ وَٱلْأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ

[يوم يأت] ذلك اليوم ، ويجتمع الخلق [لا تكلم نفس إلا بإذنه] حتى الأنبياء ، والملائكة الكرام ، لا يشفعون إلا بإذنه .

[فمنهم] أى : الخلق [شقى وسعيد] .

فالأشقياء ، هم الذين كفروا بالله ، وكذبوا رسله ، وعصوا أمره .

والسعداء ، هم : المؤمنون المتقون .

وأما جزاؤهم [فأما الذين شقوا] أى : حصلت لهم الشقاوة ، والخزى والفضيحة .

[ففى النار] منغمسون فى عذابها ، مشتد عليه عقابها .

[لهم فيها] من شدة ما هم فيه [زفير وشهيق] وهو أشنع الأصوات وأقبحها .

[خالدين فيها] أى : فى النار ، التى هذا عذابها [ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك] أى : خالدين فيها أبداً ، إلا المدة التى شاء الله ، أن لا يكونوا فيها ، كما قاله جمهور المفسرين .

فالاستثناء على هذا ، راجع إلى ما قبل دخولها ، فهم خالدون فيها جميع الأزمان ، سوى الزمن الذى قبل الدخول فيها .

[إن ربك فعال لما يريد] فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته ،

فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَـآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ

فعله ، تبارك وتعالى ، لا يرده أحد عن مراده .

[وأما الذين سعدوا] أى : حصلت لهم السعادة ، والفلاح ، والفوز [ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك] ثم أكد ذلك بقوله .

[عطاء غير مجذوذ] أى : ما أعطاهم الله من النعيم المقيم ، واللذة العالية ، فإنه دائم مستمر ، غير منقطع بوقت من الأوقات .

نسأل الله الكريم من فضله أن يجعلنا منهم .

* يقول الله تعالى ، لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم : [فلا تك فى مرية مما يعبد هؤلاء] المشركون ، أى : لا تشك فى حالهم ، وأن ما هم عليه باطل ، فليس لهم ، دليل شرعى ولا عقلى .

وإنما دليلهم وشبهتهم ، أنهم [ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل] .

ومن المعلوم أن هذا ، ليس بشبهة ، فضلا عن أن يكون دليلا ، لأن أقوال ما عدا الأنبياء ، يحتج بها .

خصوصا أمثال هؤلاء الضالين ، الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم ، فى أصول الدين .

إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ

فإن أقوالهم ، وإن اتفقوا عليها ، فإنها خطأ وضلال .

[وإنا لموفون نصيبهم غير منقوص] أى : لا بد أن ينالهم نصيب من الدنيا ، مما كتب لهم ، وإن كثر ذلك النصيب ، أو راق فى عينك ، فإنه لا يدل على صلاح حالهم .

فإن الله يعطى الدنيا ، من يحب ، ومن لا يحب ، ولا يعطى الإيمان والدين الصحيح ، إلا من يحب .

والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين ، على قول الضالين من آبائهم الأقدمين .

ولا على ما خولهم الله ، وآتاهم من الدنيا .

* [يخبر تعالى ، أنه آتى موسى الكتاب ، الذى هو التوراة ، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه ، والاجتماع ، ولكن ، مع هذا ، فإن المنتسبين إليه ، اختلفوا فيه اختلافا ، أضر بعقائدهم ، وبجامعتهم الدينية .

[ولولا كلمة سبقت من ربك] بتأخيرهم ، وعدم معاجلتهم بالعذاب [لقضى بينهم] بإحلال العقوبة بالظالم ، ولكنه تعالى ، اقتضت حكمته ، أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة ، وبقوا فى شك مريب .

مُرِيبٌ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ

وإذا كانت هذه حالهم ، مع كتابهم ، فهم القرآن الذى أوحاه الله إليك ، غير مستغرب ، من طائفة اليهود ، أن لا يؤمنوا به ، وأن يكونوا فى شك منه مريب .

[وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم] أى : لابد أن يقضى الله بينهم يوم القيامة ، بحكمه العدل ، فيجازى كلا بما يستحق .

[إنه بما يعملون] من خير وشر [خبير] فلا يخفى عليه شىء من أعمالهم ، دقيقها وجليلها .

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم ، التى أوجبت اختلافهم وافتراقهم ، أمر نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومن معه ، من المؤمنين ، أن يستقيموا كما أمروا ، فيسلكوا ما شرعه الله ، من الشرائع ، ويعتقدوا ، ما أخبر الله من العقائد الصحيحة ، ولا يزيغوا عن ذلك ، يمنة ، ولا يسرة ، ويدوموا على ذلك ، ولا يطغوا ، بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة .

وقوله [إنه بما تعملون بصير] أى : لا يخفى عليه من أعمالكم شىء ، وسيجازيكم عليها .

ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة ، وترهيب من ضدها ، ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال :

[ولا تركنوا إلى الذين ظلموا] فإنكم ، إذا ملتم إليهم ، ووافقتموهم

ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

على ظلمهم ، أو رضيتم ما هم عليه من الظلم [فتمسكم النار] إن : فعلتم ذلك [وما لكم من دون الله من أولياء] يمنعونكم من عذاب الله ، ولا يحصلون لكم شيئاً ، من ثواب الله .

[ثم لا تنصرون] أى : لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم .

ففى هذه الآية : التحذير من الركون إلى كل ظالم .

والمراد بالركون ، الميل والانضمام إليه بظلمه ، وموافقته ، على ذلك ، والرضا بما هو عليه من الظلم .

* وإذا كان هذا الوعيد فى الركون إلى الظلمة ، فكيف حال الظلمة ؟!!

نسأل الله العافية من الظلم .

يأمر تعالى : بإقامة الصلاة كاملة [طرفى النهار] أى : أوله وآخره .

ويدخل فى هذا ، صلاة الفجر ، وصلاتا الظهر والعصر .

[وزلفا من الليل] ويدخل فى ذلك ، صلاة المغرب والعشاء .

ويتناول ذلك قيام الليل ، فإنها مما تزلف العبد ، وتقربه إلى الله تعالى .

[إن الحسنات يذهبن السيئات] أى : فهذه الصلوات الخمس ، وما ألحق بها من التطوعات ، من أكبر الحسنات .

وهى — مع أنها حسنات — تقرب إلى الله ، وتوجب الثواب ، فإنها تذهب السيئات وتمحوها .

والمراد بذلك : الصغائر ، كما قيدتها الأحاديث الصحيحة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، مثل قوله :

« والصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر »

بل كما قيدتها الآية التى فى سورة النساء ، وهى قوله عز وجل .

« إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً » .

ذلك ولعل الإشارة ، لكل ما تقدم ، من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم ، وعدم مجاوزته وتعديه ، وعدم الركون إلى الذين ظلموا .

ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

والأمر بإقامة الصلاة ، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات ، الجميع [ذكرى للذاكرين] يفهمون بها ما أمرهم الله به ، ونهاهم عنه ، ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات ، الدافعة للشرور والسيئات .

ولكن تلك الأمور ، تحتاج إلى مجاهدة النفس ، والصبر عليها ، ولهذا قال :

[واصبر] أى : احبس نفسك على طاعة الله ، وعن معصيته ، وإلزامها لذلك ، واستمر ولا تضجر .

[فإن الله لا يضيع أجر المحسنين] بل يتقبل الله عنهم أحسن الذى عملوا ، ويجزيهم أجرهم ، بأحسن ما كانوا يعملون .

وفى هذا ترغيب عظيم ، للزوم الصبر ، بتشويق النفس الضعيفة ، إلى ثواب الله ، كلما ونت وفترت .

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

---

* لما ذكر تعالى، إهلاك الأمم المكذبة للرسل، وأن أكثرهم منحرفون عن أهل الكتب الإلهية، وذلك كله يقضى على الأديان بالذهاب والاضمحلال، ذكر أنه، لولا أنه جعل فى القرون الماضية بقايا، من أهل الخير، يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والردى، فحصل من نفعهم، وأبقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جداً.

وغاية الأمر، أنهم نجوا، باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم، ويكون حجة الله أجراها على أيديهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة.

[و] لكن [اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه] أى: اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف، ولم يبغوا به بدلا.

[وكانوا مجرمين] أى: ظالمين، باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب.

وفى هذا، حث لهذه الأمة، أن يكون فيهم بقايا مصلحون، لما أفسد

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

الناس ، قائمون بدين الله ، يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم ، على الأذى ، ويبصرونهم من العمى .

وفى هذه الحالة ، أعلى حالة يرغب فيها الراغبون ، وصاحبها يكون ، إماما فى الدين ، إذ جعل عمله خالصاً لرب العالمين .

* أى : وما كان الله ليهلك القرى بظلم منه لهم ، والحال أنهم مصلحون ، أى : مقيمون على الصلاح ، مستمرون عليه .

لما كان الله ليهلكهم ، إلا إذا ظلموا ، وقامت عليهم حجة الله .

ويحتمل ، أن المعنى : وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق ، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم ، فإن الله يعفو عنهم ، ويمحوا ما تقدم من ظلمهم .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

---

* يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس أمة واحدة على الدين الإسلامى، فإن مشيئته غير قاصرة ، ولا يمتنع عليه شيء .

ولكنه اقتضت حكمته ، أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للصراط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار ، كل يرى الحق ، فيما قاله ، والضلال فى قول غيره .

[إلا من رحم ربك] فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به ، والاتفاق عليه.

فهؤلاء سبقت لهم ، سابقة السعادة ، وتداركتهم العناية الربانية ، والتوفيق الإلهى .

وأما من عداهم ، فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم .

وقوله : [ولذلك خلقهم] أى : اقتضت حكمته ، أنه خلقهم ، ليكون منهم السعداء والأشقياء ، والمتفقون والمختلفون ، والفريق الذى هدى الله ، والفريق الذى حقت عليهم الضلالة .

ليتبين للعباد ، عدله ، وحكمته ، وليظهر ، ما كمن فى الطباع البشرية ، من الخير والشر ، ولتقوم سوق الجهاد والعبادات ، التى لا تتم ولا تستقيم ، إلا بالامتحان والابتلاء .

[و] لأنه [تمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين .

فلا بد أن ييسر للنار أهلا ، يعملون بأعمالها الموصلة إليها .

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾

---

* لما ذكر فى هذه السورة من أخبار الأنبياء، ما ذكر، ذكر الحكمة فى ذكر ذلك، فقال:

[وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك] أى، قلبك ليطمئن، ويثبت، وتصبر، كما صبر أولى العزم من الرسل.

فإن النفوس تأنس بالاقتداء وتنشط على الأعمال، وتريدالمنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهده، وكثرة من قام به.

[وجاءك فى هذه] السورة [الحق] اليقين، فلا شك فيه، بوجه من الوجوه.

فالعلم بذلك، من العلم بالحق، الذى هو أكبر فضائل النفوس.

[وموعظة وذكرى للمؤمنين] أى: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله، فيفعلونها.

وأما من ليس من أهل الإيمان، فلاتنفعهم المواعظ، وأنواع التذكير، ولهذا قال:

[وقل للذين لا يؤمنون] بعد ما قامت عليهم الآيات.

[اعملوا على مكانتكم] أى: حالتكم التى أنتم عليها [إنا عاملون] على

وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

ما كنا عليه [وانتظروا] ما يحل بنا [إنا منتظرون] ما يحل بكم .

وقد فصل الله بين الفريقين ، وأرى عباده ، نصره لعباده المؤمنين ، وقمعه لأعداء الله المكذبين .

[ولله غيب السموات والأرض] أى : ما غاب فيهما ، من الخفايا ، والأمور الغيبية .

[وإليه يرجع الأمر كله] من الأعمال والعمال ، فيميز الخبيث من الطيب .

[فاعبده وتوكل عليه] أى : قم بعبادته ، وهى جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه ، وتوكل على الله فى ذلك .

[وما ربك بغافل عما تعملون] من الخير والشر ، بل قد أحاط علمه بذلك ، وجرى به قلمه ، وسيجرى عليه حكمه ، وجزاؤه .

تم تفسير سورة هود

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وسلم

وكان الفراغ من نسخه فى يوم السبت فى ٢١ من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٧

إنتهى بعون الله وفضله وكرمه « الجزء الثالث » من كتاب :

﴿ تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ﴾

بانتهاء تفسير سورة (هود)

ويليه — إن شاء الله — « الجزء الرابع »

وأوله تفسير سورة (يوسف)



فهرس

الجزء الثالث

صفحة



تم طبع كتاب

﴿ تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ﴾

تأليف علّامة القَصِيم الأستاذ الجليل الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدى

رقم الإيداع ٢٣٩٢/١٩٧٧